

المغول وأوروبا

دكتور

محمد سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقاً

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سنوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش فنال السريس - الشالين - ت ٥٩٧٣١٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهداء

إلى شهداء وأبطال معركة عين جالوت
أهدى هذا الكتاب

دكتور محمود سعيد عمران

المحتوى

صفحة

١٣	مقدمه:
١٣	أحوال الشرق الاسلامي زمن المغول
١٤	الخلافة العباسية
١٦	الدولة الخوارزمية
١٨	سلاجقة الروم
٢٢	الأيوبيون
٢٩	الفصل الاول
٣١	قيام دولة المغول
٣١	جنكيزخان
٣٤	تنظيم الامبراطورية
٣٨	فتوحات جنكيزخان
٤١	أوكيتاي ١٢٢٧ - ١٢٤١م
٤٤	باطو وغزو روسيا
٤٩	باطو وشرق أوربا
٥٢	كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨م
٥٥	مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠م
٦٥	قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤م
٦٦	معركة عين جالوت ١٢٦٠م
٧١	أباقا خان (فارس) ١٢٦٥ - ١٢٨٢
٧٤	مغول القفجاق
٧٦	تيمورلنك ١٣٦٩ - ١٤٠٢م
٧٩	الطرق التجارية زمن المغول

٨٣	الفصل الثاني
٨٥	أوربا زمن المغول
٨٥	انجلترا
١٠٢	فرنسا
١١٨	المانيا
١٣٨	الباباوية
١٦١	الفصل الثالث
١٦١	روسيا والغزو المغولي
١٦٣	مقدمه
١٦٧	تطور الامة الروسية
١٧٩	الغزو المغولي
١٩٥	إقامة حكومة المملكة المستبدة
٢٠٤	روسيا تحت حكم رومانوف الأول
٢١١	الفصل الرابع
٢١٣	السفارات بين المغول وأوربا قبل عين جالوت
٢١٣	مقدمه
٢١٦	المغول وأسطورة الكاهن يوحنا
٢١٨	سفراء البابا إنوسنت الرابع
٢٢٧	لويس التاسع والمغول

صفحة

٢٤٩	الفصل الخامس :
٢٤٩	السفارات بين المغول واوربا بعد عين جالوت
٢٥٣	سفارات أرغون الى اوربا
٢٦٥	سفارات أوجايتو الى اوربا
٢٧٠	نشاط البعثات التبشيرية
٢٧٢	فكرة الحصار الاقتصادي لدولة المماليك
٢٨٧	خاتمة
٢٨٩	المغول والاسلام
٢٩٥	المداول والخرائط

مقدمة
أحوال الشرق الاسلامي زمن المغول

- أ - الخلافة العباسية
- ب - الدولة الخوارزمية
- ج - سلاجقة الروم
- د - الأيوبيون

مقدمه

أحوال الشرق الاسلامي زمن المغول :

كان العالم الاسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول مقسماً إلى مجموعة من الممالك والدويلات الصغيرة بعضها قوى وبعضها ضعيف سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية. كما تميزت هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها البعض من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى، يضاف إلى ذلك أن الطائفية الإسلامية قد لعبت جانباً في هذا الصراع. وهكذا إنشغل الحكام المسلمون فيما بينهم ولم يقدرُوا خطورة المغول إلا بعد أن إتجهوا إلى الغرب حتى الدولة الخوارزمية، ثم إلى آسيا الصغرى. ثم إلى جنوب روسيا. وأوروبا الشرقية حتى هنغاريا وبولندا، وأخيراً إلى سواحل البحر الأدرياتيكي.

وما يعنيننا من العالم الإسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منها، أما الغربي منه في المغرب والأندلس فقد كان هناك أيضاً الصراعات الداخلية بالإضافة إلى مقاومة حركة الاسترداد. والجانب الشرقي من العالم الإسلامي كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيران كانت تقوم الدولة الخوارزمية التي إمتدت حدودها من جبال أورال في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقاً إلى حدود العراق غرباً .

وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين ، أو الإستنفار للجهاد .

أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي. ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطار المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد إستولت على برج مدينة دمياط عام ١٢١٨م مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوبي إلى عدة ممالك أهمها مصر وعلى رأسها الملك الكامل ٦١٥ - ٦٣٦ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م، ودمشق وعلى رأسها الملك المعظم عيسى ٦١٥ - ٦٢٤ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧ م .

وكان هناك أيضاً دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف إلى ذلك أخطار الصليبيين في بلاد الشام، ثم من الشمال الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين من قوات الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م.

أ - الخلافة العباسية :

كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف، كانت له جذوره العميقة التي بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية على الخلافة العباسية عندما إستأثرت الأسر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافاً بين العرب والفرس، وما تلى ذلك من أحداث أدت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر هي العرب والفرس والأتراك.

وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بويه - الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران في السلطة - وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في

السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان، وطمحوا نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين، وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تماماً، ولكنهم لم يقدموا على هذه الخطوة خشية العالم الإسلامي السني، لأن دولة بني بويه كانت من طائفة الشيعة.

كان لهذا كله أثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسيين، وبدأ حكام الولايات في الاستقلال بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الإسمي للخلافة العباسية. ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الانفصالية، بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الانفراد بالسلطة.

وتعرضت الخلافة العباسية أيضاً لسيطرة الأتراك السلاجقة، وهم مسلمون من طائفة السنة. وقد سيطر هؤلاء على الخلافة واتخذ حكامهم لقب السلطان، وعرف حكامهم الأوائل بإسم السلاطين العظام، وبقي الخليفة في بغداد أو بالأحرى في قصره لا حول له ولا قوة. وتصرف هؤلاء السلاطين في الأراضي والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوي الشأن. وقد حكمها هؤلاء تحت إسم الأتابكة، وعندما إنهار سلطان السلاجقة العظام كانت بلاد أعالي الفرات وشمال الشام ثم جنوبه عبارة عن دويلات لا تتعدى المدينة وما حولها، ثم كان الصراع بين الدولة الفاطمية وهؤلاء الأتابكة في بلاد الشام.

وعلى هذه الصورة انفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكرياً عن مواجهة أي غزو عسكري، ولم يكن الخطر المغولي كأبي خطر عادي، ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) آخر خلفاء بني العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يفعل شيئاً ضد هذا الخطر الجارف.

ب - الدولة الخوارزمية :

وكان من نتائج إنقسام الدولة العباسية إلى دويلات، قيام دولة خوارزم وتعرف أيضاً باسم الدولة الخوارزمية، ومؤسس هذه الدولة هو نوشتكين أحد العبيد الذي كان مملوكاً لأحد الأمراء السلاجقة، وقد شغل عدة مناصب داخل القصر منها منصب الطشتدار، ويروى أيضاً أنه شغل منصب الساقى في بلاط السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م)، وفي عام ٤٩٩ هـ / ١٠٩٦ م عين نوشتكين حاكماً على إقليم خوارزم.

وكان نوشتكين هذا يعلم تماماً بحال الدولة العباسية وضعفها، لذلك سعى منذ البداية إلى الانفصال عن الخلافة أو بالأحرى عن السلطة السلجوقية، وحانت الفرصة لخلفائه من بعده عندما بدأ ضعف السلطنة يظهر بوضوح إلى جانب ضعف الخلافة نفسها، وذلك بعد الأحداث التي إنتهت بوفاة السلطان السلجوقي سنجر عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م. وعند هذه المرحلة إنضمت ممتلكات السلاجقة في خراسان وفارس إلى الدولة الخوارزمية. وبذلك إمتدت أملاكها من جبال الأورال إلى حدود الفرات ومن حدود الخليج حتى حدود نهر السند.

ومع إتساع هذه الدولة، تطلعت إلى القيام بالعمل الذي قام به بنو بويه والسلاجقة العظام من قبل، ولكنهم إكتفوا بإزالة دولة السلاجقة العظام في العراق بعد هزيمة السلاجقة ومقتل سلطانهم طغرل بن ألب أرسلان في عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م وتقلدوا حكم هذه البلاد من الخلافة العباسية في عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م، ويروى ابن الأثير في هذا الصدد ما معناه أن الخليفة العباسي سير الخلع إلى خوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليده بما بيده من البلاد.

وعلا شأن الدولة الخوارزمية وراة نفوؤها أيام حكم علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ / ١٢٠٠ - ١٢٢٢ م) وكان علاء الدين هذا طموحاً لصب دوراً كبيراً في محاربة الحشيشية واستولى على قلعة ترشيش، ولم يتركها إلا بعد أن دفعوا له مائة ألف دينار بعد ما علم بخبر مرض أبيه، يضاف إلى ذلك أن علاقاته كانت عاصفة مع جيرانه المسلمين لمحاولته الإستيلاء على أراضيهم.

ومن ذلك أن علاء الدين إستولى على أراضي السلاطين الغوريين التي كانت تمثل جزء من أفغانستان الحالية وبعض أراضي غرب الهند. كما إستولى الخوارزمية أيضاً على الأراضي الواقعة غرب تركستان والتي تعرف بأراضي القرخطائيين والتي يرجع أصلهم إلى شمال الصين. ومع توسع الدولة الخوارزمية على هذه الصورة أصبحت تتاخم حدود الصين دون دولة حاجزة بينهم وبين المغول بعد سقوط دولة القرخطائيين، وعندما هزم المغول الدولة الخوارزمية أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم غرباً حتى بغداد.

ولم يكتف الخوارزمية بذلك بل أنهم طمعوا في الخلافة العباسية منذ البداية، لأن خوارزم شاه بن تكشن كان يهوى أن يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان، مثلما كان الحال مع بني بويه والسلاجقة العظام. وعلى الرغم أنه لم يكن بوسع الخليفة أن يعترض على هذا الطلب نظراً لقوة الخوارزمية، إلا أن هذا الطلب له مغزاه، وهو أن خوارزم شاه أصبح عدواً للخلافة العباسية. ويرجع ذلك الى أن علاء الدين إعتنق مبادئ الشيعة، وأعلن أن هدفه إعلان خلافة شيعيه ليستميل أهالي البلاد. ولكي يكتسب صفة شرعية إستصدر فتوى تفيد أن الخلفاء العباسيين قد إغتصبوا الخلافة من العلويين. وقد أدخل كل هذا الدولتين في صراع كان من نتائجه إضعاف القوتين معاً. الأمر الذي سهل على القوات المغولية هزيمة واحدة بعد الأخرى.

سلاجقة الروم :

والمقصود بسلاجقة الروم هم الفرع السلجوقي الذي أقام ملكه في آسيا الصغرى وجاور الروم أي الدولة البيزنطية ، ولذلك عرفوا باسم سلاجقة الروم تمييزاً لهم عن فروع السلاجقة الآخرين. وكان أول حكامهم سليمان بن قتلмыш في عام ١٠٧٧م وآخرهم هوقلج أرسلان الرابع ١٢٥٧م.

وتبدأ أحداث قيام هذه الدولة بمعركة منزكرت التي دارت رحاها عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م حيث لقي فيها الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة وأسر فيها الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) ، وأجبر على توقيع معاهدة مهينة . ولما عاد الإمبراطور المهزوم إلى القسطنطينية وجد أن الإمبراطور ميخائيل السابع Michael VII (١٠٧١ - ١٠٧٨م) قد إستولى على العرش ورفض الاعتراف بالمعاهدة، وهنا قرر السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) الانتقام من الامبراطورية البيزنطية، ولكنه مات بعد قليل، فخلفه ابنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٩٢م) الذي عين سليمان بن قتلмыш قائداً على القوات السلجوقية في آسيا الصغرى.

وقد نجح سليمان في توسع رقعة منطقتة في آسياب الصغرى حتى إمتدت الأراضي السلجوقية من البحر الأسود شمالاً حتى شواطئ البحر المتوسط جنوباً، وسيطر السلاجقة على مدينة نيقه التي إتخذوها عاصمة لهم. ولكن المشكلة التي واجهها سليمان عدم وجود رابطة بين سلاجقة الروم، فكانت هناك مجموعة من الإمارات المستقلة وهي إمارة قيزيقوس Cyzicus . وإمارة أزمير وإمارة سينوب، وإمارة كبادوكيا التي حكمها آل دانشمند، وبعد وفاة سليمان حدثت إنقسامات بين الممتلكات السلجوقية، وجد فيها الامبراطور

البيزنطي فرصة للتحالف مع أمير ضد آخر.

وكانت الحملة الصليبية سبباً في إتفاق السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الجديد، فقد استطاع قليج أرسلان في إستعادة عرش والده (٤٨٥ - ٥٢١هـ/١٠٩٢ - ١١٠٧م)، وفي الوقت نفسه إستغل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول Alexius I (١٠٨١ - ١١١٨م)، مرور الحملة من أراضيه واستعاد جانباً كبيراً من الأراضي التي إستولى عليها السلاجقة بعد هزيمتهم في معركة نيقية Nicaea ومعركة ضورليوم Dorylaeum مما دفع السلاجقة إلى التراجع وإتخاذ مدينة قونية Iconium عاصمة لهم.

وقد إستغل الامبراطور البيزنطي فترة الصراع الداخلي بين السلاجقة بعد موت قليج أرسلان وهي فترة حكم ابنه ملكشاه (٥٠١ - ٥١٠هـ / ١١٠٧ - ١١١٦م) وتحالف مع السلاجقة لمحاربة بوهمند الأول Bohemond I أمير أنطاكية (١٠٩٨ - ١١٠٤م/٤٩١ - ٤٩٨هـ) وكان النصر حليف الإمبراطور. ويبدو أن النصر الذي حققه الامبراطور بالإضافة إلى الصراع الداخلي في دولة السلاجقة قد دفع الإمبراطور إلى نبذ التحالف الذي عقده مع السلاجقة وشجعه على إستعادة بعض المدن من أيدي السلاجقة. وقد أجبرت إنتصارات الامبراطور على السلاجقة أن سعى السلطان السلجوقي إلى عقد الصلح مع الامبراطور كسباً للوقت. ودارت معارك بين الطرفين بعد ذلك إنتهت بالتفاوض من أجل الصلح مرة أخرى. ويتضح من النصوص التاريخية أن ملكشاه لم يتخل عن أي منطقة من المناطق الواقعة في أملاكه.

وظلت الحرب متقطعة بين السلاجقة والبيزنطيين، كان الصراع بينهما صراع وجود لا صراع حدود، بمعنى أن السلاجقة يودون الاستيلاء على كل آسيا الصغرى وتكون مياه البسفور والدردينيل هي الحد الفاصل بين الدولتين، في

الوقت الذي تسعى فيه بيزنطة إلى دفع السلاجقة إلى أقصى الشرق من آسيا الصغرى ، وطبقاً لهذه السياسة كان كل طرف يستغل المشاكل الداخلية في الدولة الأخرى ويحاول ضرب خصمه ، وفي عهد السلطان السلجوقي مسعود (١١١٦ - ١١٥٦م) نجح الامبراطور يوحنا كومنين John Comnenus (١١١٨ - ١١٤٣م) في أن يوطد سلطانه في الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى.

وتقرب السلطان قلعج أرسلان الثاني (١١٥٦ - ١١٩٢م) من الإمبراطور البيزنطي مانويل Manuel (١١٤٣ - ١١٨٠م) وزاره في القسطنطينية عام ١١٦٢م. ودام السلام بين الطرفين حتى عام ١١٧٦م، وقد استغل قلعج أرسلان هذا الهدوء وتدخل في منازعات بيت دانشمند، وإنتهى الأمر باعترافهم بسلطانه عليهم، وقد يسر له هذا السيطرة على الموقف داخل آسيا الصغرى وعلى حدود دولته من جهتي الشام والفرات.

ثم ظهرت بعض العوامل التي أدت إلى قيام الامبراطور مانويل باعداد حملة كبيرة لمهاجمة السلاجقة في عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م، وقد إغتر مانويل بما تحت يديه من قوات وتقدم في عمق آسيا الصغرى للوصول إلى مدينة قونية عاصمة السلاجقة، ولكن القوات السلجوقية تمكنت من إنزال هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطي عند قلعة ميريوكيفالون Myriocephalon. ولم تفق بيزنطة من هذه الهزيمة بعد ذلك .

وفي الوقت نفسه تعرضت دولة السلاجقة إلى بعض الاحداث الداخلية التي أدت إلى إضعاف أحوالها، يضاف إلى ذلك ما كان هناك من متاعب أثناء مرور بعض قوات الحملة الصليبية الثالثة وهي قوات الامبراطور فريدريك بارباروسا Frederick Barbarossa ، وما تلى ذلك من صراع على السلطة بعد

وفاة السلطان قلعج أرسلان في عام ١١٩٢م، إلى أن إستقر السلطان كيخسرو الأول (١١٩٢ - ١١٩٦م) بفضل مساعدة آل دانشمند والتركمان. وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ضعف النظام داخل السلطنة السلجوقية. ويتضح ذلك إن من نتائج هذا الصراع وسوء النظام أن تولى السلطان سليمان الثاني عرش السلطنة السلجوقية (١١٩٦ - ١٢٠٤م) ثم تولى قلعج أرسلان الثالث العرش بقية عام ١٢٠٤م، ثم عاد الى كيخسرو الأول مرة أخرى (١٢٠٤ - ١٢١٠م).

ومع بداية حكمه سقطت الامبراطورية البيزنطية في أيدي الصليبيين ١٢٠٤ - ١٢٦١م، وخلال هذه المرحلة قامت حكومة الإمبراطورية البيزنطية في المنفى في مدينة نيقية. وقد نجح كيخسرو أن يضم إلى بلاده مدينة أضاليه البيزنطية التي تقع إلى الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى على ساحل البحر المتوسط، كما نجح ابنه عز الدين نيكائوس الأول (١٢١٠ - ١٢٢٠م) في ضم مدينة سينوب الواقعة في جنوب البحر الاسود، وقد إستفاد السلاجقة من هذه المدينة عسكرياً وتجارياً.

ويعتبر عهد كيقباز الأول (١٢٢٠ - ١٢٣٧م) من أفضل العصور في عهد الدولة السلجوقية، فقد تمكنت الدولة في عهده من السيطرة على كل ساحل آسيا الصغرى الجنوبي حتى مداخل بلاد الشام، كما ضمت شبه جزيرة القرم، وبذلك تدفقت التجارة إلى آسيا الصغرى. كما إتخذ كيقباز من مدينة العلايا مقراً له. ورغم أن الحياة الاقتصادية والحضارية إزدهرت في عهد كيقباز الأول، إلا أن هذه المظاهر كانت تخفى وراءها عوامل الضعف والإنهيار، فقد بدأت المشاكل تظهر داخل الدولة عندما بدأ الخطر المغولي يدهم منطقة الشرق الأدنى الاسلامي، وقد نجح المغول في دخول مدينة أرزن

الروم عام ١٢٤٢م ثم هزموا السلاجقة هزيمة ساحقة في معركة كوس داغ في العام التالي وتحطم الجيش السلجوقي ولاذ السلطان كيخسرو الثاني (١٢٣٧ - ١٢٤٥م) من أرض المعركة. أما وزيره مهذب الدين فقد تقرب إلى المغول ، فعقدوا معه إتفاقاً يقضى ببقاء الدولة السلجوقية على شرط تأدية الجزية كل عام، وأن ترسل الدولة للمغول الامدادات عند الحاجة. ثم زادت سيطرة المغول الإدارية بالتدريج على السلاجقة الأمر الذي عجل بزوال دولتهم في عهد آخر حكامهم مسعود الثالث (١٣٠٧ - ١٣٠٨م).

الأيوبيون:

أسس الدولة الايوبية صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي ولد في تكريت عام ١١٣٨م من أبوين كرديين، وقد إنتقل صلاح الدين مع أسرته إلى بعلبك في العام التالي. وقد عين عماد الدين زنكي أتابك الموصل (١١٢٧ - ١١٤٦م) والده أيوب قائداً لحامية المدينة.

وقد رافق صلاح الدين عمه شيركوه في حملاته على مصر خلال الصراع النورى الصليبي على مصر في عهد نور الدين زنكي أتابك حلب (١١٤٦ - ١١٧٤م) وأتابك حلب ودمشق (١١٥٤ - ١١٧٤م)، حتى انتهى الأمر بأن أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦١ - ١١٧١م)، ثم ما لبث الخليفة أن توفي بعد فترة قصيرة وإنتهت الدولة الفاطمية وبدأ التمهيد لقيام الدولة الأيوبية في مصر والشام والحجاز واليمن. ووقع على كاهل صلاح الدين مقاومة الصليبيين في بلاد الشام، فكانت معركة حطين ١١٨٧/٥٨٣م وما تلى ذلك من سقوط القدس وبعض مدن الساحل الشامي في أيدي صلاح الدين.

وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية الثالثة من أجل استعادة القدس وغيرها، ولكن هذه الحملة لم توفق في تحقيق أهدافها، وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة الذي عقد في عام ١١٩٢م، وما لبث صلاح الدين أن توفي في العام التالي ١١٩٣م، وتم تقسيم الدولة بين أمراء البيت الأيوبي، فضاعت وحدة الدولة وتماسكها، وظل الصراع مستمراً لعدة سنوات حتى تمكن العادل أخ صلاح الدين من السيطرة على الموقف في عام ٥٩٨هـ (١٢٠١ - ١٢٠٢م) وبدأ في إعادة تنظيم الدولة بعد التفكك الذي إنتابها.

وبصرف النظر عن كل هذه الصراعات قد تميز حكم العادل بسياسة الدفاع عن مملكته ضد الصليبيين ولم يأخذ بسياسة الهجوم، لأنه كان يرى أن الهجوم على ممتلكات الصليبيين ربما يؤدي إلى قدوم حملة صليبية جديدة. ولذلك عقدت هدنة في ١١٩٨م، ورغم ذلك وقعت بعض الاشتباكات بين الطرفين، ومن هذه الاشتباكات ما وقع في عام ١٢٠٤م عندما أتى إلى الشام كثير من الصليبيين متشجعين بامتلاك قوات الحملة الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية، وهي الحملة التي كانت وجهتها مصر ثم انحرفت لمهاجمة الدولة البيزنطية، وعلى أية حال لقد انتهت هذه الأحداث بهدنة مدتها ست سنوات، من عام ١٢٠٤م حتى ١٢١٠م ثم عقدت معاهدة أخرى من عام ١٢١٢م إلى ١٢١٧م.

ومع نهاية هذه الهدنة قدمت الحملة الصليبية الخامسة التي هاجمت مصر من عام ١٢١٨ حتى ١٢٢١م، تم خلالها الاستيلاء على مدينة دمياط. وفي هذه المرحلة بدأ الخطر المغولي في الأفق، الأمر الذي دفع الملك الكامل حاكم مصر إلى عرض الصلح على الصليبيين عدة مرات للجلاء عن دمياط مقابل التنازل عن كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا قلعتي الكرك

والشويك ،ولكن الصليبيين رفضوا هذا العرض المجزي حتى إنتهت إحدات الحملة وهزمت هزيمة نكراء واضطرت للجلاء دون قيدٍ أو شرط، ثم عقدت هدنة لمدة ثمان سنوات.

زال الخطر الصليبي مؤقتا وظهر خطر آخر وهو تجدد الصراع بين أفراد البيت الأيوبي خاصة بين الكامل حاكم مصر وأخيه المعظم حاكم دمشق ، فقد خرج المعظم على طاعة أخيه ودعا جلال الدين خوارزم شاه للاستيلاء على ديار بكر وحرص البعض على مهاجمة الموصل وحمص لانتزاعها من أيدي أخيه الاشرف، ولم يكن أمام الاخير سوى الخضوع لآخيه المعظم خاصة بعد ما تعرضت مدينة خلاط لهجمات الخوارزمية.

وأمام ما فعله المعظم عيسى، قام الملك الكامل بدعوة الامبراطور الالماني فريدريك الثاني للقدوم الى الشرق لتسليمه مدينة القدس نكاية في أخيه المعظم. وقبل ان يصل الامبراطور مات المعظم في عام ١٢٢٧م، وعندما وصل الامبراطور كان على الملك الكامل أن يحل المشكلة بشكل أو بآخر، وإنتهى الأمر بان سلم الكامل مدينة القدس للامبراطور فسخط عليه كافة المسلمين.

ومهما كان الأمر فقد إستمرت الهدنة حتى عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م حين قدمت إلى الشام حملة صليبية أخرى على رأسها تيوبوت الرابع Thibaut IV أمير شامباني وملك نافارو، وبعض الأمراء الآخرين، وتذرع الملك الناصر داود صاحب الأردن بوصول هؤلاء الصليبيين وطرد الصليبيين المحليين من القدس، ورغم هذا كله فقد إنتهى الأمر باستلام الصليبيين للقدس مرة أخرى ومعها طبرية وعسقلان وبعض القلاع والمدن الأخرى.

ولم تكد هذه الحملة تغادر بلاد الشام حتى وصلت حملة أخرى تعرف باسم الحملة الانجليزية في عام ١٢٤٠م وعلى رأسها ريتشارد أف كورنول

Richard of Cornwall أخ هنرى الثالث ملك إنجلترا. وقد نجحت هذه الحملة بدورها في تأكيد حق الصليبيين في ملكية بيت القدس، وبعد قليل من رحيل هذه الحملة، تمكن الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية من استعادة القدس في عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، وبذلك فقد الصليبيون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة، كما استعان الصالح أيوب بالخوارزمية واستولى على مدينة دمشق ولكن هؤلاء الخوارزمية عاثوا في بلاد الشام فساداً حتى إنتهى الأمر بهزيمتهم عند حمص عام ١٢٤٦م، فتبدد شملهم وزالت أهميتهم كقوات مقاتلة.

وكان ضياع القدس من أيدي الصليبيين سبباً في قدوم الحملة الصليبية السابعة وعلى رأسها لويس التاسع ملك فرنسا وما حدث من نجاح رسو القوات الصليبية في دمياط وتراجع القوات الاسلامية إلى المنصورة، ثم وفاة الصالح أيوب في نهاية ١٢٤٩م. وقد أريك هذا كله القيادة الأيوبية، ولكن شجر الدر نجحت في السيطرة على الموقف واستدعت توران شاه بن الصالح أيوب من حصن كيفا في أعالي العراق لتولي حكم مصر، وانتهت الاحداث بهزيمة لويس وأسرته ثم إطلاق سراحه ورحيله من مصر، ومقتل توران شاه على أيدي المماليك.

هب الأيوبيون في الشام مطالبين بالثأر لما حدث في مصر، وتقرر تعيين المغيث عمر سلطاناً على شرق الاردن بينما تولى الناصر يوسف أمير حلب حكم دمشق ١٢٥٠ - ١٢٦م، وخلال هذه الاحداث تزوجت شجر الدر من عزالدين أيبك وأصبح أول سلطان للمماليك في مصر، وهنا كون الايوبيون بالشام حلفاء لاستعادة مصر، ولكن هذا الحلف هزم في عام ١٢٥٠م. وتمت محاولة أخرى في العام التالي إنتهت بالمفاوضات بين الطرفين تنازل فيها الناصر يوسف عن مدينة القدس للسلطان عزالدين أيبك.

ولكن العداء بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ما لبث أن تجدد بعد ما قتل أيبك منافسه في الحكم وهو الأمير أقطاي، وهروب مماليكه إلى دمشق حيث رحب بهم الناصر يوسف . ولكن السلام ما لبث أن عاد بين أيبك والايوبيين بإتفاق في عام ١٢٥٦م تنازل بموجبه الناصر يوسف عن جانب من بلاد الشام. وظل الناصر يوسف لمدة أربع سنوات زعيماً للبيت الأيوبي في بلاد الشام . ولما إستولى هولاءكو على بغداد عام ١٢٥٩م ارسل الى الناصر يطالبه بالحضور، ولكنه لم يذهب وأرسل بدلاً منه ابنه العزيز محمد، وعندما توجه هولاءكو صوب بلاد الشام غادر الناصر حلب وأقام خارج دمشق، وهنا أحس الناصر بضعفه أمام القوات المغولية فأرسل إلى القاهرة ليستنجد بالسلطان المملوكي سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م) .

وفي يناير عام ١٢٦٠م تقدم المغول الى حلب واستولوا عليها ونهبوها فهرب حاكمها المنصور الثاني الأيوبي وانضم إلى جيش المماليك تحت قيادة قطز، وبعد حلب إستولى المغول على دمشق في العام نفسه، وسقوط بغداد وحلب ودمشق وهي المدن الكبيرة بدا للجميع أن المسلمين قد حان أجلهم، ولكن المغول ما لبثوا أن هزموا في معركة عين جالوت ١٢٦٠م على يد القوات المملوكية بقيادة قطز فتغيرت الأوضاع تماماً في منطقة الشرق الأدنى الاسلامي. وحاول المغول مرة أخرى الهجوم على بلاد الشام فاستولوا على حلب في عام ١٢٦١م، ولكن المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص تصدا للقوات المغولية وأنزلا بها هزيمة كبيرة ولم يكتفيا بذلك بل ظلا يطاردان القوات المغولية حتى عبرت نهر الفرات .

وبعد هذه الأحداث بقى من البيت الأيوبي المغيث صاحب الكرك، والأشرف

موسى صاحب حمص، والمنصور صاحب حماه، وفيما يتعلق بالمغيث فقد قتله السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) في عام ١٢٦٣م واستولى على الكرك - وعن المنصور صاحب حماة، فقد احتفظ بحكم المدينة ولأسرته من بعده، من سلالة المظفر الأول تقى الدين عمر (١١٧٨ - ١١٩١م) حتى تولى أمرها الأفضل محمد بن إسماعيل (١٣٣٢ - ١٢٤١م) - ومن سلالة هذا الفرع المؤرخ أبو الفدا (١٣١٠ - ١١٣٢م) .

الفصل الاول قيام دولة المغول

- جنكيز خان
- تنظيم الامبراطورية
- فتوحات جنكيز خان
- أوكيتاي ١٢٢٧ - ١٢٤١م
- باطو وغزو روسيا
- باطو وشرق أوروبا
- كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨م
- مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠م
- هولاكو وسقوط بغداد ودمشق
- قوبلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤
- معركة عين جالوت ١٢٦٠م
- أباقا (خان فارس) ١٢٦٥ - ١٢٨٢م
- مغول القفجاق
- تيمورلنك ١٣٦٩ - ١٤٠٢م
- الطرق التجارية زمن المغول

الفصل الأول

قيام دولة المغول

جنكيز خان :

عاش في الأراضي الشاسعة التي تقع إلى شمال وغرب الصين مجموعة من القبائل. وكانت هذه الأراضي في مجموعها صحارى وسهوب تتصف بالمناخ القاري. وقد عاشت هذه القبائل منذ حوالي سنة ٢٠٠ ق.م ومن هذه القبائل المغول والتتار وبعض العناصر التركية مثل الكرايث keraits والأويغور Uigurs والنایمان Naimans والتايجوت Tayichut وبعض القبائل الأخرى .

وقد ولد تيموجين Temujin في عام ١١٦٧م لزعيم مغولي يدعى يسوكاي Yesugai وأم تدعى هويلون Hoelun. وقد عرف هذا الطفل في التاريخ باسم جنكيزخان Jenghiz Khan ، وفي تلك المرحلة كان المغول عبارة عن قبائل تعيش في أعالي نهر أمور Amur ، وكانت في حرب شبه دائمة مع قبائل التتار المقيمة إلى الشرق منهم. وقد نجح يسوكاي في إنزال الهزيمة ببعض قبائل التتار، الأمر الذي زاد من سلطانه وعلو مكانته .

أما علاقة يسوكاي بالكرايث كانت ودية تعاهدية وليست عسكرية. ويرجع ذلك إلى أن الكرايث شعب بدوي تركي عاشوا حول نهر أورخون Orkhon ، وقد إعتنقوا المسيحية على المذهب النسطوري مع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي وترتب على ذلك إتصالهم بقبائل الأويغور النساطرة أيضاً. وقد مات خان الكرايث كورياكوس Qurjakuz حوالي عام

١١٧٠م فبدأ الصراع على العرش بين ابنه طغرل والأخوات والأهـمام. وعند هذه المرحلة طلب طغرل من يسوكاي مساعده. تـد الأـخوات رفضن والده، وقد تعاهدا على ذلك، ويعد ما نتج من ذلك في إسقاط العرش الكرايث أصبح يسوكاي في منزله رفيعه بين زعماء المنطقة، ولأنه مات بعد قليل، ويقال أنه مات مسموماً، ولم يكن تيموجين قد بلغ التاسعة من عمره، ولكن والدته تمكنت من الاحتفاظ بالعرش له.

وكان تيموجين على حد قول أحد المؤرخين طويل القامة، شديد النشاط والاحتمال والصبر، وله شخصية أثرت في كل من صادفهم، يضاف إلى ذلك مـعبته الفائقة على التنظيم وكيفية إختيار مساعديه . كما أنه كان معروفا بحبه للعلم وإحترامه للعلماء، لذلك أبقى على حياة كل عالم وقع في أسره. وفي عام ١١٩٤م تم إختيار تيموجين زعيماً للقبائل المغولية وأصبح يعرف باسم جنكيزخان (أي القوي)، واعترف به امبراطور الصين لـتتحالف معه ضد التتار الذين هددوا أراضيه. وفي حروب سريعة وقصيرة خضع التتار لحكم جنكيزخان.

أما خضوع الكرايث لحكم جنكيزخان، فيرجع ذلك إلى أن الصراع على العرش في دولة الكرايث إنتهى بطرد الخان طغرل عام ١١٩٧م، ولكن جنكيزخان ساعده على العودة إلى عرشه ثم ما لبث أن أصبح طغرل من أعظم الأمراء وعرف باسم وانك خان Wang-Khan أو أونك خان Ong-Khn وهو إسم وصل الى هذه المناطق في صيغة يوحنا، ولذلك رشح طغرل للدور الذي كان على الكاهن يوحنا أن يقوم به وهو التحالف مع الغرب الأوروبي ضد المسلمين في حوض البحر المتوسط.

ويبدو أن شهرة طغرل قد أثارت جنكيزخان فدب الخلاف بينهما عام ١٢٠٣م، حيث قامت المعركة الأولى بين الطرفين ولكنها لم تحسم لصالح

أي طرف منهما، وفي المعركة الثانية التي وقعت بعد قليل هزم جنكيزخان طغرل هزيمة نكراء وأبىد الجيش في معركة جيجر أوندور Jejer Undur في قلب بلاد الكرايث، وقد لقي طغرل مصرعه أثناء فراره من أرض المعركة فخضعت دولة الكرايث لدولة جنكيزخان وضمها إلى دولته، وبذلك أضاف جنكيزخان أراضي التتار ثم أراضي الكرايث.

وقد نجح جنكيزخان في العام التالي ١٢٠٤م في إخضاع قبائل النايان بعد هزيمتهم في معركة شقيرميوت Chakirmaut، وحتى عام ١٢٠٥م كان جنكيزخان قد نجح في فرض سيادته على كل القبائل القاطنة بين حوضي نهر التاريم Tarim الواقع إلى الغرب من مدينة سمرقند ونهر أمور، الذي يصب في بحر اليابان حالياً، وسور الصين العظيم. وفي العام التالي ١٢٠٦م عقدت جميع القبائل مجلساً (قوريلتاي)، وأعلنت سيادة جنكيز خان على هذه القبائل التي ينبغي أن يطلق عليها إسم المغول. ولعل الأمر أصبح واضحاً في الفرق بين كلمة المغول والتتار، وإن كان البعض ومنهم المؤرخون المعاصرون للأحداث يطلقون إسم التتار على المغول وبالعكس أيضاً.

وبلاحظ أن جميع هذه القبائل كانت تنقسم إلى فرعين كبيرين، وهما الأتراك والمغول ويختلفان في اللغة، فقد استخدم الأتراك اللغة التركية، أما المغول فقد إستخدموا أبجدية الأويغور، وكان الفرع التركي قد بدأ بالرحيل إلى المناطق التي سميت بإسم (تركستان). أما المغول فهو إسم أطلق على إحدى قبائلهم. وقد صنف الصينيون القبائل المغولية إلى ثلاثة أنواع هم المغول البيض الذين عاشوا شمال الصين، والمغول السود وهم الذين عاشوا شمال المغول البيض، والمغول المتوحشون وهم سكان الغابات وقامت حياتهم على الصيد

تنظيم الامبراطورية:

بعد أن نجح جنكيزخان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت إحدى هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة تولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم وكانت هذه الوظائف كما يلي :

- ١ - أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس .
- ٢ - ثلاثة أفراد يتولون الاشراف على الطعام والشراب .
- ٣ - فرد واحد يتولى إعداد المراعى للاغنام والماشية، وثلاثة للمحافظة على هذه المراعى.
- ٤ - شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل.
- ٥ - فرد واحد للاشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.
- ٦ - أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيوف.
- ٧ - إثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.
- ٨ - أربعة اشخاص لتبليغ رسائل الخان.
- ٩ - إثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في إجتماعات المغول.

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، ويتم إختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهما للنهار وأخرى لليل، وقد بلغ عدد هؤلاء حوالي عشر آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس. ومن هؤلاء يتم إختيار ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) أي الشجاع المبارز.

وهؤلاء الألف يقومون بخدمة الخان ويلازمونه ولا يخرجون للقتال إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه. وبالإضافة إلى الخان الأعظم وحراسه، كانت طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان. وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يقدم لهم الشراب بنفسه.

واعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذا ما دعت الحاجة، ولذلك اعتبر المغول راعياً للاغنام والماشية في السلم جندياً في أوقات الحرب. وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال. وقد عرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوادهم، كما عرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود، وكانوا يحاربون دون رحمة لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ أو الشباب أو المريض، ولذلك اتسمت حروبهم بالقسوة والتدمير والتخريب.

وعندما تدق طبول الحرب ويجتمع المغول تبدأ عملية تنظيمية دقيقة، ينقسم المغول بعدها إلى فرق كل منها عشرة آلاف وعليهم أمير، ثم ينقسم هؤلاء إلى عشرة أقسام على كل منها أمير ألف، ثم إلى عشرة أقسام أخرى على كل منها أمير مائه ثم إلى عشرة أقسام أخرى على رأس كل منها أمير عشرة، وبذلك أصبح هناك أربعة قواد، وعلى رأس هؤلاء القادة قائد الجيش الذي يجمع هؤلاء لتدارس المواقع وإعطاء الأوامر بعد إستشارتهم، ومن نظم الجيش المغولي وضع الخطط العسكرية قبل بداية العمليات العسكرية، ثم تبدأ عملية جمع المعلومات عن العدو بمعرفة الجواسيس لإعداد المعدات الكافية لمهاجمة المدن أو الحصون. وقد إستخدم المغول طريقة الكر والفر والالتفاف حول العدو والصياح أثناء المعركة لإرهاب الأعداء.

وفي المعارك يقسم المغول قواتهم إلى القلب والمقدمة والمؤخرة والميمنه والميسرة، وتتسلح كل واحدة من هؤلاء بالسلح المناسب، ومن ذلك أن قوات القلب كانت تتكون من فرقة أمامية وأخرى خلفية. وتتسلح الأمامية بالدروع الكاملة ويحمل أفرادها السيوف والحراب ويغطون خيولهم بالدروع المناسبة، أما الخلفية فكانت أسلحتها خفيفة مثل القوس والنشاب، وتكون سريعة الحركة حتى يمكنها تقديم المساعدة للقوات الأمامية.

وعامل المغول أعداءهم معاملة قاسية، فإذا إجتاحوا مدينة قتلوا أهلها دون رحمة، مع الإبقاء على أصحاب الحرف والصناعات، وبعض من الأهالي بالمدينة لاستخدامهم كدروع بشرية في حرب أخرى، ويرجع ذلك إلى أن الاسرى هم الذين يتعرضون للقتل والمغول خلفهم، وبذلك يستهلكون قوة أعدائهم في قتل الاسرى، وفي الوقت المناسب يتقدم المغول للقضاء على خصومهم.

أما عن دستور إمبراطورية المغول فقد كان هناك مجموعة من التقاليد والأعراف تحكم حياة المغول، ولكنها لم تكن مكتوبة لعدم معرفة المغول الكتابة، ولما أصبح جنكيزخان خاناً أعظم لهم، قام بمراجعة هذه الأعراف، فألغى منها ما لم يعد مناسباً وأبقى ما وجده صالحاً، وأضاف إليها ما رآه ضرورياً. وأمر بتدوين ذلك بالخط الأويغوري حتى يتعلمه الصغار والكبار، وقد احتفظ كل أمير مغولي بنسخة من هذه القواعد في خزانته الخاصة. وقد عرفت هذه القواعد باسم Yass، وقد عربت هذه الكلمة إلى ياسا أو الياسا أو الياسة، أو اليسق أو اليساق، ومعنى هذه الكلمة حكم أو قاعدة أو قانون.

ومما لا شك فيه أن التجارب والشدائد التي عاشها جنكيزخان وما تعرض له من محن ومؤامرات، وما قام به من حروب، كان له أهمية كبرى

عند وضع بنود الياسا، لأنه كان حريصاً على جمع كلمة القبائل والسيطرة عليها، لذلك تضمنت الياسا نصوصاً بالغة الصرامة لضبط القبائل ونشر الأمن والاستقرار داخل القبائل المغولية، ويتطلب الأمر في هذا المجال أن نعرض بعض بنود الياسا للتعرف عليها، ومن ذلك :

أن من وجد عبداً أو أسيراً أبقاً عليه أن يرده لصاحبه، وإلا تعرض للقتل. ومن أطعم أسير قوم أو كساه دون إذن أسياده قتل - ومن وقع منه متاعه أو سلاحه اثناء القتال، فعلى الشخص الذي وراءه أن ينزل عن فرسه ويناول زميله ما سقط منه، فإن لم ينزل ويناوله قتل، ولا يختص فرد بأكل شيء وغيره يراه، بل عليه أن يشرك من يراه في أكله، ولا يتميز مغولي بالأكل دون سواه، فإن مر مغولي بفرد أو جماعة وهم يأكلون، له ان يأكل معه أو معهم، وليس لأحد أن يمنعه.

وقد حذرت الياسا بعض الاعمال على المغول، ومن ذلك يمنع المغولي من غسل ثيابه حتى تبلى، يمنع المغولي من أن يخص شيئاً بالنجاسة فجميع الأشياء طاهرة، ويمنع المغولي من التعصب لمذهب ديني، كما يمنع المغولي من إستخدام الألقاب قبل الأسماء، فيخاطب الفرد مهما كانت منزلته باسمه.

وهناك أيضاً بعض الإلتزامات يجب القيام بها، ومن ذلك إلتزام القادة العسكريين بالتفتيش على أسلحة الجنود قبل الخروج للقتال، وكافة ما يلزم الجنود وإذا قصرُوا عوقبوا. وإلتزام النساء بالقيام بأعمال الرجال طوال وجود العساكر في القتال، يضاف إلى ذلك إلتزام المغولي بإقامة حلقات الصيد باعتبارها تدريباً على أساليب القتال. وفوق هذه كله وغيره أقام الخان نظام البريد للاتصال بأنحاء الامبراطورية، وإصدار الأوامر في الوقت المناسب، والتعرف أيضاً على أحوال بلاده.

وقد ورد في اليباسا أيضاً تجريم أعمال السرقة والفحشاء، وإنكار حقوق الوالدين، ووجوب إتباع الصغير لتعاليم الكبير، ومساعدة الغني للفقير، وإحترام صغار الموظفين لرؤسائهم. وقد بقيت اليباسا موضع إحترام المغول طالما بقيت العناصر المغولية، وقد أخذت بعض العناصر الأخرى بعض بنودها مثل الممالك.

فتوحات جنكيزخان:

قبل أن تبدأ سنة ١٢٢٥م كان جنكيزخان قد فرض نفوذه على إمبراطورية كين الصينية، ومملكة هسيا هسى Hsia Hsi ومملكة قرة خيتاي Kata Khitai ، وقد ترتب على هذا التوسع أن أصبح المغول متاخمين للدولة الخوارزمية، وبات الوضع يهدد بالانفجار، خاصة أن محمد خوارزم شاه لم يكن بالحاكم الذي يتهاون في التعامل مع جيرانه. وفي بداية الأمر ساد السلم بين الدولتين وتبودلت الرسائل والسفارات، ولما كان المغول يعتبرون أنفسهم أسياداً وبقيّة الأمم تابع لهم، فقد كتب جنكيزخان إلى الملك الخوارزمي يطالبه بالخضوع للمغول وأن يعتبره سيده، وكانت شرارة الحرب عندما ذهبت سفارة من المغول مع قافلة تجارية في طريقها إلى الملك الخوارزمي. ولما وصلت القافلة والسفراء إلى مدينة أوترور Utrur - الواقعة إلى الداخل على نهر سيحون، وشمال سمرقند - صادر حاكم المدينة بضائع القافلة. وكان في ذلك إهانة للخان الأعظم جنكيزخان.

إستعد المغول للقتال وحشدوا جيشاً بلغ قوامه مائتي ألف مقاتل في نهاية صيف عام ١٢١٩م. وتقدم إلى الشرق إلى مسافة حوالي ألف ميل لمهاجمة الأراضي الخوارزمية، ويادر خوارزم شاه بالاستعداد للقتال، ودفع بعض قواته إلى الأمام بينما عسكر هو بالقوات الرئيسية في إقليم ما

وراء النهر عند مدينتي بخارى وسمرقند. وكانت المدينة الأولى التي واجهت الغزو المغولي هي مدينة أوترور، وهي المدينة التي صادر حاكمها تجارة القافلة المغولية، ويبدو أن هذا التصرف كان مقصوداً لتأديب المدينة وحاكمها.

وبعد سقوط أوترور تقدم الجيش المغولي إلى مدينة بخاري فوصلها في فبراير عام ١٢٢٠م، فبادر السكان بفتح أبواب المدينة، عدا قلة تحصنوا بالقلعة، ثم ما لبث أن قتلهم المغول عن آخرهم . ويبدو أن ما حدث في بخارى دفع خوارزم شاه إلى التراجع مما جعل مدينة سمرقند هدفاً سهلاً للمغول. وقد إستسلمت بدورها للمغول فقتل جنكيزخان جميع ما صادفه من الجنود فتراجع الخوارزمية حتى عاصمتهم أورجنده - الواقعة عند نهر جيحون - وتقع إلى الشمال الغربي من بخارى، وقد دافعت القوات الخوارزمية عن العاصمة دفاعاً مجيداً، الأمر الذي أجل سقوط المدينة عدة أشهر هرب خلالها خوارزم شاه. فطارده بعض القوات المغولية، ولكنها لم تلحق به فوصل إلى جزيرة داخل بحر قزوين حيث مات في نهاية عام ١٢٢٠م.

بعد هذه الأحداث تولى جلال الدين حكم الدولة الخوارزمية بعد والده، واتجه إلى فرغانه فجمع القوات وتراجع إلى أفغانستان وتمكن من هزيمة بعض القوات المغولية، أما جنكيزخان فقد إتجه إلى بلخ فإستسلمت له، ومنها إتجه إلى مدينة باميان فقاومته لبعض الوقت، ولقى حفيده في حصارها مصرعه، فلم يبق على أحد من سكانها بعد سقوطها. كما نجحت قوة مغولية بقيادة طولوى بن جنكيزخان في الاستيلاء على مدينة مرو وتم قتل جميع سكانها عدا المهرة من الصناع، ثم سقطت مدينة نيسابور ولقيت نفس المصير الذي لقيته مدينة مرو.

وفي خريف عام ١٢٢١م تقدم جنكيزخان بقواته لمقاتله جلال الدين عند نهر السند حيث وقعت معركة في نوفمبر من العام نفسه فر بعدها جلال الدين إلى مدينة دهلي، وفي أفغانستان قضى جنكيزخان حوالي العام تمكن خلاله من إسقاط مدينة هراه وقتل من سكانها الآلاف بعدما خربت المدينة،

وعاد جنكيزخان بعد ذلك إلى منطقة نهر سيحون الذي أصبح خراباً، وقد عبره عائداً إلى بلاده في ربيع عام ١٢٢٣م، فوصلها في صيف العام التالي. وقد راقب النساطرة في آسيا حروب جنكيزخان واستبشروا خيراً خاصة أن بعض أبناء جنكيزخان قد تزوجوا من أميرات مسيحيات من قبائل الكرايث، واعتقد الصليبيون في بلاد الشام وحكام الغرب الأوروبي أن بالامكان إتخاذ جنكيزخان حليفاً لهم.

وكان جنكيزخان قد أرسل جيشاً تحت قيادة سوبوتاي Sobotai وجيب Jehe للحاق بخوارزم شاه بعد فراره من عاصمته أورجنده، وبعد أن أفلت منهما واصلا سيرهما نحو الغرب، وقد استطاعت القوات المغولية الاستيلاء على مدينة الري في صيف عام ١٢٢٠م، ثم تلاها مدن قم وقزوين وزنجان. أما مدينة همذان فقد قدمت الفدية المناسبة فنجأ أهلها من القتل.

بعد هذه المرحلة تقدم الجيش المغولي لقتال بلاد الكرج (جورجيا)، وقاد الملك جورج الرابع قواته لمواجهة المغول، ولكنه منى بهزيمة ساحقة بالقرب من مدينة تفليس Tiflis حطم فيها جيش الكرج تماماً. وتوقف زحف المغول لبعض الوقت إلى الشمال لأنهم اضطروا للعودة إلى همذان لخروجها على طاعتهم، وفي طريقهم نهبوا مدينة مراغة وبقوا لبعض الوقت حتى نهاية عام ١٢٢١م.

وفي بداية العام التالي تقدمت القوات المغولية إلى الشمال مرة أخرى بقيادة سبوتاي وجيب واتجهوا إلى بلاد القفجاق عند نهري الفولجا والدون . وقد استطاع المغول هزيمة القفجاق بعد أن حيدوا قبائل الآلان Alans واللكز Lesghians ، ثم استدار المغول لهما بعد هزيمة القفجاق. وعند هذه المرحلة قام الآلان واللكز بالاستنجاد بأمير مدينة كييف الروسي، وكان مصير هذا التحالف الهزيمة عند نهر كلكا Kalkha بالقرب من بحر آزرف.

وكانت المحطة التالية للقوات المغولية في هذا الجانب شبه جزيرة القرم، وقد تم نهب المركز التجاري الجنوبي في مدينة صولدايا Soldaia المقام في تلك الأنحاء ، ثم إتجهت إلى الشرق حيث هزمت جيش بلغاريا. وبعد كل هذه العمليات العسكرية عادت إلى منطقة نهر سيحون لتنضم إلى الجيش الرئيسي بقيادة جنكيزخان في مطلع عام ١٢٢٣م. وهكذا إمتدت إملاك المغول من كوريا حتي غرب فارس، ومن المحيط الهندي حتى الشمال في روسيا. وكان فيما أنزله المغول من تخريب وتدمير وقتل وسلب ونهب دون رحمة ما منع أية دولة من المخاطرة بمقاومة القوات المغولية الا فيما ندر. كما أن مدهامة المغول لبعض الدول المسيحية قد خيب آمال من إعتقدوا في إمكانية التحالف مع الغرب الأوروبي والصليبيين لمهاجمة أملاك المسلمين في الشرق الأدنى الاسلامي. ومات جنكيزخان في عام ١٢٢٧م، بعد ما خلف بعده إمبراطورية شاسعة، وأقام حكومة عادلة ترعى الأمن والنظام، فإنتعشت التجارة وأصبح بوسع القوافل أن تسير عبر آسيا آمنة، بعدما أهلك الملايين من السكان وخرّب ودمر المساحات الشاسعة من الحقول والبساتين.

أوكيتاي (١٢٢٧ - ١٢٤١)

عندما توفي جنكيزخان كان له أربعة أولاد هم، جورجي، جغتاي،

وأكيتاي، وأصغرهم طولوى، وطبقاً للأعراف المغولية كان الابن الأكبر ولسلالته من بعده الحق في حكم الإمبراطورية، وأن يحتفظ إلابن الاصغر بالاقليم الأصلي للمغول، ولكن جنكيزخان خرج على هذه القاعدة التي كان يجب أن تنفذ لأول مرة، ورشح ابنه الثالث أوكيتاي لتكون له السلطة العليا على الامبراطورية المغولية. ولعل ما دفع جنكيزخان إلى ذلك بعض الاسباب التي لها وجاقتها، فكان يرى في جورجى أنه ليس بالقائد العسكري الناجح، وأن جفتاي حاد المزاج، أما أوكيتاي فقد وصف بالصبر والقدرة على معالجة الأمور، في الوقت الذي كان فيه طولوى محبباً للهو. ويقول رشيد الدين الهمذاني، إن عرش الامبراطورية ظل خالياً من ملك قرابة سنتين، وأخيراً فكر الأمراء أنه قد يحدث أمراً ما، وليس هناك من رئيس أو ملك، فيتطرق الفساد أو الخلل إلى أساس الملك، فمن المصلحة التعجيل بتنصيب خان للخانية، وبهذا الفهم الدقيق تبادل الأمراء الرسل فيما بينهم من الجهات المختلفة، وبدأ الإستعداد لعقد القوريلتاي، وقد ظل المجلس منعقداً حوالي ثلاثة أيام، وبعد تبادل الرأي إستقر الرأي على تعيين أوكيتاي في منصب الخانية تنفيذاً لوصية جنكيزخان.

وبعد إنهاء مراسم تعيين الخان قام أوكيتاي بتوزيع أراضي الأمبراطورية على الأمراء الكبار، فاحتفظ أخوة جنكيزخان بالاقاليم الشرقية حول نهر أمور وإقليم منشوريا، وحاز أولاد جورجى - لأنه كان قد مات - وهم باطو، وأوردا، وبركة، وشيبان الأقاليم الغربية من الإمبراطورية حتى نهر الفولجا، أما أملاك أوكيتاي الشخصية فكانت أراضي الكرايث والنايمان، واحتفظ طولوى بالأراضي الواقعة على نهر أونون. ويعتبر ذلك أول تقسيم إدارى لإمبراطورية المغول، وليس تقسيماً سياسياً، وعلى ذلك فعلى جميع الأمراء تنفيذ أوامر حكومة الخان الأعظم

التي أقامها أوكيتاي في قراقورم.

ومع وفاة جنكيزخان أطلت المشكلة الخوارزمية برأسها مرة أخرى، فقد نجح جلال الدين بن خوارزم شاه في العودة الى بلاد فارس فرحب به الجميع والتفت حوله بقايا الجيش الخوارزمي، واعتبروه محرر البلاد من سيطرة المغول. وخلال عام ١٢٢٥م كانت له السيادة على بلاد فارس وأذربيجان، ولم يكتف بذلك بل إنه تقدم في العام نفسه إلى بلاد الكرج ودخلها بسهولة حتى وصل إلى العاصمة تفليس، وإنكششت أملاك الكرج واقتصرت على أملاكها الواقعة على البحر الأسود. يضاف إلى ذلك أن جلال الدين نجح في فرض سيادته على بغداد في العام التالي .

وأمام هذه الاحداث تحركت القوات المغولية في مطلع عام ١٣٣١م، ويرجع هذا التأخير إلى إنشغال المغول بأحداث الثورات التي قامت في الصين، وتقدمت القوات المغولية بقيادة الأمير شورماجان-Chorma-gan حتى وصلت إلى أذربيجان دون مقاومة تذكر، وفر جلال الدين من القتال وتبعه الجنود، ومات جلال الدين بعد ذلك في ظروف غامضة في نواحي كردستان، أما الجنود الخوارزمية فقد إتجهوا إلى إقليم الجزيرة شمال العراق، وهناك عاشوا لبعض الوقت كجنود مرتزقة في جيوش الأمراء الأيوبيين المتنافسين على السلطة في بلاد الشام.

وبانتصار المغول على الخوارزمية عادت فارس وأذربيجان إلى السلطة المغولية وظل شورماجان يحكم هذه المنطقة حتى عام ١٤٤١م. وفيما يتعلق ببلاد الكرج، فقد إلتقت أنفاسها بعد هزيمة القوات الخوارزمية وإستعادت الملكة روسودان Russudan أراضيها ومنها العاصمة تفليس، ولكن هذا الهدوء لم يدم طويلاً، فسرعان ما تحرك شورماجان بقواته إلى بلاد الكرج فأستولى على الجانب الشرقي منها، وإنتهى الأمر باعتراف

المللكة بأن تكون من أتباع المغول وأن يكون لإبنها مملكة الكرج من بعدها تحت سيادة الامبراطورية المغولية.

باطو وغزو روسيا :

بدأ الغزو المغولي لروسيا في عام ١٢٢٣م، ويرجع ذلك إلى أن القوات المغولية ظلت تطارد فلول القوات الخوارزمية حتى شواطئ بحر قزوين، ويبدو أن بعض القبائل الروسية التي كانت تعيش في هذه المنطقة قد عاونت القوات الخوارزمية بشكل أو بآخر ضد القوات المغولية. والحقيقة أن الروس لم يكن يعلمون شيئاً عن المغول حتى تلك المرحلة، ويتضح ذلك من حوليه نوفجورد التي سجلت بعض الأحداث عن الغزو المغولي لروسيا في هذا العام، ومما ذكرته أنه في عام ١٢٢٣م تقدمت إلى روسيا قبائل غير معروفة للروس، ولا يعرف أصلهم ولا دينهم وقد اطلقت عليهم الحوليه إسم التتار. وذكرت الحولية أيضاً أن الروس قد سمعوا أنهم استولوا على الكثير من البلاد وأنزلوا بها الدمار. ويتضح من نصوص الحولية أن المغول هاجموا أول الأمر بعض القبائل التركمانية، وأن حاكم إقليم القفجاق (أوكرانيا حالياً) قد طلب النجدة من الحكام الروس الذين تجمعوا لمقاومة الغزو المغولي عند نهر كالكا Kalka، ولكن المغول هزموا هذا التحالف الروسي في شهر مايو من العام نفسه، والواقع أنها كانت معركة كبيرة قتل فيها الكثير من القوات الروسية، كما أسر العديد أيضاً، وما تبع ذلك من دمار المناطق التي مر بها المغول والأراضي التي دارت على رحاها المعارك. ثم ما لبث أن عادت القوات المغولية إلى الجنوب ثم إلى قواعدها في آسيا. ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى مات

جنكيزخان في عام ١٢٢٧م، وتلى ذلك انشغال المغول بأمورهم الداخلية لبعض الوقت.

وطبقاً للتنظيمات الذي وضعها جنكيزخان قبل وفاته فقد آلت المناطق الجديدة الواقعة شمالي بحر آرال إلى ابنه جوجي Juji الذي توفى في حياة أبيه فألت إلى باطو بن چوچي. كما أن المجلس الأعلى للمغول كان قد أقر في اجتماعه عام ١٢٣٥م بتقسيم وتوجيه الجيوش المغولية إلى أربعة اتجاهات للقتال، ومن هذه الاتجاهات روسيا والغرب الأوربي التي تولى أمرها باطو. وتنفيذاً لذلك - أصدر الخان الجديد أركيتاي الذي تولى أمر المغول جميعاً بعد وفاة والده جنكيزخان - أصدر أوامره إلى كافة القادة المغول لإلزامهم بإرسال جانباً من القوات المغولية التي تحت إمرتهم لمساندة باطو في حملاته المقبلة، كما عين سوبوتاي Sobotai، الذي لعب دوراً كبيراً في هزيمة القوات الخوارزمية، قائداً عسكرياً لهذه القوات، هذا بالإضافة إلى خبرته العسكرية في الحملة التي قامت بها القوات المغولية على جنوب روسيا في عام ١٢٢٣م.

كان تقدم القوات المغولية في صورة مفاجئة إلى المنطقة الشمالية لبحر قزوين، وفي هذه المنطقة توجد ثلاث أنهار هي نهر إمبو Embo إلى الشرق ونهر أورال في الوسط ثم نهر الفولجا في الغرب، وعلى هذا النهر الأخير كان يعيش بلغار الفولجا. والواضح من الأعمال العسكرية أن المغول أرادوا أن يتخذوا من منطقة جنوب نهر الفولجا مركزاً لعملياتهم العسكرية في روسيا أو المناطق المتاخمة لها.

كان تقدم المغول في عام ١٢٣٧م أي بعد أربعة عشر عام من حملتهم

الأولى التي يمكن أن نعتبرها أنها كانت حملة استكشافية للغزو المغولي المقبل للروسيا. وقد نجح المغول في هذا العام في مباغته إقليم الفولجا بما يزيد عن مائة ألف من القوات المغولية وماوالاها من جنود الأقاليم التي فتحها المغول من قبل. وقد أنزلت القوات المغولية الأعمال الوحشية ضد سكان هذا الاقليم مثل ذبح الرجال والنساء والأطفال، وتحولت المنطقة الواقعة في جنوب نهر الفولجا إلى السيطرة المغولية، وتمركزت القوات المغولية في هذه المنطقة لتنطلق منها في عملياتها العسكرية المقبلة.

ومن المعسكر المغولي خطط القادة المغول لغزو المنطقة الشرقية حيث يوجد نهر أورال وتعيش قبائل الباشكير والمنطقة الغربية الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفجاق. ولتنفيذ هذه الخطة قسمت القوات إلى قسمين إتجه القسم الأول إلى الشرق وهزم قبائل الباشكير، كما إتجه القسم الثاني إلى الغرب واجتاح اقليم القفجاق فهرب الآلاف من سكان البلاد إلى الغرب بما فيهم ملك القفجاق ووصلوا إلى مملكة المجر حيث أقاموا هناك. وكان بين المغول والمجر جولة أخرى بعد ذلك.

وفي ديسمبر من عام ١٢٣٧م كانت وجهة المغول مدينة ريزان-Ray-zan، وعندما أصبحت القوات المغول على مقربة من المدينة أرسلوا إلى أميرها إنذاراً يطالبونه فيه بالتسليم، ولكن أمير المدينة رفض طلبات المغول وأعد قواته للقتال وأرسل في طلب النجدة من أمير مدينة فلاديمير التي تقع على أحد فروع نهر الفولجا وإلى الشمال من مدينة ريزان، وعندما علمت القوات المغولية بنوايا أمير مدينة ريزان عجلت بمهاجمة المدينة في الشهر ذاته فدمرتها وقتلت الكثير من سكانها. ثم تقدمت إلى الشمال واستولت على مدينة كولومنا Colomna التي تقع إلى الشمال منها.

ولقد دار جدل طويل بين المؤرخين حول كيفية توغل القوات إلى هذا العمق في الأراضي الروسية في قلب فصل الشتاء. وقد قدم كل منهم أسباباً متعددة حول هذا الموضوع، ولكن الأمر الذي يجب التركيز عليه هو أن المغول الذين عاشوا في عاصمتهم قراقورم قد تعودوا مثل هذه الظروف الجوية، لأن العاصمة المغولية تقع عند نفس خط العرض تقريباً التي تقع عليه مدينة كييف، ولم يكن تقدم القوات المغولية أكثر من ذلك إلا قليلاً.

وبعد هذه الانتصارات استراحت القوات لبعض الوقت طوال شهر يناير من عام ١٢٣٨م ولعل ذلك بسبب الأحوال الجوية، وفي الثاني من فبراير من العام نفسه تقدمت القوات المغولية إلى مدينة فلاديمير Vladimir وحاصرتها لمدة ستة أيام، ثم ما لبثت المدينة أن سقطت في أيديها فدخلتها وأشعلت النار فيها.

ويبدو أن هذا التصرف جاء إنتقاماً من المدينة التي ربما كانت تستعد لنجدة مدينة ريزان. وعلى أية حال لقد هرب أمير المدينة إلى الشمال لعله يستطيع تجميع قواته لمنازلة المغول مرة أخرى، ولكن القوات المغولية اسرعت بالتقدم خلال الشهر نفسه إلى المناطق المجاورة، ونجحت خلال أسابيع قليلة في السيطرة على عدة مدن منها سوزدال Zuzdal إلى الشمال وتفر Tevr وموسكو إلى الغرب.

تطلعت القوات المغولية إلى التوجه إلى الشمال والاستيلاء على مدينة نوفجورد Novgorod التي تقع تحت خط عرض ٦٠ بقليل، وهي مدينة يحميها من الجنوب بحيرة إلمان Ilman. والواضح من النصوص التاريخية أن المدينة كانت قد استسلمت لمصيرها، ولم يعد لأهلها ورجال الدين فيها سوى الدعاء لله أن ينقذهم من خطر المغول. وواقع الحال أن المغول لم

يكملوا مسيرتهم في هذه المرحلة إلى نوفجورد، وقد تناول العديد من المؤرخين تفسير تراجع المغول المفاجئ إلى الجنوب، ولعل أقرب الأسباب إلى الصواب يرجع إلى ذوبان الجليد في فترة الربيع وظهور المستنقعات الكثيرة في الأراضي التي كان سيمر بها المغول، فضلاً عن مياه بحير إلمان التي زادت مساحتها وهي البحيرة التي تحمي المدينة من الجنوب.

عادت القوات المغولية إلى قواعدها جنوب نهري الفولجا والدون عن طريق مدينة كالوجا Kaloga التي إجتاحتها، واستراحت جنود المغول لبعض الوقت وأعاد قاداتهم تنظيم صفوفهم مرة أخرى، وجددوا معداتهم أو أصلحوها، وبدأ التخطيط لجولة عسكرية أخرى. وانقضى عام ١٢٣٩م قام خلاله المغول بعمليات عسكرية محدودة في المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين حيث يوجد معسكرهم. ويبدو أن هذه العمليات كانت من أجل فرض نفوذ المغول على المنطقة أو لجمع الضرائب، كما قامت القوات المغولية ببعض العمليات العسكرية في المناطق الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفجاق، والواضح أنها كانت عمليات استكشافية أكثر من غزو عسكري.

ويؤكد ذلك أنه في العام الثاني ١٢٤٠م كانت العمليات في ذات المناطق، ولكنها دارت على نطاق واسع. ويلاحظ هنا أن التوسع المغولي في هذه المرحلة سوف يكون لا إلى الشرق أو إلى الشمال وإنما إلى الغرب، وهو الطريق الذي سيؤدي إلى أوربا في مراحل مقبلة. والمهم هنا أن المغول نجحوا خلال شهور قليلة في الاستيلاء على مدينتي هامبتين تقعان على نهر الدنيبر وهما تشرنيجوف Chernigov وبرياسلاف -Perey aslav ويبدو أن القوات المغولية لم تبذل جهداً كبيراً في عملياتها

العسكرية في تلك المرحلة الأمر الذي أغراها بالتقدم إلى الشمال حيث تقع مدينة كييف، وهي من المدن التي تقع على نهر الدنيبر أيضاً. وكعادة المغول فقد أرسلوا إلى حاكم المدينة يطالبونه بتسليم المدينة وإلا نزل بها الخراب والدمار، ولكن حاكم المدينة رفض طلب المغول وقتل سفراءهم فبدأت القوات المغولية في محاصرة المدينة، وبدأت آلات الحرب تدك أسوار المدينة حتى نجحت في تحطيم بعض أجزائها الأمر الذي سهل على القوات المغولية اقتحام المدينة في السادس من ديسمبر عام ١٢٤٠م، وقد استولى المغول على كنوز المدينة، ولقى معظم السكان مصرعهم. وقد أبقى باطو على حياة ديمتري Dmitri قائد حامية المدينة لشجاعته في الدفاع عنها. ومن نتائج سقوط مدينة كييف أن أسرع أمراء القفجاق إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للقادة المغول وتعهدوا بتقديم ما تفرضه عليهم القيادة المغولية من غذاء للقوات المغولية وعلف لدوابهم، وبالإضافة إلى ذلك، لقد أصبح المغول على مشارف حدود أوربا الشرقية.

باطو وشرق أوربا :

كانت أول العمليات العسكرية التي بدأها المغول بعد أن استولوا على بعض مدن نهر الدنيبر هو التوجه إلى الغرب نحو نهر الفستولا حيث دولة بولندا. وقد دفع الخان باطو بقواته المغولية إلى تلك المنطقة تحت قيادة بايدار Baidar، وقد بالغ المؤرخون في عدد القوات المغولية التي غزت بولندا وقدروها بأكثر من مائة ألف مقاتل. وفي أواخر عام ١٢٤٠م أو أوائل عام ١٢٤١م تقدمت القوات المغولية إلى مدينة لوبين Lubin واجتاحتها، ثم تقدمت إلى الجنوب على طول نهر الفستولا لمسافة ستين ميلاً، ثم عبرت النهر وهاجمت مدينة ساندومير Sandomir فنهبته، ثم

تقدم بايدار بقواته حتى وصل إلى مدينة كراكو Craiou، وهي مدينة تقع عند منابع نهر الفستولا، وتبعد حوالي مائة ميل عن مدينة ساندومير وقد استولى المغول على المدينة ونهبوها.

لم يكن أمام الملك البولندي سوى طلب النجدة من جماعة الفرسان التيوتون المقيمين عند سواحل البحر البلطي، وهنري دوق سيليزيا وقد تم التحالف بين القوات البولندية وفرسان التيتون والقوات السيليزية. وتقدمت القوات المغولية إلى مدينة برسلاو Breslau، وهي مدينة تقع في شمال اقليم سيليزيا الذي يقع إلى الجنوب من بولندا، وتقع على الضفة الغربية لنهر الأودر Oder. وقد حاصرت القوات المغولية المدينة ثم أضرمت فيها النار، ولكنها انسحبت من أمامها عندما علموا أن القوات البولندية وحلفاءها قد تجمعوا عند مدينة لينجنتز Liegnitz.

تقدمت القوات المغولية إلى الجنوب حيث القوات المتحالفة، وفي مدينة فاهلشتات Wahlstadt القريبة من مدينة ليجنتز دارت معركة عنيفة في التاسع من أبريل عام ١٢٤٠م إنتهت بهزيمة القوات المتحالفة هزيمة ساحقة. والواضح أنه كان هناك إتفاق مسبق بين القائد المغولي بايدار والخان باطو على غزو بلاد المجر، فبعد انتصار القوات المغولية في بولندا تقدمت جنوباً إلى اقليم مورافيا Moravia، ومنها إلى الجنوب أيضاً لتتقابل مع بقية القوات المغولية بقيادة باطو.

وفي الوقت الذي تحركت فيه بعض القوات المغولية بقيادة بايدار لغزو بولندا كان الخان باطو يساعده القائد المغولي سوبوتاي قد غادروا روسيا بعد أن تركوا الحاميات العسكرية الكافية بها واتجهوا إلى بلاد المجر (هنغاريا - Hungary). وقد اتخذت القوات المغولية طريقها إلى اقليم جالسيا Galica في بداية الأمر بعد أن عبرت نهر الدينسر Dniester.

وكانت دولة المجر تقع إلى الجنوب من مملكة بولندا ويتولى حكمها في تلك المرحلة الملك بيلا الرابع Bela IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠م).

وكان ملك المجر يتوقع الغزو المغولي بسبب إيوائه العناصر التي فرت من المناطق الروسية خاصة بعض قواد القفجاق. ويلاحظ أن دولة المجر كانت دولة صغيرة محدودة الإمكانيات، ولكن ملكها على ما يبدو اعتمد على قوة العناصر التي فرت من أمام الغزو المغولي، لذلك دعا إلى اجتماع كبير في مدينة بودا Buda وهي الجزء الغربي لمدينة بودابست الحالية الواقعة على نهر الدانوب، وقد حضر هذا الاجتماع كبار رجال الدين والنبلاء والقادة العسكريون. وفي هذا الاجتماع لم يتمكن الملك بيلا من السيطرة على الموقف. فقد كان للنبلاء بعض المطالب مثل الامتيازات التي كانت ممنوحة لهم من قبل، وطرد عناصر القفجاق التي اعتبروها السبب الرئيسي لغزو المغول لبلادهم. ولم يتنازل الملك عن بعض الامتيازات للنبلاء، ولكن أرضاهم وقبض على بعض قواد القفجاق. ولكن هذا التصرف جاء بنتيجة عكسية، إذ ثارت عناصر القفجاق وعاشت في الأرض فساداً، وبذلك أصبحوا مصدر أزعاج بدلاً من مساعدة الملك في محنته أمام الغزو المغولي.

دبت الفوضى في المملكة المجرية الأمر الذي سهل أمر القوات المغولية التي تقدمت عبر ممرات جبال الكريات، وعندما علم الملك بيلا بذلك أرسل أسرته وثروته إلى دوق النمسا Austria وطلب منه النجدة، كما أرسل أيضاً إلى بقية الممالك الأوربية يطلب العون منهم. وكانت معركة غير متكافئة على الأطلاق خاصة أن القيادة المغولية نجحت في ضم جزء كبير من عناصر القفجاق إلى قواتها. وبالقرب من جسر مدينة موهي Mohi الواقعة على نهر سايو Saje - أحد فروع نهر الدانوب - دارت

مذبحة مروعة في الحادي عشر من أبريل ١٢٤١م في صفوف القوات
المجرية، ولما شعر الملك بيلا بعدم جدوى المقاومة هرب من أرض المعركة،
فتقدم المغول إلى بلاد المجر دون مقاومة تذكر.

وتتبع القوات المغولية الملك بيلا داخل إقليم كرواتيا حتى وصلت
إلى سواحل إقليم دلماشيا على البحر الادرياتيكي حتى وصلت إلى مدينة
كاتارو Cattaro الواقعة بين مدينتي راجوزه Ragues ودرازو Duazzo.
ولعدم وجود قوات بحرية لدى القوات المغولية لم يكن بوسعها أن تتعامل
مع هذه المنطقة، يضاف إلى ذلك أنه في أوائل عام ١٢٤٢م وصلت إلى
الخان باطو الرسل تخبره بموت الخان أوكتيبي في العاصمة الأم قراقورم
في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٢٤١م بعد مرض لازمه لبعض الوقت،
وبعد أن حكم خاناً أعظم حوالي سبع سنوات، فعاد باطو بعد أن خلف
وراءه الحاميات العسكرية في روسيا.

كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨م

كان أوكتيبي قد جعل العرش من بعده لإبنه الثالث كوشو Kuchu
ولكنه قتل في عام ١٢٣٦م في صراعه ضد أسره سونج بالصين، فجعل
أوكتيبي ولاية العهد لحفيده شرميون بن كوشو، ولكنه كان صغيراً قليل
الخبرة، فلما توفى أوكتيبي تولت الوصاية على العرش أرملته توراكيته
Toragina، وحرصت على أن يكون ابنها كيوك Guyuk خاناً أعظم
للمغول، ولما كان كيوك يحارب في شرق أوروبا مع باطو، قامت الارملة
بإدارة شئون البلاد وحرصت على إطالة مدة الوصاية حتى تمهد لتنصيب
كيوك خاناً أعظم، وظلت وصايتها من ١٢٤٢ - ١٢٤٦م تخلصت
خلالها من العديد من مستشاري أوكتيبي .

وخلال فترة الوصاية غزا المغول أراضي آسيا الصغرى، وقد بدا ذلك
أواخر عهد السلطان كيقيباذ الأول، ولكن الخطر تأجل لبعض الوقت بسبب

بعض المشاكل الداخلية عند المغول وهي الفترة التي أعقبت وفاة الخان الأعظم أوكيتاي. وقد ظهر هذا الخطر بصورة فعلية عندما غزا بياجو Baichu بلاد سلاجقة الروم في أواخر عام ١٢٤٢م، واستولى على مدينة أرزن الروم، وكانت الهجمة الكبرى للمغول في يونيه من العام التالي عندما نجحت القوات المغولية بقيادة بياجو في إنزال هزيمة ساحقة بقوات سلطان سلاجقة الروم كيخسرو في معركة كوس داغ بالقرب من مدينة أرزنجان Erzinjan ، وأعقبت ذلك إستيلاء المغول أيضاً على مدينة سيواس ونهبها، ثم مدينة قيصرية التي نالت نفس المصير، وقد فرض المغول على هاتين المدينتين جزية سنوية قدرها أربعمائه ألف دينار.

وعند هذه المرحلة هرب السلطان كيخسرو الى الغرب حتى قارب الحدود البيزنطية، ولكن وزيره تصرف تصرفاً معقولاً، فقد توجه إلى العسكر المغولي وبعد التفاوض نجح في عقد معاهدة مع بياجو تقضى ببقاء دولة سلاجقة الروم مع دفع الجزية وارسال الامدادات التي تطلب منها.

وفي صيف عام ١٢٤٦م إنعقد القوريلتاي، وحضر الاجتماع جميع الأمراء المغول عدا باطو الذي لم يحضر لمرضه، أو لعله علم بما تخطط له الأرملة توراكينه، كما حضر هذا الاجتماع عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك التابعين للخان، ويمدنا رشيد الدين الهمذاني ببعض الشخصيات الأخرى التي حضرت الإجتماع ومنهم مسعود من التركستان وفي رفقته عظماء تلك الديار، ومن خراسان الأمير أرغون، في صحبته الأمراء والوجهاء في هذا الاقليم، ومن العراق وازربيجان، ومن سلاجقة الروم السلطان ركن الدين، ومن جورجيا (مملكة الكرج) المطالبان بعرش المملكة وهما داود نارين، وداود لاجا، ومن حلب أخو أميرها ومن الموصل بدر الدين لؤلؤ، ومن دار الخلافة ببغداد قاضى القضاة، ومن أرمينيا حضر سمباد أخو الملك هيتوم، كما حضر رسل من فارس وكرمان وغيرهم، وقد

حضر كل هؤلاء بأحمال كثيرة وهدايا تليق بمثل تلك الحضرة، وقد أعد لهذا الاجتماع حوالى ألفي سرادق، ولكثرة الخلق لم يبق موضع للنزول في المنطقة المحيطة بالمعسكر.

وفي هذا الاجتماع تحدث الامراء في موضوع تعيين الخان الأعظم، ولما كانت الارملة توراكيته تميل إلى تنصيب ابنها كيوك، وأن شريمون لازال قاصراً، فالمصلحة تقضى بأن ينصب كيوك خائناً أعظم، ولكن كيوك رفض أن يتقلد هذا المصب وطلب من الامراء ترشيح أمير آخر. واعتذر بإعتلال صحته، ولكن الأمراء أصروا على أن يتولى كيوك منصب الخانية، فقال لهم «إني أقبل هذا المنصب، بشرط أن تبقى الخانية في ذريتي» فوافق الجميع.

وبهنا عند هذه المرحلة أن نتوقف قليلاً لإلقاء الضوء على موقف حكام العالم الأوروبي من الغزو المغولي الذي وصل إلى بولندا وهنغاريا وشبه جزيرة البلقان حتى سواحل البحر الأدرياتيكي، وبهنا أيضاً أن نذكر أن كل غزوات المغول كانت برية وليس فيها معركة بحرية واحدة. وأن المغول إجتاحوا أوروبا الشرقية في فصل الشتاء، وهو من أصعب الفصول على الحياة حيث الثلوج. ويكفى على هذه الصفحات أن نذكر أنه كان على العالم الأوروبي أن يتدبر أمره بعد كل هذه الفتوحات، لأن حكام الغرب الأوروبي كانوا على علم بكل هذه الاحداث، كما أن طائفة الحشيشية التي اتخذت من قلعة الموت في جبال فارس مقراً لها قد إنزعجت من تحركات المغول بعد تدمير الدولة الخوارزمية، وبادرت بإرسال الرسل إلى حكام أوروبا تحذره من هذا الخطر الجارف.

والواقع أن البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤٠م) قام من جانبه بالدعوة إلى عقد تحالف بين دول أوروبا لمواجهة هذا الخطر، ولكن الدعوة شيء والتنفيذ شيء آخر. فقد كان الامبراطور الألماني فريدريك

الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) مشغولاً بصراعة مع البابا على ممتلكات المانيا في ايطاليا، واكتفى بأن طلب من ابنه كونراد وضع الجيش الألماني موضع الاستعداد للحرب، وطلب أيضاً من ملكى إنجلترا وفرنسا أن يستعدوا بقواتهم لهذا الغرض، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وتوقف حشد القوات العسكرية بعدما علم هؤلاء الحكام بانسحاب المغول الى الشرق لوفاة الخان الأعظم أوكيتاي، وبدأ الغرب الأوروبي يعود إلى أوهامه ويتذكر أسطورة الكاهن يوحنا وما سيأتي على يديه من خلاص والتحالف مع الغرب الاوروي والقضاء على المسلمين. وفي الوقت نفسه إنشغل الغرب الأوروبي باعداد حملة صليبية تولى أمرها الملك الفرنسي لويس التاسع Louis ix ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م لاستعادة بيت المقدس بعد ما إستردها المسلمون في عام ١٢٤٤م .

مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠م

لما توفى كيوك تطرق الخلل مرة أخرى إلى شئون المملكة، وقامت زوجته أوغول قاميش بتدبير مصالح البلاد مع كبار الأمراء حتى يتم تنصيب الخان الجديد. وكان الأمير باطو بن جورجى بن جنكيزخان يشغل منصب خان القبيلة الزرقاء في جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق مريضاً - مصاباً في قدمه - فأرسل الرسل الى كبار الأمراء للحضور إليه، وكان باطو يرى أن يتولى منصب الخانيه من يكون جديراً به وصالحاً له. وقد رفض ابناء أوكيتاي وكيوك الذهاب إلى مقر باطو وقالوا «إن أونان وكلوران هما الموطن الأصلي وحاضره جنكيزخان، ولسنا ملزمين بأن نخطو خطوة إلى دشت القفجاق» ولكنهم أرسلوا رسلاً عنهم وقالوا «إن باطو هو الأخ الأكبر لكافة الأمراء، وأمره نافذ على الجميع، واننا لن نحيد بأى وجه عما يراه صواباً» .

وفي هذا الاجتماع إتفق الجميع على أن مونكو هو الجدير واللائق

للملك، وأن بإمكانه أن يضبط الممالك والجيوش بفكر ثابت ورأى صائب، وقد تم تنصيب مونكو طبقاً لتقاليد المغول، فقد حل جميع الأمراء والأنجال وأمراء الجيش أحزمتهم ورفعوا قلانسهم، وجشوا على ركبهم، ثم أخذ باطو الكأس، ثم بايع جميع الحاضرين مونكو، وكان عليه أن يتجه إلى كلوران لتولى مهام منصبه. وقد صادف مونكو بعض العقبات من بعض الأمراء والوصية على العرش أرملة كيوك، ولكن الأمور استقامت بعد سنتين وتسلم مونكو مهام عمله، بعد أن هدد باطو بالاطاحة برأس كل من يخالف أحكام الياسا. وقد وجه مونكو عنايته إلى ضبط شئون المملكة وترتيبها، ونعمت الدولة في عهده بالعدل والسلام. وقد وجه كل إهتمامه برعاية المطيعين وقهر المتمردين، والترفيه عن الرعايا وتوفير أنواع المئون لهم، واختار الجد على الهزل، وترك إدمان الشراب، وفي بداية حكمه بادر بإرسال الجنود إلى أقاصى الشرق والغرب لضبط أحوال البلاد.

كما أصدر مونكو مرسوماً بشأن تخفيض الضرائب عن الرعايا، ويرجع ذلك إلى بعض الأمراء والخواقين قد منحوا لبعض الناس إعفاءات ضريبية بغير حساب، فأمر بالآلا يكتب الأمراء بعد ذلك منشورات عن أمور تتعلق بالمصالح العليا للولايات دون إستطلاع رأى نواب الخان الاعظم، وألا يصدرُوا أوامر لأي شخص، وألا يستعمل كبار الرسل أكثر من أربعة عشر جواداً عندما ينتقلوا من دار البريد إلى دار أخرى، وألا يغتصبوا دواب الناس في الطريق، ورتب مونكو أيضاً إنتقال التجار على الدواب، فقد كان من المتبع أن التجار كانوا يسافرون إلى ولاية منغوليا على الخيول التي تملكها الدولة، ورأى أن التجار ينتقلون لكسب الأموال، وليس هناك من معنى لركوبهم خيول الدولة، وأمر بأن ينتقل هؤلاء

التجار على دوابهم الخاصة، وأمر أيضاً بألا يذهب الرسل إلى أية مدينة أو قرية ليست لهم مصلحة فيها، وألا يأخذوا من العلف أكثر من المقرر.

ورفع مونكو الظلم عن الرعية، لأن الدهاقين (رؤساء القرى) قد ضاقوا ذرعاً بسبب كثرة المطالب، وأداء الضرائب لدرجة أن محصولهم لم يعد يفي بنصف ما يطلب منهم، وطالب مونكو بأن على التجار وأصحاب الأعمال أن يسلكوا مع أتباعهم طريق التسامح والمساواة، وأن يؤدي ، كل شخص على قدر استطاعته وقدرته، كل ما عليه من ضرائب دون ممانعة أو اعتذار، وأعفى مونكو من الضرائب طائفة السادات والكرام والمشايخ الكبار والأئمة الاخير من المسلمين، وكذلك كبار القساوسة والرهبان النصارى، واللامات البوذيين، كما أعفى كبار السن والعاجزين عن الكسب.

والحقيقة أن الاحوال الداخلية للبلاد في عهد مونكو تضيق بها هذه الصفحات، وقد نكتفى هنا بالقول أنه خص المسلمين بمزيد من الإكرام والإحترام، وميزهم على جميع الطوائف والمذاهب، وأمر لهم بالصلوات والصدقات ، ومصداق ذلك أنه في عيد الفطر لعام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ هـ حضر إلي معسكر المغول القاضي جلال الدين محمود وطائفة من المسلمين، فخطب في الناس وأمهم، ووشح الخطبة بذكر ألقاب الخليفة ودعا للخان الأعظم مونكو، فأمر لهم بالمنح على سبيل التشريف وأعطاهم عربات محملة بأكياس النقد من الذهب والفضة والملابس القيمة، وقد ذاع أمر مونكو في أطراف البلاد، وصار الترك من قريب ومن بعيد يلجأون اليه برغبة صادقة، وكان الملوك الذين دخلوا في طاعته، يرسلون إليه التحف والهدايا .

أما العمليات العسكرية في عهد مونكو فهي كثيرة ومتعددة،

وسوف نركز في هذه الصفحات على الجوانب التي تهم العالم الإسلامي والمسيحي، ومن ذلك أن الخان الأعظم أرسل أخاه الأصغر هولاكو Hula-gu إلى المنطقة الغربية في الامبراطورية، وقد قاد هولاكو جيشاً كبيراً إلى تلك التواحي. والمعروف أن هولاكو فاق كل أمراء المغول في العلم. وكان شاماني العقيدة مثل المغول، كما كان يميل إلى الشر وليس لديه نزعة إنسانية، وكانت زوجته طقز خاتون أميرة من قبيلة الكرايث مسيحية نسطورية، كرهت الاسلام والمسلمين وحرصت على مساعدة المسيحيين، وكان الهدف الأول من هذه الحملة هو الاستيلاء على قلعة الموت مقر طائفة الحشيشية في فارس، لأنهم تمردوا على المغول وإغتالوا جغتاي Jagitai ثاني أبناء جنكيزخان، أما الهدف الثاني فكان بغداد عاصمة الخلافة العباسية، والثالث دمشق مركز البيت الأيوبي في بلاد الشام.

والحقيقة أن الإستعداد لهذه الحملة بدأ في عام ١٢٥٣م، فقد تم إرسال جيش كبير لتمهيد الطريق وعلى رأسه كتبغا النسطوري الذي كان ينتمي إلى قبيلة النايمن، وفي عام ١٢٥٦م كان تحرك هولاكو بقواته بعد أن انضم إليه الكثير من الأمراء المغول من كل حد وصوب. واشترك في الحملة نحو ألف من الرماة الصينيين البارعين في قذف السهام التي تحمل المشاعل.

ولما علم الحشيشية بتقدم المغول حاولوا بالطرق السلمية دفع هذا الخطر، ولكن كل هذا لم يجد، فقد إتجه هولاكو بجيشه حتى وصل إلى قلعة الموت وشدد الحصار عليها واضطر زعيم الحشيشية ركن الدين خورشاه إلى الذهاب لخيمة هولاكو واعلن الخضوع والاستسلام. فأرسله هولاكو إلى الخان الاعظم مونكو ليرى فيه ما يراه، ولكنه رفض مقابلته

فعاد ركن الدين، ولكن لقي مصرعه أثناء عودته. وتمكن هولوكو من الاستيلاء على قلعة الموت وغيرها من القلاع، وقتل الألو ف من الحشيشية، وقبل أن ينتهى عام ١٢٥٧م لم يكن هناك إلا عدداً قليلاً منهم في جبال فارس، وعندما علم الحشيشية في بلاد الشام بما حدث لإخوانهم في فارس أحسوا بدنو أجلهم.

ومن طريف ما يروى حول سقوط قلعة الموت أنه كان بها مكتبة ضخمة تحتوى على العديد من الكتب النفيسة، وقد طلب هولوكو من حاجبه المسلم عطا الملك الجويني أن يفحص المكتبة، فأخرج المصاحف والكتب التاريخية والعلمية وأحرق الباقي، ولكن صاعقة نزلت على المكان فأحرقت ما تبقى من كتب، ولم ينقذ إلا القليل .

بعد أن إنتهى هولوكو من تدمير قلاع الحشيشية في بلاد فارس، تحركت القوات المغولية لتنفيذ الهدف الثاني من أهداف الحملة وهو مهاجمة بغداد، وكان على رأس الخلافة العباسية في تلك المرحلة الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) الذي أصبح آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وكان يأمل في أن يعيد مجد الخلافة مرة أخرى، ولكنه كان رجلاً ضعيف الشخصية، وجعل كل إهتمامه إشباع غرائزه، يضاف إلى ذلك الصراع المذهبي الذي دار داخل البلاط بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي، وبين كاتب الخليفة السني أيبك.

وواقع الحال أن الجيش العباسي أو جيش الخلافة أصبح ضعيفاً بعد أن خفض الخلفاء أعداده حتى وصلت إلى عشرين ألفاً بدلاً من مائة ألف فارس لعدم الوثوق في قاداته، وظل الاعتماد على المقاومة محصوراً في حصانه مدينة بغداد، وعلى ما يمكن أن يأتي من مساعدة من البيت الأيوبي في مصر والشام، وهذا أمر مشكوك فيه لإنشغال القوات

الأيوبية بالصراع مع الصليبيين، وعلى امكانية التفاوض مع المغول ودفن الأموال لتجنب مهاجمة بغداد.

أما القوات المغولية فرغم إستعداداتها وكثرة عددها، فقد وصلت إليها قوات إضافية من مقاتلى القبيلة الذهبية، وبعض القوات المغولية الأخرى من بلاد الأناضول بقيادة الأمير بياجو، وبعض العناصر الجورجية المسيحية الذين كانوا متلهفين على مهاجمة حاضرة الاسلام والمسلمين ومقر الخلافة العباسية وهي مدينة بغداد.

وقد ساعدت الفتن الداخلية في بغداد على تقدم الجيش المغولي، فقد كان يسكن المدينة عناصر مختلفة الأديان والطوائف، وحدث في تلك المرحلة الحرجة إندلاع الفتن بين السنة والشيعة في ضاحية الكرخ، وقد ساند ابن العلقمي وزير الخليفة طائفة الشيعة، فتدخل أبو بكر بن الخليفة وولى عهده وأمر بنهب ضاحية الكرخ، وزاد الأمر حتى أن العسكر إعتدت على النساء. ويقول المؤرخ أبو الفدا «ان ذلك عظم على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد»، وهذا يدل على فساد الحكم وشدة الانقسام داخل الخلافة العباسية. وبدأت الأعمال العسكرية للقوات المغولية عندما تحركت في نهاية عام ١٢٥٧م من مدينة همذان التي تبعد عن بغداد إلى المشرق حوالى ستمائة كيلومتر. وإنقسم الجيش المغولي إلى ثلاثة أقسام سارت في ثلاثة محاور، الأول وتولى أمره الأمير بياجو واتجه إلى الموصل وعبر نهر دجلة وسار إلى جانب الشاطيء الغربى للنهر في الطريق إلى بغداد التي تبعد عن صل حوالى ثلاثمائة وثمانين كيلومتر، والمحور الثانى وعلى رأسه غا واتجه إلى سهل العراق الواقع شرق بغداد، والثالث وهو الرئيسى؛ هولاكو وكانت وجهته بغداد مباشرة.

وحاول الكاتب أيبك أن يتصدى للقوات المغولية القادمة من الموصل، ولكن القوات المغولية أوقعتة وقواته في كمين لاذ بعدها بالفرار في الطريق إلى بغداد، وحوالي ذلك الوقت خرج ابن العلقمي إلى هولوكو، فأخذ الأمان لنفسه، ولكنه مال بث أن عاد ومعه شروط هولوكو بالاستسلام، وموجز هذه الشروط أن يبقى المستعصم خليفة على البلاد، وأن يتزوج أبو بكر ابن الخليفة من إبنة هولوكو، وقد طلب ابن العلقمي من الخليفة الخروج لمقابلة هولوكو وقد زين له هذا العمل، ويقول أبو الفدا «فخرج إليه المستعصم في جمع من إكابر أصحابه، فانزل في خيمة، ثم استدعى ابن العلقمي الفقهاء فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وغيرهم، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم». وعند هذه المرحلة عبرت القوات المغولية إلى بغداد على جسر أقاموه على نهر دجلة وأنزلوا القتل في بغداد، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف، ولم يسلم إلا صغار السن الذين أخذوا أسرى، ودام القتل والنهب في بغداد أربعين يوماً. وقد أسفر ذلك عن قتل حوالي ثمانين ألف من أهل المدينة. أما الجالية المسيحية فقد لجأت إلى الكنائس، وتدخلت طقز خاتون المسيحية زوجة هولوكو لحمايتهم فلم تتعرض القوات المغولية لهم بسوء. وكان هولوكو قد أبقى على حياة الخليفة حتى دخل بغداد وبعد أن دله على الأماكن التي وضع فيها ثروته وكنوزه. وقد اضطرت القوات المغولية إلى الانسحاب من المدينة بعد أن فاحت رائحة الجثث، وذلك في نهاية مارس ١٢٥٨م.

وصار بحوزه هولوكو عند إنسحابه من المدينة ثروات الخلفاء التي كدسوها منذ قيام الخلافة في بغداد، وقبل أن يغادر هولوكو المدينة عين عليها والياً هو ابن العلقمي، كما أغدق الأموال على البطريك النسطوري ماكيكا Makika وخصص له أحد قصور الخلافة لتكون مقراً له وكنيسة.

كان لسقوط بغداد نتائج متعددة على الشرق والغرب على السواء، فقد إرتاع العالم الاسلامي ويات يخشى العاقبة، أما المسيحيون فقد إبتهجوا وإعتبروا سقوط بغداد هو سقوط بابل الثانية، وأن هولاءكو وزوجته طقز خاتون هما الإمبراطورة قسطنطين وأمه هيلينا. وأن أسطورة الكاهن يوحنا أصبحت حقيقة ينقصها تحالف المغول مع المسيحيين للقاء على المسلمين في بلاد الشام لإستعادة بيت المقدس.

وبعد سقوط بغداد أقام هولاءكو معسكره في مراغه حيث إستقبل بعض سفراء الدول إما للتأييد أو الإعتذار، ثم استعد بعد ذلك لتحقيق الهدف الثالث و هو الهجوم على دمشق، ولم يبدأ هولاءكو بمهاجمة دمشق مباشرة بل قام ببعض العمليات العسكرية في بلاد الشام خاصة في الشمال إستمرت حوالي عام قبل أن يتوجه إلى هدفه الثالث والأخير دمشق.

وبدأت العمليات العسكرية في إقليم الجزيرة ضد مدينة ميفارقين لأن حاكمها الكامل الثاني نصر الدين (١٢٤٤ - ١٢٦٠م) كان قد صلب مبعوث هولاءكو ورفض قبول السيادة المغولية. وقد سقطت المدينة في أوائل عام ١٢٦٠م، بفضل المساعدات التي قدمها الأرمن والكرجيون، ودارت مذبحة في المدينة قتل فيها كل المسلمين، أما المسيحيون فقد تم الإبقاء على حياتهم. وتم القبض على الكامل الثاني وعذب حتى الموت، وقد حملت رأسه على رمح وطيف بها في البلاد مثل حلب وحماه دمشق، ولعل هذا التصرف أثار الرعب في نفوس أهل الشام ، مما كان أبلغ الأثر على الحالة النفسية للأهالي والقوات الاسلامية.

انت المرحلة الثانية من العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام مدن نصيبين وحران والرها والأراضي الواقعة في تلك النواحي مثل

البيرة وسروج حتى وصلت القوات المغولية بقيادة هولانكو إلى مدينة حلب، حيث تم إلقاء الحصار عليها بعد أن رفضت الإستسلام، وقد قاومت المدينة لمدة ستة أيام حتى إنهارت أسوارها أمام ضربات المغول فدخلتها القوات المغولية وحل بها ما حل بالمدن الأخرى من ذبح المسلمين والإبقاء على المسيحيين، ورغم هذا كله فقد ظلت قلعة المدينة تقاوم لمدة شهر حتى سقطت، وقد إحترم هولانكو الأمير الأيوبي تورانشاه بن صلاح الدين لكبر سنه ويسالته. وقد استولى هولانكو على ثروة المدينة وعين عليها الأمير الأيوبي الأشرف حاكم حمص (١٢٤٦ - ١٢٦٢م) الذي زار المعسكر المغولي قبل عدة أشهر من هذه الأحداث، واعتبر الأشرف من أتباع المغول بعد أن أعطاه هولانكو الدستور (الأمر) على حد قول أبو الفدا.

وبعد مدينة حلب إتجه هولانكو إلى الممتلكات الاسلامية في ضواحي أنطاكية خاصة أن أميرها بوهمند السادس Bohemond VI (١٢٥١ - ١٢٦٨م) كان قد دخل في طاعة المغول، وكانت مدينة حارم وقلعتها في الطريق إلى أنطاكية، وقد رفضت الاستسلام فوقع بها ما وقع بحلب، وفي تلك المرحلة تقدم بوهمند وهيثوم الأول ملك أرمينية (١٢٢٦ - ١٢٦٩م) إلى معسكر هولانكو بإعتبارهما حلفاء له لتقديم فروض الولاء والطاعة، وقد كافأهما هولانكو ببعض العطايا، كما طلب من سلطان سلاجقة الروم إعادة الأراضي التي كانت في حوزة الأرمن من قبل، كما أعاد إلى بوهمند بعض المدن والحصون التي إستولى عليها المسلمون أيام صلاح الدين، وطلب هولانكو من بوهمند أن يعين البطريك الأرثوذكسي يوثيميوس Euthymius على الكنيسة الأرثوذكسية في أنطاكية وكان في ذلك إرضاء للامبراطورية البيزنطية التي كانت على علاقة طيبة بالمغول،

وقد ظل يوثيموس في منصبه حتى عام ١٢٧٤م، وليس معنى ذلك إلغاء منصب البطريرك الكاثوليكي فقد كان المنصبان موجودان في أنطاكية، ولكن هناك فرق بين بطريك يعين وبطريك منتخب.

وكانت وجهة هولاكو بعد ذلك مدينة دمشق، ولما علم الناصر صلاح الدين يوسف سلطان دمشق بما فعله المغول بحلب رحل عن المدينة بما بقي معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية، ولم يحاول الدفاع عن المدينة، وأقام لبعض الوقت في مدينة نابلس، ثم إتجه إلى غزة، وبلغه أن المغول هاجموا نابلس، فرحل إلى العريش وأرسل إلى سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م) يطلب منه المساعدة، أما دمشق فقد دخلها المغول بقيادة كتبغا بالأمان، ولم تتعرض الأهالي إلى القتل والنهب. ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم وقاومت عدة أسابيع فأقام المغول عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان في جمادى الأولى عام ٦٥٨هـ / أبريل ١٢٦٠م، ورغم ذلك نهب المغول جميع ما فيها وهدموا القلعة وأسوارها وما بها من أدوات القتال.

وهكذا حققت حملة هولاكو أهدافها بنجاح، وهي تدمير قلاع الحشيشية وأسقاط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية، ودمشق عاصمة الايوبيين في الشام، يضاف إلى ذلك أن هولاكو ضمن ولاء سلطنه سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ودولة الأرمن في قيليقية، والصليبيين في أنطاكية، أما بقية الامارات الصليبية فلم يكن في نية لمغول مهاجمتها طالما أظهروا الطاعة لهم، وقد إلتزم الجميع بذلك عدا جوليان Julian حاكم مدينة صيدا والشقيف Beaufort وزوج يوفيميا Eu- phemia إبنة الملك الأرميني هيثوم. وقد قام جوليان بالإعتداء على إاضي البقاع الأمر الذي أقلق المغول، وأرسلوا إليه بعض القوات

المغولية بقيادة ابن أخت كتبغا، ولكن جوليان كمن لهذه القوات ودارت معركة قتل فيها القائد المغولي، وهنا أرسل كتبغا جانباً كبيراً من جيشه خرب مدينة صيدا، عدا القلعة التي انقذتها بعض السفن الجنيوية التي أتت من صور، وترتب على ذلك عزل جوليان من حكم المدينة. وإلى جانب جوليان، تمرد يوحنا الثاني إبلين John II of Ibelin حاكم بيروت عندما إعتدى على إقليم الجليل بمساعدة الداوية، وقد أرسلت قوة مغولية لردعه، وكان لتصرف المغول هذا أثره السيء في تصرفات الصليبيين ضد المغول في المرحلة المقبلة.

أما النتائج العامة لغزوات المغول في فارس والعراق والشام فكانت سيئة جداً على العالم الإسلامي وتوقعوا نهاية أجل الدول الإسلامية بعدما أحسوا أنهم في بلاد الشام بخاصة أقلية مغلوبة على أمرها، على العكس من الدول المسيحية والصليبية التي استبشرت خيراً بقدوم المغول، ولكن هذا الإحساس والتفاؤل شيء والواقع شيء آخر. فقد كان هناك مصر التي حملت لواء الدفاع عن العالم الإسلامي ومقدساته.

قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤م

توقفت العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام عندما وصلت الأخبار بوفاة الخان الأعظم مونكو، وكان له ثلاثة أخوة هم قوبيلاي -Ku bilai وهولاكو، وأريق بوقا Arigboga، وكان له أبناء صغار قليلوا الخبرة. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاي لمنصب الخان الأعظم، وكان قوبيلاي أثناء ذلك يقود حملة عسكرية ضد بلاد الصين فساندته القوات المغولية المرافقة له في حملته، فبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة كلوران لتولى منصبه بحكم أنه الأخ الأكبر للخان الراحل. ولكن الأخ الأصغر وهو أريق بوقا كان في العاصمة وسيطر على أموال الإمبراطورية وطالب بالعرش.

وانقسمت الأسرة الحاكمة إلى قسمين أحدهما يساند قوبيلاي والآخر يساند أريق بوقا، واختار كل فريق من يسانده لتولى عرش الخانية، وظلت المناورات حتى أواخر عام ١٢٦١م حتى إنتهى الأمر بإختيار قوبيلاي في منصب الخانية، ولكن أريق بوقا ظل يعارض أخاه لفترة ، وقع خلالها بعض الاحتكاك بين الفصائل المغولية حتى إنتهى الأمر بوفاة أريق بوقا عام (٦٦٤هـ / ١٢٦٥ - ١٢٦٦م). وبعد أن إستراح خاطر قوبيلاي من فتنة أريق بوقا دخل جميع الأمراء في طاعته عدا قلة، وفي النهاية خضع الجميع واستكانوا.

وكان على هولاء خلال هذه الأحداث أن يسحب بعض قواته ويتراجع ليراقب الأحداث ، فترك كتبغا مع بعض القوات المغولية في بلاد الشام، ولم يكن في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي من قوة تستطيع أن تواجه المغول سوى مصر وبها دولة المماليك التي تولت السلطنة في مصر، وكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها في المنطقة، وحتى تكون جديرة بحكم مصر، وما تتطلع إليه من ميراث البيت الأيوبي في بلاد الشام.

معركة عين جالوت ١٢٦٠م :

كان بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك السفارة المغولية التي أرسلها هولاء الى مصر في أوائل عام ١٢٦٠م/٦٥٨هـ ، تطلب من السلطان قطز الخضوع للسيادة المغولية، ولكن قطز أمر بقتل الرسل، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين، وعلى ذلك إستعد قطز للقتال فحشد قواته وأنضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية، وعساكر المغيث عمر الأمير الأيوبي حاكم إمارة الكرك حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية، واجتاز قطز وقواته الحدود المصرية في نهاية

يوليو ١٢٦٠م وتولى بيبرس قيادة المقدمة وتمكن من الانتصار على القوات القليلة للمغول التي كانت مرابطة في غزة، وعلى أثر هذه الهزيمة أرسل القائد المغولي في غزة وهو بايدار Baidar إلى بعلبك حيث كان كتبغا يخبره بالوقائع.

إستعد كتبغا وما معه من قوات للتقدم من بعلبك إلى غزة، ولكنه إضطر لتترك جانب من قواته لتتوجه إلى دمشق لقمع ثورة قام بها المسلمون داخل المدينة، وترجع أسباب هذه الثورة إلى أن المغول أخرجوا نقيب قلعة دمشق وواليتها من الإعتقال وضربوا أعناقهما، ولما كان أهل دمشق قد علموا بخروج العساكر من مصر لقتال المغول فإعتدوا على المسيحيين الذين إستطالوا على المسلمين، بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع، ونهبوهم، وخرّبوا كنيسة السيدة العذراء.

وخلال هذه الفترة تقدم قطز إلى الشمال بحذاء الساحل وأرسل سفارة إلى حكام مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا تطلب من الصليبيين إقامة تحالف إسلامي صليبي ضد المغول، والسماح للقوات الإسلامية بالمرور عبر الأراضى الصليبية، والحصول على المؤن اللازمة للجيش. وعقد بارونات المملكة مجلساً للتشاور، وكان تقسيم الموقف عند هؤلاء البارونات، أن سجل المغول حافل بالمذابح وإن المغول تعاطفوا مع المسيحيين المحليين، ولم يتعاطفوا مع الصليبيين، وأنهم إعتدوا على مدينة صيدا منذ قليل، وأن التعامل مع المسلمين رغم الحروب الدائمة أفضل بكثير من التعامل مع المغول، وإنتهى قرار البارونات إلى استبعاد فكرة التحالف العسكري مع المسلمين، والإكتفاء بالسماح بمرور القوات الإسلامية عبر الأراضى الصليبية، وتمويل القوات بما يلزم من المؤن، و على إثر هذه الاتفاقية تقدم قطز وقواته إلى الشمال حتى وصل إلى مدينة عكا وعسكر في البساتين الواقعة خارج المدينة لعدة أيام.

وفي الوقت نفسه كان كتبغا قد رتب ما لديه من قوات، وكان مع قوات المغول قوات كرجية وأرمينية، وكان أيضاً في معية كتبغا من البيت الأيوبي الملك السعيد، والملك الأشرف موسى، ولكنها كانت أقل عدداً من القوات الإسلامية.

وعلى أية حال تقدم كتبغا من بعلبك حتى وصل الناصرة، ثم إلى عين جالوت التي وصلها في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ/ الثاني من سبتمبر ١٢٦٠م، وفي هذا المكان حيث كان كتبغا لا يدرى بما يدور حوله، ولم يكن هناك من السكان المحليين من يساعده، كان قطز قد خطط للمعركة، وكانت خطة قطز تقضى بأن تختبأ القوات الرئيسية في التلال، ولا يظهر أمام القوات المغولية إلا قلة بقيادة الأمير بيبرس، وهنا أسرع القوات المغولية لملاحقة القوات الإسلامية التي تظاهرت بالانسحاب، فانقضت القوات الإسلامية على القوات المغولية وهزمتها هزيمة قاسية، وأخذتها سيوف المسلمين، وهرب من سلم من المغول إلى الجبال ولكن المسلمون تبعوهم وأقنوهم، وقد نجح البعض في الهروب إلى الشرق، أما كتبغا فقد ظل يقاتل حتى هلك فرسه، فوقع في أسر المسلمين وحمل مقيداً بالأغلال إلى السلطان فأمر بقتله، كما وقع في الأسر الملك السعيد وقد أمر السلطان أيضاً بقتله، أما الملك الأشرف فقد فارق المعسكر المغولي وطلب الأمان من السلطان فأمنه وأقره على ما بيده وهو مدينة حمص ومضافاتها، وبعد هذه المعركة تقدم قطز حتى دمشق.

والحقيقة فإن الأمر يتطلب وقفه قصيرة للنظر في الأسباب التي أدت إلى هزيمة المغول في معركة عين جالوت، وهم الدولة التي لم تهزم هزيمة واحدة في كل فتوحاتها من بلاد الصين غرباً حتى البحر الأدرياتيكي شرقاً، ومن جنوب روسيا شمالاً حتى تركستان جنوباً، ويمكن حصر هذه

الأسباب في عدة نقاط هي : وفاة الخان مونكو وما له من تأثير على عودة هولانكو والجزء الأكبر من جيش المغول حتى أصبح ما تبقى من قوات أقل من القوات التي كانت تحت السلطان قطز، وسبب آخر يرجع إلى مساعدة الصليبيين للقوات الإسلامية والسماح لها بالمرور في أراضيهم والالتفاف حول القوات المغولية من الشمال، وهو أمر لم يتوقعه المغول، يضاف إلى ذلك الثورة التي قامت في دمشق بسبب تصرف المغول وقتل نقيب قلعة المدينة وواليها، الأمر الذي أجبر كتبغا على ترك جانباً من قواته لإقرار الأمن والنظام داخل المدينة، كما أن عدم تعاون الأهالي مع المغول في الأراضي التي مروا بها جعلهم لا يدرون بما يدور من حولهم حتى فاجأتهم القوات الإسلامية، هذا بالإضافة إلى جهل المغول بطبوغرافية الأراضي التي مروا بها، وأن وقت المعركة قد حدد بمعرفة قطز وليس بمعرفة المغول، وهذا أمر هام لأن المغول كما شاهدنا في المعارك السابقة كانت حروبهم تبدأ مع فصل الشتاء وتنتهي مع نهاية فصل الربيع. أما أحداث معركة عين جالوت فقد بدأت من شهر يوليو وامتدت حتى أوائل سبتمبر، وهذا وقت تشتد فيه الحرارة في بلاد الشام وتقل المياه في الأنهار والأفلاج. وأخيراً يمكن القول أن هذه المعركة كانت معركة حياة أو موت بالنسبة لدولة المماليك الناشئة التي أعلنت راية الجهاد على أعداء الإسلام.

أما النتائج التي ترتبت على هذه المعركة التي تعتبر من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ فهي كبيرة وعميقة الأثر على تاريخ العالم كله في تلك الحقبة التاريخية، فقد جعلت من دولة المماليك القوة الرئيسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي حتى الفتح العثماني، ولقد قوت هذه المعركة أيضاً من قوة المسلمين في آسيا كلها وأضعفت العناصر المسيحية، حتى أن المغول الذين بقوا في إيران والأقاليم الغربية

للإمبراطورية المغولية قد إعتنقوا الاسلام، كما عجلت هذه المعركة بالقضاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

كان لجنكيز خان أربعة أولاد حسب كبر السن جورجي، وجغتاي، وأوكيتاي، وطولوي، وفي أيام جنكيزخان كانت الحكومة في إقليم منغوليا، أما بعد وفاة جنكيزخان فقد تم نوع من التقسيم الإداري، فأصبح أوكيتاي خانا أعظم بالاضافة إلى إقليم منغوليا، أما جغتاي فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام ١٢٢٧م وفي سلالته التي إستمرت حتى عام ١٣٧٠م، وفيما يختص بإقليم فارس فقد آل إلى هولاکو بعد موت طولوي وذلك منذ عام ١٢٥٦م.

أما جورجي فقد حكم القبيلة الذهبية وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى اللون الذهبي الذي كان لون مخيماتها، وقد حكم بعده ولدان هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء وحكمت في جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق منذ عام ١٢٢٧م حتى ١٣٨٠م، والثاني هو أوردا الذي عرفت سلالته باسم القبيلة البيضاء واستمرت سلالته منذ ١٢٢٦ حتى عام ١٤٨١م وحكمت في سيبيريا وشرقي بلاد القفجاق.

وما يعنينا على هذه الصفحات في هذا الفصل خانات فارس، وهم فرع هولاکو وذلك لسببين، الأول هو قرب فارس إلى العالم الاسلامي العربي، وما كان لهذا الفرع من إتصالات سلمية وعسكرية مع دولة المماليك في مصر، والثاني هو محاولة أوربا التحالف مع هذا الفرع في بلاد فارس للقضاء على دولة المماليك وتمكين الصليبيين في بلاد الشام من السيطرة على منطقة الشرق الأدنى الاسلامي العربي.

مات هولاکو في مدينة أزربيجان في الثامن من فبراير عام ١٢٦٥م

بعد أن كان قوبيلاي قد منح هولاكو لقب خان في حكم إقليم فارس وعاصمته تبريز، وجعل له وسلالته الحكم وراثياً في هذا الإقليم، وما يهمننا في هذه الدراسة أن هولاكو توقف عن مهاجمة منطقة الشرق الأدنى الإسلامي بعد معركة عين جالوت، ويرجع ذلك إلى مشاكل هولاكو بسبب الوراثة في البيت المغولي، وبسبب مشاكله أيضاً مع مغول التركستان ومغول القبيلة الذهبية الذين إعتنقوا الإسلام، ولكنه رغم هذا كان يملك من القوة العسكرية التي أخافت الممالك من مهاجمة حلفائه من الأرمن، والصليبيين في أنطاكية، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ودولة الكرج (جورجيا)، ثم الإمبراطورية البيزنطية بعد ذلك، وكان هولاكو يرى أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية في غاية الأهمية، وذلك لإيجاد توازن في آسيا الصغرى بين الامبراطورية وسلطنه سلاجقة الروم، ولذلك أرسل هولاكو من عاصمته تبريز إلى الإمبراطورية يطالب بزوجة له، وقد وافق الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaologus (1258 - 1282م) وشرع في ارسال ابنه غير شرعية له هي ماريا - Maria . وتوفى هولاكو في الثامن من فبراير عام 1265، وجاءت وفاته في لحظة حرجة من تاريخ المغول، وكان لها أثراً كبيراً في إضعافهم، وقد نجحت زوجته طقز خاتون في الاحتفاظ بالعرش في إقليم فارس لابنتها أبغا Abaga ، وماتت بعد قليل طقزخاتون حامية المسيحية في كل الأراضي التي دخلها المغول فحزنوا عليها حزناً شديداً، وثار بعض القلاقل ضد أبغا من قبل بعض أمراء المغول، فلم يعد بوسعها أن يقوم بأي عمل عسكري في بلاد الشام في تلك المرحلة .

أبغا خان فارس (1265 - 1282م)

وإذا كان العالم المسيحي قد حزن على موت طقز خاتون، فانهم وجدوا في ماريا البيزنطية ما يعرضهم عن ذلك، فعندما وصلت ماريا إلى

البلاط المغولي في فارس كان هولاء قد مات، ولكنها تزوجت من ابنه أبغا، وبذلك حلت ماريا التي عرفت في البلاط المغولي بإسم ديسبينا خاتون Despina Khatun محل طقز خاتون، ووجدوا فيها حامياً جديداً للمسيحية، وقد أجلها المسيحيون والمغول واحترموها لما إشتهرت به من حب الخير والحكمة.

وقد شجع ذلك الغرب الأوربي وعلي رأسه الباباوية ، فأرسل البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥ - ١٢٦٨م) إلى أبغا يعرض عليه عقد محالفة عسكرية لمحاربة المماليك، ولكن أبغا كان مشغولاً بحروبه مع القبيلة الذهبية، ولذلك لم يقدم سوى وعوداً غامضة، كما إنشغل بحرب أخرى بعد قليل مع أبناء عمومته آل جغتاي الذين أغاروا على أملاكه الشرقية في عام ١٢٧٠م. وفي العام نفسه وبعد أن إنتهى من مشاكله مع أبناء عمومته وهزيمتهم، فكر أبغا في التحالف مع الملك لويس التاسع وتعهد بأن يقدم المساعدات العسكرية إذا وصل لويس بحملته إلى بلاد الشام، ولكنه لويس لم يتقدم إلى بلاد الشام بل وجه حملته إلى تونس حيث مات هناك ففشل هذا المشروع، وكان لويس قد إتفق مع الامير الأنجليزي إدوارد أن يتوجهها بحمله صليبية معا ، فلما مات لويس كان إدوارد موجوداً في صقلية، فأبحر إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا في التاسع من مايو ١٢٧٠م.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو محاولة تحالف إدوارد مع المغول لقتال المسلمين. وقد أرسل الأمير الانجليزي إلى أبغا سفارة مكونه من ريجنالد رسل Reginald Russel، وجود فرى ويليس Godfery Welles ، وحن باركر John Parker إلى الخان أبغا يطلب منه المساعدة لقتال المماليك، ولما كانت قوات أبغا مشغولة بالقتال في تركستان، فقد أرسل إليه في منتصف اكتوبر عام ١٢٧١م عشرة آلاف فارس سحبها من بلاد

الاناضول.

تقدمت القوات المغولية إلى مدينة عين تاب، ثم إلى حلب ففرت الحامية المملوكية إلى حماة، فتقدمت القوات المغولية في إثرهم حتى معرة النعمان وأفاميه، ولما أحست بقدم القوات المملوكية عادت من حيث أتت لأنها شعرت بقلّة قواتها أمام القوات المملوكية. ومن الملاحظ أن إدوارد لم يتقابل مع القوات المغولية، ولم يكن هناك أي تنسيق في العمليات العسكرية، وقد غادرت الحملة الانجليزية بلاد الشام بعدما قامت ببعض العمليات العسكرية البسيطة في ضواحي عكا، وبعد أن رتب إدوارد لعقد هدنة بين الصليبيين في عكا والظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) في القاهرة، ما لبثت أن تساقطت الممتلكات الصليبية واحدة بعد الأخرى.

وفي نهاية القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر قام المغول ببعض الغارات على بلاد الشام أحييت بها الأمل عند الغرب الأوروبي في إمكانية الاعتماد على المغول في القضاء على الدولة المملوكية، ففي عام ١٢٩٩م أغار على بلاد الشام خان فارس غازان محمود (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) الذي اعتنق الاسلام واستبدل لقبه بلقب السلطان بدلاً من لقب خان، وقد نجح غازان في هزيمة الحاميات المملوكية، عند حمص في نهاية عام ١٢٩٩م، ثم تقدم إلى مدينة دمشق في مطلع العام التالي ١٣٠٠م، فاعترفت المدينة بسيادته، ومن دمشق هدد غازان بفتح مصر ثم غادرها إلى عاصمته في فارس.

وتقدم غازان مرة أخرى إلى بلاد الشام في عام ١٣٠٣م ولكنه هزم في مرج الصفر فعاد بعدها إلى بلاده، وهدأ تهديده لمصر لبعض الوقت، ورغم أن غازان كان قد اعتنق الاسلام إلا أنه كان يبث عن حليف للقبضاء على القوات المملوكية، ولم يكن هناك سوى دول أوربا التي سبق

لها أن توسلت كثيراً إلى خانات المغول للتحالف ضد المماليك، ولكن الخانات كانوا يطلبون الخضوع لا التحالف، وبذلك ضاعت فرصة التحالف الأوربي لضرب العالم الاسلامي.

وإنقلبت الأوضاع وبدأ المغول يبحثون عن حليف في أوربا يتعاونون معه لضرب القوة المملوكية، ولذلك أغار أولجايتو خذا بنده محمد الذي أطلق عليه أبو الفدا اسم خريندا على بلاد الشام في عام ١٣٠٨م لجذب أنظار حكام أوربا، وتوغل حتى وصل إلى مدينة بيت المقدس. وترددت الشائعات بأن أولجايتو ينوي تسليم المدينة إلى دولة مسيحية تتحالف معه، ولم يحدث أن تقدمت دولة أوروبية لعقد هذا التحالف، رغم وجود إرهابات بقيام حملة صليبية دعا إليها البابا وملك فرنسا، وبعد سنوات قليلة مات خان فارس، فتضاءلت فرص التحالف الأوربي المغولي، وعندما تولى أبو سعيد بهادر السلطنة في فارس نزع إلى الوفاق مع مصر، وقد ظل أبو سعيد في السلطنة حتى عام ١٣٣٥م تفككت بعده الخانية وانقسمت إلى أسرات عديدة، ولم يعد هناك ما يهدد مصر، أو من يفكر في التحالف مع أوربا.

مغول القفجاق

سبق إن ذكرنا أن جورجي بن جنكيز خان حكم القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق، وفي عهد الخان برکه Berke بن جورجي (١٢٥٧ - ١٢٦٧م) انتشر الاسلام في بلاد القفجاق كأول قبيلة مغولية تعتنق الاسلام، وقد أدى هذا إلى ظهور العداء بين بقية القبائل المغولية وبين القفجاق، وقد ترتب على ذلك تقرب القفجاق إلى الدول الإسلامية المجاورة خاصة دولة المماليك، كما سعى أيضاً المماليك بدورهم للتقرب من خانات القفجاق خاصة أن الصراع ظل على أشده بين خانات فارس وبين المماليك في مصر. وتبودلت السفارات والرسائل بين الطرفين، ومن ذلك أن الخان برکه

أرسل في عام ١٢٦٣م سفارة إلى مصر حملت معها رسالة للسلطان بيبرس، وقد إمتلأت هذه الرسالة بالعبارات التي تفيد أن بركه متحمس للإسلام والمسلمين وأنه لا سبيل له إلا إعلاء كلمة الله. وقد أرسل بيبرس رسالة عبر فيها على انحيازه الكامل لقبيلة القفجاق وإحترامه الزائد للخان بركة،

ولم يقف بيبرس عند هذا الحد من المجاملة، بل أنه أمر بالدعاء للخان بركة - بعد الدعاء للسلطان المملوكي - على منابر البلدان الإسلامية المقدسة وهي مكة والمدينة والقدس بالإضافة إلى منابر القاهرة. واستمرت العلاقة بين الظاهر بيبرس والخان مانكو تيمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠م بقصد توحيد الجهود لمواجهة أخطار مغول فارس، ولم تنقطع هذه الصلات بعد بيبرس، فقد أرسل الناصر محمد بن قلاوون رسالة يساند فيها غياث الدين تغتو ١٢٩٠ - ١٣١٢م، ويعلن إستعداده لمحاربة غازان خان المغول في فارس. ويبدو أن مغول فارس قد تنبهوا لهذا الترابط الذي قام بين المماليك وخانات القفجاق، لأن أولجايتو خليفة غازان رضى بالصلح مع دولة المماليك، فخفت حدة التوتر بين مغول فارس وبين المماليك وبالتالي إلى حد ما مع مغول القفجاق.

ورغم هذا إستمر الترابط بين المماليك ومغول القفجاق، وفي عهد غياث الدين محمد أزيك (١٣١٢ - ١٣٤١م) أرسل الناصر محمد بن قلاوون في عام ١٣١٦م يطلب منه الزواج من إحدى أميرات القفجاق، وقد تأخر تنفيذ ذلك لبعض الوقت حتى كانت سنة ١٣٢٠م حتى وصلت العروس إلى ميناء الاسكندرية، وكانت تدعى طولونية، ويقال دلنبية. وفي السنوات التالية وخاصة في عهد جاني بك (١٣٤١ - ١٣٥٧م) كانت العلاقات مع سلاطين المماليك قائمة على التقدير والاحترام المتبادلين. ومع انحلال خانية فارس منذ عام ١٣٣٦م زال الخطر المشترك

بين القفجاق والماليك، ثم دخلت خانية القفجاق هي الأخرى في مرحلة من الانحلال بعد عام ١٣٥٧م ، كما إنشغل الماليك بقضايا أخرى، الأمر الذي أدى إلى إضعاف روابط الاتصال مع القفجاق .

تيمورلنك ١٣٦٩ - ١٤٠٤م

ولد في قرية خواجه إيلغار بالقرب من مدينة سمرقند في عام ١٣٣٦م، وعندما بلغ الثلاثة والثلاثين من عمره أصبح حاكما على إقليم تركستان الشرقية وإقليم ما وراء النهر، وهي المنطقة التي حكمها الخانات من فرع جغتاي بن جنكيزخان ، ومنذ تولى تيمورلنك السلطة شن حربًا واسعة على بلاد فارس ثم على بغداد، وعلى بلاد روسيا حيث توجد القبيلة الذهبية، وعلى شرق بلاد الأناضول حيث أملاك الدولة العثمانية، وفي نهاية القرن الرابع عشر ومطلع الخامس عشر الميلادي تقدم إلى بلاد الشام حيث حلب ودمشق وغيرها .

وترجع إنتصارات تيمورلنك في كل هذه الأقاليم إلى حروبه التي كانت شديدة الوطأة لا تعرف الرحمة، مما أدخل في الأذهان عصر خانات المغول الأوائل. ويلاحظ على فتوحات تيمورلنك في بدايتها أنها كانت بطيئة ومتأنية ولكنها كانت فتوحات مدروسة مكن فيها تيمورلنك لنفسه ولدولته في الإقليم الذي حكمه، وقد ظلت حروب تيمورلنك منذ عام ١٨٣١م وحتى وفاته عام ١٤٠٤م. وكانت بداية عمليات تيمورلنك الرئيسية ضد خانات المغول في فارس ،لأن بلاد فارس قد تمزقت إلى عدة دول في عام ١٣٣٦م بعد الخان موسى، ولعل هذا ما أغرى أو شجع تيمورلنك على غزو هذه النواحي، وقد نجح في ١٣٨٦ من الاستيلاء على تبريز وتفليس. وظل يتربص الأوضاع في بغداد حتى إستولى عليها عام ١٣٩٢م.

وبعد هذه المرحلة تطلع تيمور لنك إلى قتال القبيلة الذهبية في روسيا، وتقدم بعدة حملات متلاحقة حتى وصل إلى مدينة موسكو. وفي سنة ١٣٩٥م إتجهت القوات المغولية إلى بلاد الأناضول فخضعت له مدينتي أرزنجان وسيواس وغيرهما، وبعد ثلاث سنوات كانت حملات تيمور لنك على شمال بلاد الهند في عام ١٣٩٨م وتميزت حملاته على الهند بقسوة لم تعهدها البلاد التي فتحها من قبل. وكان لذلك أثره على سكان البلاد التي فتحها بعد ذلك .

وبدأت الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام بقيادة تيمورلنك في عام ١٤٠٠م، وكانت وجهته مدينة حلب التي قاومت ببسالة، ولكنها سقطت في النهاية، ودخلتها القوات المغولية وإستباحتها لمدة ثلاثة أيام، وبلغ عدد القتلى من أهالي المدينة حوالي عشرين ألفاً، وقد قطعت بعض رؤوسهم في كومة قطرهما عشرين ذراعاً وارتفاعاً عشر أذرع. كما دمر المغول مدارسها ومساجدها التي أسسها البيت الزنكي والبيت الأيوبي والماليك.

وحاول السلطان المملوكي فرج بن برقرق (١٣٩٩ - ١٤١٢م) أثناء حكمه في المرة الأولى أن يتصدى للجيش المغولي ولكن القوات المغولية أبادت الطلائع التي أرسلها لمقاومتها، فأصبح الطريق مفتوحاً أمام تيمور لنك إلى دمشق. وقد صمدت المدينة حوالي شهر، ثم استسلمت المدينة بعد ذلك، ويقول ابن تغرى بردي إن تيمور لنك لم يحترم شروط التسليم التي قرأت على منبر جامع دمشق، فقد جمع من سكان المدينة حوالي ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال - دون تفرقة بين الجنس أو العمر - في جامع المدينة ثم أمر بإضرام النار في المسجد، فلم يبق منه شيئاً سوى بعض الجدران.

كما نقل تيمور لنك جميع العلماء والحرفيين المهرة إلى عاصمته

سمرقند، ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها استمرت تسعة عشر يوماً بعدها أشعلت النار في المنازل والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وظلت النار مشتعلة ثلاثة أيام بليالها، حتى ثارت دمشق أطلالاً باليه، وما كاد يفرغ من دمشق حتى إتجه إلى بغداد في العام التالي (١٤٠١م) لينزل بها العقاب بسبب ثورة قامت فيها، وحل ببغداد ما حل بدمشق.

ودارت الدائرة بعد بلاد الشام على آسيا الصغرى حيث كانت الدولة العثمانية، وترجع بداية هذه الأحداث إلى أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٩ - ١٤٠٢م كان قد إستولى على أراضي بعض أمراء الأتراك السلاجقة، وقد لجأ هؤلاء إلى تيمور لنك لحمايتهم، وقد أرسل تيمور لنك في مطلع عام ١٤٠٢م إلى السلطان بايزيد يأمره بإعادة كل المدن والأراضي التي استولى عليها إلى أصحابها. وقد رفض السلطان بايزيد طلب تيمور لنك ورد عليه بإجابة قاسية، وكان ذلك يعني الحرب. وتقدم تيمور لنك إلى مدينة أنقره، فوجد بالقرب منها جيوش بايزيد وكانوا حوالي مائه وعشرين ألفاً، وفي صباح الثامن والعشرين من يوليو دارت معركة بين الطرفين تصدى لها من جانب الدولة العثمانية الجنود الصرب بقيادة ستيفان لازاروفيتش Stephan Lazarovic، ولكن بايزيد أمرهم بالانسحاب حتى لا تحاصرهم القوات المغولية، فتقدم المغول حتى بلغوا الصفوف التركية، فألقى الأتراك السلاجقة سلاحهم ورفضوا القتال ضد أمراءهم المغول السابقين، وثبت بايزيد في المعركة حتى المساء، ثم حاول الفرار تحت ظلام الليل، ولكنه وقع في الأسر هو وإبنه موسى وبعض القادة.

ولزيد من السخرية والاهانة للسلطان بايزيد وضعه تيمور لنك في

قفص من حديد وطاف به البلاد، ثم ما لبث أن توفى بايزيد في الأسر في الثامن من مارس ١٤٠٢م فسمح تيمورلنك بدفنه في مدينة بروسه. وقد ترتب على غزو تيمورلنك للبلاد العثمانية، عودة الأمراء السلاجقة إلى إماراتهم، كما أبقى تيمورلنك إقليم تراقية في أوروبا في يد ابن بايزيد تحت السيادة المغولية، وبعد أن نهب المغول جميع مدن آسيا الصغرى عادوا إلى بلادهم، ثم ما لبث أن مات تيمورلنك في التاسع عشر من فبراير عام ١٤٠٤م، وهو الشهر نفسه الذي مات فيه هولاكو عام ١٢٥٦م.

وبعد موته استرد المماليك سوريا، وظهرت في أذربيجان أسرة الشاه السوداء التي أقامت دولة إمتدت من شرقي آسيا الصغرى حتى بغداد. كما ظهرت انتفاضات قومية في بلاد فارس ظهرت على إثرها الدولة الصفوية، وظلت سلالة تيمورلنك تحكم في إقليم ما وراء النهر طوال القرن الخامس عشر، كما استطاعت سلالته إقامة دولة في الهند عرفت باسم إمبراطورية المغل في دلهي إستمرت لفترة طويلة.

الطرق التجارية زمن المغول:

كانت التجارة قبل الفتوحات المغولية تمر عبر الطريق الذي كان يعرف باسم طريق الحرير، وكان هذا الطريق يبدأ من الصين ثم إلى التبت وإلى شمال بحر آرال، ثم إلى جنوب بحر قزوين وإلى طهران وبغداد ودمشق، ومنها إلى ثلاث شعب هي الطريق إلى بيسروت، والطريق إلى صور، والثالثة إلى انطاكية، ومن هذه المدن إلى موانئ البحر المتوسط في أوروبا وإفريقيا.

ولكن هذا الطريق قد تأثر في بداية فتوحات المغول، وبعد أن هدأت الاحوال وأصبح للمغول إمبراطورية واسعة، بدأ المغول في تشجيع التجارة

على أن يرتادوا الطريق البرى القديم القادم من الصين ويجتاز تركستان ثم إلى شمال بحر قزوين إلى مواني البحر الأسود ، أما الطريق الآخر فقد بدأ من الصين ثم الى بلاد فارس ثم إلى سواحل البحر الأسود الجنوبية مثل طرابيزون أو إلى مدينة إياس الواقعة في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى . وقد شجع التجار على إعادة إستخدام مثل هذه الطرق ، ما فرضه المغول من الأمن والنظام حتى أصبح الطريق البرى أفضل من طريق البحر الطويل لمروره بالهند ، وما به من أخطار وكوارث طبيعية . كما ترتب على سيطرة المغول على بلاد العراق أن جانباً من تجارة الشرق الأقصى وصلت إلى بغداد عبر الخليج ومنها إلى دمشق أو حلب ثم المدن الساحلية الشامية التي كانت في أيدي الفرنج الصليبيين لبعض الوقت ، ومنها إلى مدن البحر المتوسط مثل مدينة إياس .

واشتد تنافس مدن البحر المتوسط مثل البندقية وجنوة ثم لحقت بهما بيزا . وقد سيطرت البندقية في أول الأمر على البحر الأسود بعدما ساعدت الصليبيين في إقتحام القسطنطينية عام ١٢٠٤م ، ولما إستعاد البيرنطيون عاصمتهم في عام ١٢٦١م بمساعدة الجنويين تراجع نفوذ البنادقة التجاري من البحر الأسود ، واحتكرت جنوة تجارة الرقيق القادمة من سهوب روسيا إلى مصر والشام . أما البنادقة فقد تقربوا إلى الأرمن الذين تحالفوا مع المغول ، وبذلك سمح للبنادقة أن يشاركوا في تجارة المغول القادمة إلى مدينة إياس . وفي سواحل بلاد الشام حيث كان الصليبيون . فقد سيطر البنادقة على التجارة في عكا ، كما سيطرت جنوة على التجارة في مدينة صور وإن كانت أقل من تجارة عكا . وعندما تطورت مدينة إياس بفضل التجارة المغولية ضعفت مواني الساحل الشامي الصليبية . ورغم ما قام بين المغول والمماليك من حروب بعد

سقوط الإمارات الصليبية فإن ذلك لم يعرقل مسيرة التجارة كثيراً ، فتقدمت القوافل من بلاد فارس إلى العراق ثم إلى سواحل بلاد الشام ، وطبقاً للقاعدة الاقتصادية بأن رأس المال جبان ، فمما لا شك فيه أن الحروب تؤثر بشكل أو بآخر على سير الحركة التجارية ، وكما هو معروف أيضاً أن التجارة سارت وراء الصليب في العصور الوسطى ، فإن الصليب سار وراء التجارة مع الكشوف الجغرافية .

ومن العوامل التي ساعدت على سهولة العمليات التجارية داخل الامبراطورية المغولية قيام الخان الاعظم بانشاء دار لسلك النقود بالعملة الورقيه ، والحقيقه أن النقود الورقيه كانت مستخدمة في بلاد الصين ، وقد قام الخان الاعظم أوكيتاي في عام ١٢٣٤ م بتقليد ما كان سائداً في بلاد الصين ، وإن مقر دار سلك النقود هذه كان في مدينة كانبالا . ولصناعة هذه العملة الورقيه كان الخان يأمر بنزع لحاء اشجار التوت ، ثم تأخذ منها القشرة الداخلية الرقيقه التي تقع بين اليابس وخشب الشجرة ، ثم تنقع هذه القشرة وتذق في هاون حتى تتحول الى عجينه يصنع منها الورق الذي يماثل في مادته الورق التي يصنع من القطن .

وبعد ما يصبح الورق معدا للاستعمال يتم قطعه الى أحجام مختلفه شبه مربعه ، وكان لكل حجم قيمه ثابتة لعملة أخرى أجنبية . وتعطى هذه العملة الورقيه شرعيتها ببعض الاشكال والرسوم ، ويتولى بعض الموظفين المختصين وضع اسمائهم واختامهم على هذه العملة . فاذا صدرت هذه العملة علي الطريقه السابقه يتولى كبير الموظفين المفوض من الخان الاعظم بختمها بالخاتم الملكي الموجود في حيازته ، وعلي هذه الصورة تكون العملة السورقيه أصبحت معدة للتداول .

وكان يعد تزوير هذه العملة جريمة عقوبتها الاعدام ، وعلى ذلك لا

يجرؤ إنسان على القيام بمثل هذه العمل والا عرض حياته للموت ، وكان يسجل على كل عملة عبارة « كل من زور سوف تقطع رأسه » وكان يتم تداول هذه العملة داخل الامبراطورية وخارجها وتتقبلها الرعايا والاجانب دون تردد.

وكان الخان الاعظم يضع ثمن لكل سلعه وارده من الخارج ، فعندما تصل القوافل الضخمة يقوم الخان باستدعاء جماعه من ذوى الخبرة فيأمرهم بفحص السلع بكل عناية ، ثم يضعون ثمنا لكل سلعه، ثم يسمح بهامش ربح معقول يضاف الى ثمن السلعه . ثم يدفع للتجار الثمن على الفور بالعمله الورقيه دون أى إعتراض من التجار ، واذا كان هؤلاء التجار من اقليم لا يتعامل بهذه العملة الورقيه ، فانهم يستثمرون المبلغ فى شراء سلع تجارية أخرى تناسب اسواقهم، وعندما يتصادف أن يمتلك شخصا نقودا ورقيه بليت من طوال الاستعمال ،فانه يحملها الى دار سلك النقود فيسلمها ويحصل على أوراق جديدة بدلا منها بعد خصم ٣ ٪ من القيمة .

واذا أراد أى فرد الحصول على الذهب أو الفضة بقصد تصنيعها كؤوسا للشراب أو أحزمه أو غير ذلك وجب عليه التقدم بطلبه الى دار سلك النقود ،حيث يحصل على ما يريد مقابل ما معه من عملة ورقيه، وكانت أعطيات الجند تصرف بهذه العملة الورقيه أيضا التى تعد عندهم على نفس قيمة الذهب أو الفضة .

الفصل الثاني
أوربا زمن المغول

إنجلترا
فرنسا
ألمانيا
البابوية

الفصل الثاني أوربا زمن المغول

أولاً : إنجلترا :

وفي الوقت الذي ظهر فيه المغول على الساحة الآسيوية والأوربية كانت أوربا الغربية قد وصلت إلى مرحلة من الإستقرار النسبي مكنتها من أن تكون لها مكانتها العالمية خاصة بعدما لعبت دوراً كبيراً في الحروب الصليبية، ومن الدول التي كانت لها قوتها السياسية والعسكرية إنجلترا وفرنسا وألمانيا، والدول الإسبانية والبرتغالية التي لعبت دوراً كبيراً في حركة الاسترداد في الأندلس، هذا فضلاً عن الباباوية التي مكنتها سلطتها الروحية من فرض كلمتها لبعض الوقت على ملوك وحكام أوربا. وفيما يتعلق بإنجلترا، فيمكن البدء بعهد الملك ريتشارد الأول قلب الأسد . وهناك ملاحظة هامة يجب الإشارة إليها قبل الخوض في تاريخ إنجلترا - وهي أن الجزيرة البريطانية تتكون من ثلاثة أقسام كبار هي إنجلترا وويلز واسكتلندا وهو ما يعرف اليوم باسم المملكة المتحدة إذا أضفنا إليها الجزء الأيرلندي. ولذلك فإنه عندما نتحدث في العصور الوسطى عن إنجلترا فإننا نقصد به على هذه الصفحات الأجزاء الجنوبية والشرقية من الجزيرة البريطانية ولا يدخل فيها ويلز أو أسكتلندا، مع عدم الإلتزام بالحدود الإدارية المعروفة الآن.

ريتشارد الأول ١١٨٩ - ١١٩٩ م

تولى ريتشارد الأول حكم إنجلترا بعد أبيه، ويعرف باسم ريتشارد قلب الأسد Richard I The Lion-Heart ، وقد ولد في إكسفورد عام ١١٥٧م، وعاش أكثر عمره في مقاطعة اكويتين Aquitaine ليصرف شئون المقاطعة بدلاً من أمه الينانور Eleanor . وكان لتواجده في إقليم

إكوتين أثراً كبيراً على ثقافته، فلم يعد إنجليزية، وتأثر بالثقافة الفرنسية الجنوبية خاصة الشعر والغناء وحب المغامرات، وعندما تولى حكم إنجلترا اضطر للعمل بالسياسة وهو عنها بعيد.

وإنشغل منذ توليه عرش إنجلترا بالإستعداد للقيام بحملة صليبية وهي الحملة المعروفة بالثالثة، وانضم فيها فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا، ومن أجل هذه الحرب اضطر للمال ولم يكفيه ما تركه والده، ولكي يحصل على الأموال فصل عدداً كبيراً من موظفي الدولة ثم أعاد تعيينهم مقابل بعض الأموال، ومنح براءة قيام بعض المدن من أجل المال أيضاً، وحصل على مبلغ هزيل من أجل الاعتراف باستقلال إسكتلندا، وصادر بعض السفن التي كانت راسيه على شواطئ إنجلترا ليستخدمها في نقل قواته إلى سواحل الشام.

وفي طريقه إلى الأراضي المقدسة عبر البحر المتوسط مع فيليب أوغسطس إستولى على جزيرة قبرص عام ١١٩١م ثم باعها لفرسان الداوية Templers، ولما فشلت الصفقة مع الداوية باعها إلى جاي لوزيجيان Guy Lusignan المطالب بعرض مملكة بيت المقدس الصليبية، وحارب ريتشارد صلاح الدين، وفشل الملك الانجليزي في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، وعقد مع صلاح الدين صلح الرملة عام ١١٩٢م، وعاد إلى بلاده مقنعاً بأن الطريق إلى بيت المقدس يمر عبر القاهرة وأن الاستيلاء على بيت المقدس لا يتم إلا بعد ضرب القوى الاسلامية في مصر.

وبعدما أبحر ريتشارد من الساحل الشامي في التاسع من أكتوبر ١١٩٢م فاجأته عاصفة دفعت بسفينته إلى جزيرة كورفو Corvu البيزنطية، وخاف أن يأسره الامبراطور البيزنطي إسحق إنجليوس Isaac Angelus (١١٨١ - ١١٩٥م)، فإستقل قارباً إلى البحر الأدرياتيكي

ومنه إلى مدينة أكويليا Aquileia ، ثم أسرع ليصل إلى ألمانيا حيث يوجد زوج أخته ما تيلدا ، هنرى الأسد ولكنه وقع في يد ليوبولد دوق النمسا Leopold of Austria فأسره، لأن ريتشارد مزق أعلام ليوبولد في عكا، كما إتهمه بقتل كونراد أف مونتفرات Con-rad of Monferrat ثم سلمه ليوبولد بعد ثلاثة أشهر إلى هنرى السادس امبراطور ألمانيا.

ظل ريتشارد سجيناً لدى هنرى رغم مخالفة ذلك لقوانين الحروب الصليبية ، وطالب هنرى بالفدية لإطلاق سراحه، وظل في الأسر حوالي سنة عجزت فيها إنجلترا عن جمع الفدية اللازمة لإطلاق سراح ريتشارد، وفي هذه الأثناء حاول أخوه يوحنا إغتصاب العرش، ولكن الأم اليانورساندت حقوق ريتشارد ففر يوحنا إلى فرنسا وانضم إلى فيليب أوغسطس في الهجوم على إنجلترا، ولما فشل فيليب في النيل من إنجلترا غزا نورماندى وراسل هنرى السادس لبقى على ريتشارد أسيراً.

وفي مارس ١١٩٤م أطلق سراح ريتشارد فعاد إلى إنجلترا ليستعد لمحاربة فيليب ، ونجح ريتشارد في إستعادة أملاكه بعد حرب دامت خمس سنوات على أراضي القارة الأوروبية. وفي السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م مات ريتشارد في مدينة ليموزين Limousin بسهم إنطلق من قلعة أحد الإقطاعيين الذين تصارع معهم ريتشارد.

يوحنا ١١٩٩ - ١٢١٦م

تولى يوحنا بعد أخيه ريتشارد، وعند تتويجه إضطره رئيس أساقفه كانتربوري هيوبرت والتر Huber Twalter أن يقسم بأنه تولى عرشه بالانتخاب من قبل النبلاء ورجال الدين وليس وراثه من أخيه، ويتضح من تاريخ يوحنا أنه لم يتلزم بهذا القسم، وكانت حياة يوحنا عاصفة مع نبلائه

والباباوية وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، ورغم ذلك فإن سياسته لم تكن خاطئة على الدوام . وفي العام الذي تولى فيه يوحنا عرش إنجلترا طلق زوجته إيزابيلا إيف جلوستر Isable of Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة وتزوج من إيزابيلا أف انجوليم Isablele of Angouleme . وقد جرت عليه هذه الزيجة متاعب متعددة، لأن زوجته الثانية كانت مخطوبة إلى لوزجان Lusinan كونت لامارش La Marche . وقد غضب الأشراف في إنجلترا وفي بواتو Poitou لهذا العمل، كما إحتج البارونات النورمانديون في أنجوميين - واشتكى هؤلاء إلى فيليب أوغسطس بإعتبار أن نورماندي إقطاعية تابعة للتاج الفرنسي - وأن يوحنا بإعتباره مالكا لإقليم نورماندى يعتبر تابعا للملك فرنسا .

تجدد العداء القديم بين إنجلترا وفرنسا في هذه المرحلة ، ووجد فيليب في هذه القضية فرصة لإذلال يوحنا، وأرسل فيليب إلى يوحنا بإعتباره تابعا له وأمره بالحضور إلى القصر الملكي في باريس ليدافع عن نفسه ، ومن الطبيعي ألا يحضر يوحنا وكان هذا متوقعا ، فانعقدت المحكمة الإقطاعية الفرنسية ومنحت آرثر Arther كونت بريتاني - وهو حفيد هنرى الثاني - نورماندى، وأنجو وبواتو ، وتشجع آرثر وطالب بعرش إنجلترا، وساعده فيليب بالمال والرجال لتحقيق ذلك .

تقدم آرثر لمهاجمة نورماندى وحاصر اليانور والده يوحنا في قلعة ميرابو Mirabeau وقادت الملكة الأم القوات للدفاع عن حقوق ابنها ، وأسرع يوحنا إليها وهزم آرثر وقبض عليه وسجنه في قلعة فاليس Falaise ولم يسمع عن آرثر بعد ذلك، ويبدو أن يوحنا أمر بقتله .

إنتهز فيليب هذه الفرصة وتقدم لغزو نورماندى وكان الموقف في صالحه، فقد كان يوحنا يفتقر إلى المال ووسائل الدفاع فهزمه فيليب وهرب

يوحنا إلى إنجلترا، وضم فيليب إلى فرنسا جميع الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوروبية وهي نورماندى، ومين، وأنجنو، وتورين في عام ١٢٠٥م وأقسم إقطاعيوها يمين الولاء للملك فيليب .

ولما كان البابا أنوسنت الثالث على خلاف مع فيليب أوغسطس فقد حاول مساعدة يوحنا قدر المستطاع، ولكن يوحنا لم يمنح البابا الفرصة لمساعدته، فقد إختلف الاثنان في العام نفسه بسبب الخلاف على تعيين رئيس أساقفة كانتربوري. ويرجع هذا الخلاف إلى موت هيوبرت والتر عام ١٢٠٥، وكان الملك يوحنا يرى تعيين الأسقف يوحنا دي جراى Jhon de Gray، ولكن بعض الرهبان الشبان في كاتدرائية كانتربوري إختاروا نائب رئيس ديرهم وهو ريجنالد Reginald.

إتجه المرشحان إلى روما يطلب كل منهما تأييد البابا أنوسنت الثالث، ولكن البابا إعترض على المرشحين وعين ستيفن لانجتون-Stephen Langton وهو كاردينال إنجلترا وأستاذ سابق للاهوت في جامعة باريس . اعترض يوحنا على هذا الاجراء، ولم يعبأ البابا ونصب ستيفن لانجتون كرئيس لأساقفه كانتربوري عام ١٢٠٧م، وتمسك يوحنا بموقفه وهدد وتوعد وأنذر الرهبان، وأصدر أوامره بعدم دخول ستيفن لانجتون الاراضي الإنجليزية وأعلن تحديه للبابا. رد البابا على هذا الاجراء بانزال قرار الحرمان على الملك وقرار القطع على إنجلترا في عام ١٢٠٨م وظل القراران حتى عام ١٢١٣م .

وخلال هذه المرحلة كان الملك يصادر أملاك الكنيسة، لذلك سانه النبلاء لأن إنشغال الملك بالصراع مع رجال الدين يشغله إلى حد ما عن الصراع مع النبلاء، ونجح يوحنا في هذه المرحلة في الانتصار عسكرياً في حروبه مع إيرلندا، واسكتلندا، وويلز. وقد شجع كل هذا يوحنا على

التمادى في سياسته المتشددة، فعندما إحتاج إلى المال زج باليهود في السجن وصادر أموالهم ولم يرحم رجال الدين من السجن أيضاً، وتركهم حتى ماتوا في سجنهم، كما زاد من الضرائب التي أرهقت الأهالى.

ولما يتس البابا أنوسنت الثالث أصدر مرسوماً في عام ١٢١٢م بخلع الملك يوحنا من العرش الإنجليزي، وحل رجاله من القسم الذي أدوه له، وأعلن أن الأملاك الانجليزية حقاً لكل من يتمكن من الاستيلاء عليها. وحانت الفرصة للملك الفرنسي فيليب اوغسطس فإستعد لغزو إنجلترا. وعلم يوحنا بهذا الاستعداد فدعا رجاله للحرب، ولكن رجاله لم يمدوا له يد المساعدة خوفاً من عقوبات البابا. وأحس يوحنا بالخطر، وكان لابد من التراجع حتى يفوت الفرصة علي الجميع فعقد إتفاقاً مع المبعوث البابوي باندولف Pandulf، ويقضى هذا الإتفاق بأن يرد الملك يوحنا جميع أملاك الكنيسة وأن يضع إنجلترا بأكملها تحت السيادة الباباوية الاقطاعية إذا ألغى البابا قرار الحرمان وقرار القطع. وإتفق الطرفان على ذلك وسلم يوحنا إنجلترا إلى البابا عام ١٢١٣م - ويعتبر هذا الإستسلام الأول للملك يوحنا - ثم إستعادها بعد بضعة أيام بوصفها إقطاعاً، وعلى الملك أن يؤدي الجزية عن إنجلترا للباباوية.

ويعد أن سوى يوحنا مشكلته مع الباباوية إستعد لمحاربة فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وتحالف مع أوتو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا ١٢٠٨ - ١٢١٥م، ولكن بارونات إنجلترا تخلفوا عن المشاركة في هذه الحرب، ورغم ذلك عبر يوحنا القناة الإنجليزية بما لديه من رجال ووصل إلى أنجو في الوقت الذي سار فيه أوتو إلى باريس، وفي يوليو عام ١٢١٤م هزم أوتو في موقعه بوفين Bouvines في إقليم فلاندرز، وترتب على هذه الهزيمة نتائج هامة جداً في تاريخ أوروبا خاصة في ألمانيا

وانجلترا. ففي ألمانيا إهتز عرش أوتو وفتح المجال أمام فريديريك الثاني ليتولى عرش ألمانيا. أما في إنجلترا فقد إضطر يوحنا إلى عقد الهدنة بعد هزيمة ألمانيا وتخلي باروناته عنه. وبموجب هذا الصلح تنازل يوحنا عن إقليم بواتو. أما فرنسا فقد أصبحت القوة الوحيدة على القارة الأوربية.

ولم يكن يوحنا جاداً في طلب الهدنة إنما عقدها لكسب الوقت، فلما عاد إلى إنجلترا بعد عقد الهدنة بدأ يعد جيشاً لمحاربة فيليب، ولكن الأشراف والنبلاء رفضوا مرة أخرى الإنضمام إلى الجيش واعترضوا على الضرائب التي يجمعها الملك للدخول في حروب لا فائدة منها، وذكروا الملك أيضاً بسياسته الخاطئة التي أدت إلى تسليم إنجلترا للباباوية، ولم يكن لدى الملك وسيلة غير التفاوض.

عرض يوحنا على الأمراء أن يؤدوا مبلغاً من المال بدلاً من الخدمة العسكرية، ولكن الأمراء تجاهلوا هذا المطلب وطالبوا الملك بالإلتزام بالقوانين التي وضعها الملك هنري الأول والتي تحدد حقوق الأشراف وسلطات الملك. وماطل يوحنا في الرد، فظن الأمراء أنه يستعد لمحاربتهم فجمعوا قواتهم، وحتى يكسب الملك يوحنا تأييد البابا ورجال الدين أعلن بعض الامتيازات لرجال الدين، وأعلن أنه سيحمل الصليب ويقود حملة صليبية إلى الشرق لاستعادة بيت المقدس.

ولم يغير هذا مجرى الأحداث، فقد إجتمع في أبريل عام ١٢١٥م في مدينة براكلي Brackley خمسة من الإيرلات وأربعون من البارونات وقدموا قائمة بمطالبهم للملك، وأرسل الملك إلى المجتمعين وليم لامارش بالإضافة إلى ستيفن لانجتون بهدف إخضاعهم لسلطان الملك، ولكن المجتمعين رفضوا وأعلنوا في مايو من العام نفسه الحرب على الملك ونجحوا في غزو لندن بعدما إستمالوا مواطنيها، وطلب الملك من ستيفن لانجتون رئيس

أساقفه كانتربروري إنزال قرار الحرمان على المتمردين ولكن ستيفن رفض إصدار مثل هذا القرار.

تحرك يوحنا بقواته من إكسفورد إلى وندسور Windsor وتحرك البارونات من لندن وعقدوا إجتماعاً في رونيميد Runnymede من الثامن حتى الرابع عشر من يونيو ١٢١٥م، وتولى أمر الوساطة بين الملك والبارونات ستيفن لانجتون ووليم لامارش، وظلت المباحثات بين الطرفين، حتى إنتهت بالوثيقة المعروفة بالعهد الأعظم Magna Carta ، وهي الوثيقة التي صيغت عباراتها خلال عدة أيام، ووقعها الملك يوحنا في الخامس عشر من يونيو عام ١٢١٥م. ولعب ستيفن لانجتون ووليم لامارش دوراً كبيراً في صياغة بنودها. ويعتبر العهد الأعظم أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزي بأكمله وبه إستسلم يوحنا الاستسلام الثاني. والعهد الأعظم يتكون من اثنتين وستين مادة بخلاف الديباجة وقد ورد بها.

تحية من يوحنا المتوج ملكاً على إنجلترا بعناية الله تعالى، وسيد إيرلندا، ودوق نورماندى واكويتين وكونت انجو، إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والإيرلات والبارونات .. وجميع رعاياه المخلصين ... وبارادة الله ومن أجل خلاص جميع أرواحنا وأرواح خلفائنا ... وتلى ذلك البنود الخاصة بالعهد الأعظم، ونكتفى في هذا الموضع بإلقاء الضوء على بعض بنوده، فقد ورد في البند الأول أن تكون الكنيسة حرة لا يتعدى أحد على شيء من حقوقها وحرياتها، وفي البند الثاني «إننا نمنح جميع الأحرار في مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحريات المدونة فيما بعد » .

مادة ١٢ : لا يفرض بدل خدمة أو معونة ... إلا المجلس العام في المملكة.

مادة ١٤ : وهي مرحلة إنتقال حتى يتم تشكيل المجلس العام، وقد ورد بها، حتى يجتمع المجلس العام الذي يتولى تقدير المعونات وبدل الخدمات .. نأمر باستدعاء كبار الأساقفة، والأساقفه ، ورؤساء الأديرة والإيرلات وكبار البارونات في البلاد وغيرهم ممن هم تحت رئاستنا بعقد إجتماع يحدد له موعداً ثابتاً دورياً كل أربعين يوماً على الأقل، ويحدد مكانه أيضاً.

مادة ١٥ : لن نسمح من الآن فصاعداً لكائن من كان أن يأخذ معونة من رجالنا الأحرار إلا إذا كان ذلك بسبب الفداء، أو تنصيب الإبن الأكبر فارساً، أو زواج إبنته الكبرى لأول مرة، ويشترط أن تكون المعونة في مثل هذه الحالات معونة مقبولة.

ولما كانت الشكاوى تعرض من قبل على محكمة الملك، ولما كانت محكمة الملك تتبعه أينما كان، فقد ورد في المادة السابعة عشر ما نصه: «لن تعرض الشكاوي العادية على محكمتنا، بل ينظر فيها في مكان محدد».

وفي المادة السادسة والثلاثين، ورد مبدأ في غاية الأهمية ويعتبر ثورة على النظم السائدة، وهو يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة. وفي التاسعة والثلاثين، تقرر الا يقبض على أي رجل حر أو يسجن أو تنزع ملكيته أو يخرج عن حماية القانون أو ينفى، أو يؤذى بأى نوع من الايذاء، إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه المساوين له في المدينة، أو بمقتضى قانون البلاد.

وتعرضت المادة الحادية والأربعون لحرية التجارة، فقد نصت على تمتع جميع التجار بحق الدخول إلى انجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً وبحراً سالمين مؤمنين للشراء والبيع، دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة.

وورد في المادة الستين، أن كل الحريات السالفة الذكر يجب أن يراعيها أهل إنجلترا كلهم سواء رجال الدين أم غيرهم.

وإذا إكتفينا في هذا الموضوع ببعض البنود الواردة في العهد الأعظم، إلا أنه يمكن القول أن هذا العهد كان أساس الحريات التي تمتعت بها إنجلترا ولا زال كذلك، وواقع الأمر أن العهد الاعظم جدير بهذه الشهرة. والحقيقة أن هناك بعض القصور في نصوص العهد الأعظم، ولكن علينا أن ننظر إليه في عصره وما كان هناك من أنظمة ولا تقارنه بما نحن فيه الآن، وإذا كان العهد الاعظم بدا وكأنه إنتصاراً للاقطاع لا للديمقراطية، إلا أنه نص على الحقوق الأساسية وحماها وزاد عليها بعد ذلك، وهو الذي بدل الملكية المستبدة، إلى ملكية دستورية مقيدة.

لقد وقع يوحنا العهد الأعظم وهو مرغم، دون أن يدري إنه خلد إسمه في التاريخ بالنزول عن سلطاته الاستبدادية، وأنه الذي جعل من إنجلترا دولة تفخر بأنها أمًا للديمقراطية. وعز على يوحنا هذا التنازل وأنه يعتبر بالنسبة لعصره ضعيفاً لا قوياً، لذلك حاول إلغاء العهد الأعظم وسانده البابا في هذه المرحلة، فأعلن الملك والبابا ان العهد باطل، ورفض الامراء إطاعه أوامر الملك والبابا، فأصدر الاخير قرار الحرمان عليهم، ولكن ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربري صانع هذا العهد رفض نشر قرار الحرمان.

تأزم الموقف بين البابا وستيفن لانجتون، وقام مبعوثو البابا في إنجلترا، بإذاعة قرار البابا ووقف ستيفن عن العمل، فاستنجد نبلاء إنجلترا بالملك فيليب أوغسطس الذي كان على خلاف مع البابا في هذه المرحلة، وهب فيليب لمساعدة النبلاء خاصة أنه كان يرى أن ملك إنجلترا ليس إلا تابعاً له. أرسل فيليب ابنه لويس لمساعدة النبلاء وليتولى في حالة نجاحه عرش

إنجلترا، ولما كان البابا لا يوافق على مثل هذا العمل فقد حذر على لسان مبعوثيه الأمير لويس من الإبحار إلى إنجلترا، وفي الوقت نفسه قام يوحنا بضرب النبلاء في كل مكان واشتد في معاقبتهم، ولكنه مرض فجأة على أثر تناول كمية كبيرة من الدراق (الخوخ) ومات على أثر هذا المرض في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٢١٦م.

هنري الثالث ١٢١٦ - ١٢٧٢م

تغير الموقف تماماً بعد وفاة الملك يوحنا، فقد مال الأشراف إلى الملك المرتقب وإنفضوا من حول لويس وطالبوه بالعودة إلى فرنسا، وتوج هنري الثالث ابن الملك المتوفى ملكاً على إنجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م)، ولما كان هنري الثالث في السادسة من عمره فقد وضع تحت وصاية وليم لامارش إيرل بمبروك Pembroke، وقد قام هذا الوصي بإعادة إصدار العهد الأعظم باسم الملك الجديد فهدأت النفوس كلها والتف الشعب الإنجليزي حول مليكه الجديد وسانده أيضاً مبعوثو البابا وغالبية رجال الدين، وكما يقال لقد فضل الإنجليز ملكاً إنجليزياً طفلاً عن ملك فرنسي غريب.

مات وليم لامارش في عام ١٢١٩م بعد أن حكم إنجلترا حكماً فعلياً منذ تولية هنري الثالث وساعده في هذه الفترة المبعوث البابوي، وتولى الوصاية على هنري المبعوث البابوي حتى عام ١٢٢١م حيث عاد إلى روما، وتولى بعد ذلك أسقف ونشستر Winchester بطرس دي روشيه Peter De Roches أمر الوصاية، وساعده في أمر القضاء هيوبرت دي بورج Hubert de Burgh.

وفي عام ١٢٢٣م أعلن البابا هونوريس الثالث أن الملك هنري بلغ سن الرشد وعليه أن يحكم بمفرده، ولكن هنري لم يتخل عن مساعدة بطرس

حتى عام ١٢٢٧م عندما ذهب بطرس في الحملة الصليبية السادسة مع فريدريك الثاني.

وعلى أية حال فقد كان هنرى الثالث على شاكلة أسلافه، ففرض الضرائب التي أرهقت النبلاء وكادوا يشورون عليه، وسمح لرجال الدين بجمع العشور لمساعدة البابا في حروبه ضد الامبراطور فريدريك الثاني.

ورغم هذا كله فإن أهم شيء حدث في عصر هنرى الثالث هو أن فترة قصور هنرى الثالث، أشعرت الوزراء بالمسئولية الملقاة على عاتقهم، فتعاون الوزراء مع النبلاء ونجحوا في دفع الدولة إلى الأمام بطريقة أفضل بكثير من الأجيال السابقة عندما كانت السلطة في يد الملك، ومن تجاربهم في السلطة بدون تعرض الملك، وضعوا أساس الحكم الديمقراطي في إنجلترا وقد ظهرت نتائج هذه الممارسة على مر الزمن .

إدوارد الأول ١٢٧٢ - ١٣٠٧م

ولى حكم إنجلترا وهو في السابعة والثلاثين من العمر، وكان ملكاً طموحاً قوى الإدارة، على درجة وافية من العلم، خبيراً في الفنون العسكرية، راغباً في العدالة والاصلاح، وكان لهذا كله أثراً بالغاً في تاريخ إنجلترا، وقاد إدوارد حملة صليبية في عام ١٢٧١م وهو أمير ولكنه لم يوفق في حروبه ضد المسلمين في بلاد الشام، فحاول التحالف مع المغول لمحاربة الدولة المملوكية ولكنه لم يوفق أيضاً، فعاد إلى إنجلترا ليتولى عرشها على أمل العودة مرة اخرى إلى بلاد الشام للتحالف مع المغول ومساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية وإمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين، ولكن ظروف إنجلترا الداخلية والخارجية لم تمكنه من ذلك.

وكان من سياسة إدوارد العمل على تحقيق الوحدة بين إنجلترا وويلز واسكتلندا ليقوم دولة قوية مترابطة، والواقع أن الصراع بين إنجلترا وويلز يرجع إلى عهد الملك الإنجليزي وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧م)، فقد طالب وليم بخضوع ويلز لسلطانه بعد أن غزا إنجلترا باعتبارها جزء من مملكة هارولد Harold المهزوم، ولكن مشاكل وليم الداخلية والخارجية لم تمكنه من تنفيذ ذلك سياسياً أو عسكرياً، واستعاض عن ذلك بأن أقام على حدود ويلز الشرقية ثلاث مقاطعات، تولى كل منها حاكم بلقب إيرل Earl، وطالب هولاء الحكم بالتوسع في أراضي ويلز. وإلى جانب هذه المشاكل الشرقية واجه أهل ويلز أيضاً غارات القراصنة النورمان البحرية.

ورغم هذا كله فقد نجح أهل ويلز في هزيمة الانجليز عند كورون Corwen عام ١١٦٥م ولما كان هنرى الثاني ملك إنجلترا مشغولاً بالصراع مع توماس بكت، فقد اعترف باستقلال الجزء الجنوبي من ويلز تحت حكم رويس آب جروفيد Rhys ap Gruffydd البطل الشائر في جنوب ويلز، وتمكن ليولن الأكبر Llyeuelyn The Great في بسط نفوذه على ويلز بفضل مقدرته العظيمة في الحرب والسياسة، ولكن أولاده تنازعوا فيما بينهم فعمت الفوضى أنحاء ويلز، ولكن حفيده ليولن آب جروفيد تمكن من السيطرة على الموقف داخل ويلز ورد إلى البلاد وحدتها وعقد الصلح مع هنرى الثاني ملك إنجلترا واتخذ لنفسه لقب أمير ويلز.

ولما كان إدوارد هنرى قد عقد العزم على غزو ويلز فلم يكن ما حدث من صلح إلا كسباً للوقت، فاستعد بقواته البرية في عام ١٢٨٢م وتقدم إلى ويلز حيث التقى ليولن الذي لم يكن لديه إلا قوات محدودة فقتل ليولن، كما تم القبض على أخيه داود، وتم فصل رأسيهما عن جسدهما وعلقت الرأسان في برج لندن، وفي عام ١٢٨٤م أصبحت ويلز جزء من

إنجلترا، وفي عام ١٣٠١م خلع إدوارد لقب أمير ويلز على ولي عهد إنجلترا.

وأخذت تشريعات الملك الإنجليزي إدوارد الأول مكانة عظيمة في تاريخ إنجلترا والقارة الأوروبية كلها، فقد وجد الملك أن الكنيسة تمتلك حوالي ثلث الأراضي في البلاد. وهي أراضي معفاة من الضرائب، وبدأ بإصدار مرسوماً في ١٢٧٩م يمنع بموجبه التنازل للكنيسة عن الأراضي سواء أكانت منحاً أم هدايا حتى لا تتضخم ثروات الكنيسة أكثر من ذلك. وإلى جانب ذلك فقد أجاز الملك إنتقال الأرض من مالك لآخر عن طريق البيع والشراء بعد أن كان الاقطاع هو السبيل الوحيد لحيازة الارض، هذا بالإضافة إلى تشريعات تتعلق بالأوقاف ومعاملة اليهود، كما أنه درب جميع الانجليز على حمل السلاح، واعاد تنظيم قواته العسكرية.

والحقيقة أن ذلك كله لم يكن سبباً في تمجيد عهد إدوارد، فإن نمو البرلمان الذي بدأ في عام ١٢٩٠م باجتماع رجال الدين والبارونات ثم تطور هذا البرلمان إلى البرلمان النموذجي الذي عقد في عام ١٢٩٥م بحضور البارونات والاييرلات والفرسان ونواب عن رؤساء الاساقفة والاساقفه والعامه، وهو الذي خلد عهد الملك إدوارد.

فقد قرر هذا البرلمان عدم فرض ضرائب إلا بموافقتة ، ووضع مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً، كما قرر البرلمان أيضاً أن الاخطار التي تواجه الدولة يجب أن تعالج بطرق يتفق عليها الناس جميعاً، وبالإضافة إلى ذلك تحسنت طرق الاجراءات القانونية والتحقيق القضائي، وحدد اختصاص مجالس القضاء الكنسي بقانون صدر في عام ١٢٨٥م، وفي نهاية عهده كان هناك ثلاث محاكم

أخرى، الأولى تختص بالشئون المالية، والثانية للدعاوى المدنية العامة، والثالثة وهي التي تفصل في جميع القضايا المدنية والجنائية التي تخص الملك الانجليزي. هذا بالاضافة إلى بعض التشريعات التجارية وصدور قانون التجار في عام ١٢٨٣م، وعهد التجار في عام ١٣٠٢م، وعندما مات ادوارد في عام ١٣٠٧م كانت إنجلترا تتمتع بحكم برلماني سليم وقانون تجاري عادل .

إدوارد الثاني (١٣٠٧ - ١٣٢٧م)

خلف والده في حكم إنجلترا ولم يكن على مستوى أبيه في الحكم والإدارة، فقد كان ضعيفاً محبباً لرفقة رجال سوء حتى أصبح ألعوبة في يد ندمائه، وضاق أعضاء البرلمان بتصرفاته فقبضوا على صديقه ونديمه جاستون Gaveston إيرل كورنول Cornwall وقتلوه في عام ١٣١٠م، وفي الوقت نفسه بدأ التعاون بين إيرلندا واسكتلندا في حوالي عام ١٣١٥م لطرده إنجلترا من إيرلندا.

ويرجع هذا التعاون إلى أن روبرت بروس Robert Bruce الأسكتلندي وقد هزم الانجليز عام ١٣١٤م عند بانوكبيرن Bannockburn، كما نجح أخوه إدوارد بروس في الرسو على أرض إيرلندا ومعه حوالي ستة آلاف مقاتل، ولم تنزعج إنجلترا وحدها لهذا الحدث بل انزعج البابا يوحنا الثاني والعشرين وأصدر قراراً يقضى بحرمان كل من يساعد إسكتلندا من رحمة الكنيسة، ولكن أهل إيرلندا لم يعبأوا بمثل هذا القرار وساندوا القوات الاسكتلندية وتوجوا إدوارد بروس ملكاً على إيرلندا في عام ١٣١٦م، ولكنه هزم وقتل في عام ١٣١٨م، وفشلت محاولة انفصال إيرلندا عن التاج الانجليزي، وهكذا فقدت إيرلندا حريتها ولكنها ظلت إيرلندية الطابع

إدوارد الثالث ١٣٢٧ - ١٣٧٧م

اختلف كثيراً عن والده وربما شابهه جده إدوارد الأول، ولعل طول مدة حكمه قد ساعدته على إنجاز العديد من المشروعات سواء على المستوى الداخلي أم الخارجي، وعلى المستوى الداخلي فقد تم تحويل كثير من الأراضي الإنجليزية إلى أراضي زراعية وذلك بفضل جماعة السسترشيان. هذا بالإضافة إلى الاهتمام بصناعة غزل الصوف التي اشتهرت بها إنجلترا وأصبحت من أهم مصادر الثروة في البلاد، ورغم هذا فقد كان للوباء الأسود الذي اجتاح أوروبا عام ١٣٤٩م أثره السيء على إنجلترا حيث ارتفعت الأسعار ارتفاعاً كبيراً.

وعلى المستوى الخارجي فقد شهد عهد إدوارد الثالث بداية الحرب التي عرفت بإسم حرب المائة عام ١٣٣٧ - ١٤٥٣م وهي الحرب التي دارت بين إنجلترا وفرنسا بسبب أملاك إنجلترا في القارة الأوربية، والمهم في هذا المقام أنه لم يتبق لإنجلترا عند نهاية حكم إدوارد سوى بعض الموانئ مثل كاليه Calais وبرست Brest وبايون Bayonne وبوردو Bordeaux، ومما لا شك فيه أن هذه الحروب قد أثرت كثيراً على الأحوال الداخلية للبلاد الإنجليزية، فقد أدى طول الحرب إلى عدم إنتظام التجارة بين إنجلترا وأوروبا خاصة مع إقليم فلاندرز الذي كان يستورد معظم الصوف الإنجليزي لتصنيعه، وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثير من الصناع من فلاندرز إلى إنجلترا وإقامة مراكز لصناعة الصوف بالقرب من مراكز إنتاج المواد الخام.

وعلى المستوى الخارجي أيضاً ساءت العلاقة بين إنجلترا والباباوية في روما بسبب إقامة الباباوية في أفينون وهو ما يعرف باسم الأسر الباباوية، وترتب على ذلك أن البرلمان الإنجليزي أنكر في عام ١٣٥١م

شرعية تعيين البابا لكبار رجال الكنيسة في إنجلترا. كما أصدر البرلمان أيضاً في عام ١٣٥٣م تشريعاً يقضى بعدم إستئناف القضايا أمام المحاكم الأجنبية، ومنها المحاكم البابوية، وبذلك حرمت البابوية من الموارد المالية التي تؤول إليها من هذا الجانب. كما رفض البرلمان دفع الجزية التي تعهد بدفعها الملك يوحنا بعدما إستسلم للبابوية في عام ١٢١٣م، وعلى المستوى الخارجي والداخلي، فقد ظهرت في إنجلترا حركة الإصلاح الديني التي نادى بها جون ويكلف John Wiclif (١٣٢٤ - ١٣٨٤م)، وقد نادى ويكلف بحق الدولة في مصادرة أملاك الفاسدين من رجال الدين، وعدم التقيد بالأوامر البابوية، واعتبار الانجيل هو المرجع الوحيد للمسيحيين، ولما كانت مثل هذه الآراء تعتبر هرطقة في نظر معظم المعاصرين له، فقد أدت إلى الكثير من المشاكل في داخل إنجلترا وخارجها.

وليس لنا في هذا المجال أن نتتبع تاريخ إنجلترا حتي نهاية العصور الوسطى أو حتى قيام أسرة ثيودور في عام ١٤٨٥م، ولكن نكتفي على الصفحات بالقول أنه رغم المشاكل الداخلية والخارجية التي عاشتها إنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلا أنها حازت الكثير من التقدم في المجال الحضاري، ومن ذلك التقدم في صناعة الصوف، وظهور الطباعة في عام ١٤٧٤م هذا بالإضافة إلى إنشاء المدارس وقيام الجامعات مثل جامعة كمبردج، والحركة الناشطة في بناء الكاتدرائيات وغيرها من المباني الدينية كالكنائس والاديرة وفقاً للنظام القوطي الذي حل محل النظام الرومانسكي. كما ظهرت اللغة الإنجليزية وحلت محل اللغة اللاتينية، وقد إستخدم جوفري تشوسر Geoffrey Chucer (١٣٤٠ - ١٤٠٠م) اللغة الإنجليزية في كتابه قصص كانتربوري ومهد لنهضة

أدبية في القرن السادس عشر حيث ظهر ولیم شكسبير ١٥٦٤ -
١٦١٦م الشاعر الانجليزي الذي يعتبر من أعظم شعراء إنجلترا الذي وضع
العديد من المسرحيات الشعرية الخالدة.

ثانيا : فرنسا :

وحيث أن محور هذا الكتاب هو أوروبا والمغول، وقد بدأنا الكتابة عن
إنجلترا بعهد الملك ريتشارد قلب الأسد لأن بداية حكمه تتزامن تقريباً مع
ظهور المغول في الشرق، وهنا في فرنسا يتزامن مع حكم الملك فيليب مع
هذه المرحلة.

فيليب الثاني أوغسطس : (١١٨٠ - ١٢٢٣م)

كان ملكاً ذكياً عمل على تشجيع العلوم، كما إتصف ايضاً بالحزم
والشجاعة والحذر والدهاء، ولم يتردد عن سلوك أي سبيل يوصله إلى
غايته. ومن حذره أنه كان كريماً مع الكنيسة ولكنه لم يسمح لرجال الدين
أو الباباوية بأن تتدخل في شئون دولته السياسية، ولعل في هذه الصفات
ما جعله يحصل على ما يريد دون استعمال القوة العسكرية. وواقع الأمر،
كانت فرنسا في أشد الحاجة إلى مثل هذه الشخصية لتقف أمام إنجلترا
وفيها هنري الثاني، وريتشارد قلب الأسد، ويوحنا، وأمام ألمانيا حيث
حكم فريدريك بارباروسا وهنري السادس.

نجح فيليب في عام ١٢٠٤م في فتح إقليم نورماندي واسترده من
التاج الانجليزي، وتقوى فيليب بهذا النصر واستطاع أن يضم بريتاني،
وأنجو، ومين، وتورين، ويواتو إلى أملاك التاج الفرنسي، ومع قوة الملكية
بالحصول على هذه الأراضي استطاعت السيطرة على الحكومة المحلية
وتقلصت سلطة الأدياق والكونتات، وأشرفت الدولة على جميع الاقاليم.

لم تُسلم انجلترا بضياع نورمانديا، فتحالف يوحنا ملك انجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦م) مع أوتو الرابع إمبراطور المانيا ومع كونت فلاندرز للوقوف في وجه التوسع الفرنسي، ووضعت الخطة العسكرية للقضاء على فيليب في ضربة واحدة، ووقف فيليب وحدة في الميدان ليواجه كل هذه القوى مجتمعة، ولم يوزع قواته على جبهات القتال بل نازل بها مجتمعة القوات الانجليزية في معركة بوفين Bouvines عام ١٢١٤م، وهزم فيليب يوحنا وترتب على هذه الهزيمة نتائج بالغة الأهمية كان لها أثرها السياسي على قارة أوروبا بأكملها، ومن هذه النتائج خلع أوتو من عرش الامبراطورية الألمانية وتولية فريدريك الثاني، وانتهاء زعامة ألمانيا على القارة الأوروبية، كما خضع كونت فلاندرز لملك فرنسا، أما في انجلترا فقد كان من نتيجة هذه الهزيمة تمرد النبلاء الانجليز على الملك ومحاربه وهزيمته وإجباره على توقيع العهد الأعظم بعد عام من الهزيمة ١٢١٥م، ولا شك أن موقف الملكية في فرنسا قد زاد قوة على ما تبقى من نفوذ الاقطاعين.

وفي مجال السياسة الداخلية فقد حكم فيليب بلاده بمنتهى الاخلاص رغم صراعه لبعض الوقت مع الكنيسة بسبب زواجه من أجنس أف ميران Agens of Meran وطلاقه لزوجته الثانية انجبورج Ingeborg، وتعرض فيليب لقرار الحرمان من الكنيسة ولكنه لم يعبأ بهذا القرار. وأعاد فيليب تنظيم دولته فاستبعد رجال الدين من البلاط وحل محلهم رجال القانون، وشجع التجارة بمنح الامتيازات وحماية التجار ومنح عدداً من المدن عهداً بالحكم الذاتي، واستبدل بالخدمات الاقطاعية التي أصبح في غنى عنها البدلات العسكرية، وإهتم بالعمارة فتم في عهده بناء حصن اللوفر ليحمي نهر السين. وأتم واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame.

ولإرضاء الباباوية والرأى العام الأوربي ولكي لا يظهر بمظهر المتخلف عن حماية الأراضي المقدسة خرج مع الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد وفريدريك بارباروسا لمحاربة صلاح الدين، وعاد فيليب من الشام فاشلاً قبل أن تستكمل الحملة أعمالها - وعلى أية حال فقد مات فيليب عام ١٢٢٣م بعد أن أقام دولة فرنسا القوية.

لويس الثامن ١٢٢٣ - ١٢٢٦م :

تولى الحكم بعد أبيه، وقد شارك لويس في كثير من الاعمال في حياة أبيه، ومن ذلك أنه قاد الجيش الفرنسي ضد إنجلترا عندما إستنجد بارونات إنجلترا بالملك فيليب أوغسطس بعد محاولة تنصل الملك الإنجليزي يوحنا من بنود العهد الاعظم، كما تولى لويس أيضاً قيادة القوات الفرنسية في الحملة الالبيجنسية ضد الهرطقة في جنوب فرنسا، وهي المشكلة التي ورثها من أبيه، وأكد لويس سياسة أبيه في تقوية السلطة المركزية والقضاء على الهرطقة الذين سيطروا على جانب من جنوب فرنسا. وفي السنة الأخيرة من حكمه ١٢٢٦م توجهت القوات الفرنسية إلى جنوب فرنسا لضرب الهرطقة وسانده في عمله هذا الباب هونوريوس الثالث، ولم يستطع عموري دي مونتفورت Amoury De Montfort ابن سيمون دي مونتفورت قائد الحركة الالبيجنسية مواجهة القوات الفرنسية فأقر سيادة لويس الثامن على أراضي الجنوب، وكان لويس قد تزوج من بلانش القشتالية Blanche of Castile وأنجب منها ابناً هو لويس المعروف بإسم القديس لويس أو لويس التاسع .

لويس التاسع ١٢٢٦ - ١٢٧٠م :

حكم لويس فترة طويلة، ويرجع ذلك إلى توليه الحكم قاصراً في الثانية عشر من عمره فتولت أمه الأرملة الشابه بلانش الوصاية عليه ورغم

جمالها وفتنتها لم تفكر في الزواج وصانت ما يجري في عروقتها من دم ملكي. فهي ابنة الملك الفونسو التاسع Alfons . IV ملك قشتاله ١١٥٨ - ١٢١٤م، وزوجة ملك هو لويس الثامن وأم ملك هو لويس التاسع . وحفيده ملك هو هنري الثاني ملك إنجلترا، ويبدو أن هذا الرصيد الهائل من الملكية دفعها إلى سلوك طيب حيال فرنسا وعوضت ما شاب جدتها اليانور زوجة هنري من سلوك معيب.

وعلى أية حال تفرغت بلانش لتربية ابنها لويس تربية فاضلة حتى حكم لويس بنفسه منذ عام ١٢٣٥م، وخلال فترة حكمها نجحت في السياسة الداخلية والخارجية، ففي المجال الداخلي قامت بأعمال إجتماعية عظيمة، فقد أعتقت الكثير من أرقاء الأرض، وجهزت العديد من البنات الفقيرات للزواج، وتغلبت على البارونات الذين حاولوا إعادة حقوقهم القديمة. أما في المجال الخارجي فقد عملت على حقن الدماء عندما اشتد الصراع بين فرنسا وإنجلترا وفضلت الصلح بشروط مشرفة.

وعندما تسلم لويس التاسع مقاليد الحكم لم يبتعد عن السياسة التي رسمتها والدته، ففي مجال السياسة الداخلية عامل النبلاء معاملة طيبة مقابل وفائهم بما عليهم من الإلتزامات لرجالهم وللدولة، وشدد العقاب على المخالفين، وأدخل العديد من القوانين التي تحرم الثأر وقتل العبيد والاتباع دون محاكمة، وأوجب المحاكمة بالأدلة والشهود محل المبارزة، وزاد من عدد المحاكم الكلية وتقلصت محاكم البارونات، ولكي يتأكد لويس من حسن سير القضاء قرر حق إستئناف أحكام محاكم البارونات أمام محكمة الملك المركزية، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لكل شاك الحق في مقابلة الملك ليعرض عليه مظلمته في القصر الملكي أو في أي مكان، وسجل المؤرخ الفرنسي جوانفيل Joinville المعاصر للملك

لويس، أن الملك كثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ويجلس تحت أحد الأشجار في غابة فنسن Vincenne وحوله رجاله، فيتقدم إليه كل مظلوم ويشرح له قضيته دون مراسم رسمية، وقد يفصل الملك في القضية في حينه، أو يحيلها إلى أحد رجاله الجالسين حوله إذا كان الأمر يحتاج إلى دراسة.

وخلاصة القول إن فرنسا نعمت برخاء لم تعرفه منذ قرون، وأمن طالما إشتاقت الناس إليه فأنتجوا وزادت ثروة فرنسا بدرجة كبيرة، وفيما يتعلق بالملك لويس وعلاقته برجال الدين، فقد عاملهم على أنهم بشر وعيوب البشر كثيرة، ولم يجد لويس من علاج سوى القدرة الحسنة، فكان لهم مثلاً، ولم يتورع عن معاقبة المخالفين، وحاكمهم أمام المحاكم الملكية بعد أن قيد سلطة المحاكم الكنيسة، وظل القانون يظله جميع المواطنين، ورغم علاقة لويس الطيبة مع الباباوية إلا أنه أصدر في عام ١٢٦٨ قانوناً قيد به حق البابا في تعيين رجال الدين في فرنسا.

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد سار لويس على المفهوم نفسه الذي سار عليه في علاقته بباروناته ورعيته، فقد كان يرى أنه بوسع الحكومة أن تسلك سلوكاً طيباً مع جيرانها مع الحفاظ على كرامتها، فعمل على تجنب الحرب بقدر الإمكان رغم ما كان له من جيش منظم مدرب. ومن ذلك أن لويس رد إلى إنجلترا وإسبانيا أراضي إستولى عليها أسلافه دون وجه حق، حتى أن لويس لم يدخل في حرب منذ عام ١٢٤٣م حتى وفاته ١٢٧٠م باستثناء الحروب الصليبية، وهي الحروب التي كانت عملاً مقدساً من وجهة نظر الغرب الأوربي.

وكثيراً ما تدخل لويس بين دولتين للتوفيق بينهما، وهي سياسة مخالفة تماماً للعصر الذي عاش فيه، فقد كان المألوف إثارة النزاع بين الأطراف، وأن تشتعل الحرب بينهم والمنتصر في الحرب ضعيف، وإذا كان

لويس قد نجح داخل فرنسا فى الساحة الأوربية التي عرف فيها باسم القديس لويس، وأصبح المحارب والسياسي البار والتقي الورع الذي حكمه الملوك بينهم، فإنه قد فشل في حملاته الصليبية، فقد قام لويس بحملته الأولى المعروفه بالحملة السابعة عام ١٢٤٨م، واتجه إلى مصر ورسا عند مدينة دمياط واستولى عليها، وحقق نجاحاً في أول الحملة حتى وصل إلى مدينة المنصورة، ولكن الدائرة دارت على قواته وهزم وأسر عام ١٢٥٠م. وعندما إفتدى نفسه بالمال أبحر إلى الشام ليقوم بحملة أخرى ليعوض فشله في مصر ولكنه فشل في الشام مثلما فشل في مصر، فعاد إلى بلاده مهزوماً ذليلاً، وحاول لويس أن يعوض فشله في الحملتين السابقتين، فإستعد في عام ١٢٧٠م بحملة أخرى كانت وجهتها تونس هذه المرة، ولما كان لويس مريضاً فقد مات بعد ما وصل إلى تونس، ولم يعد هذه المرة مهزوماً بل عاد جثماناً ليكرمه الفرنسيون لما قدمه من أعمال عظيمة وأدخلوه في عداد القديسين، وظلت ذكراه عالقه بالأذهان بإعتبار أن عصره كان من العصور الذهبية التي عشتها فرنسا . وكان للملك لويس جولات مع المغول فقد استقبل وأرسل السفارات اليهم وسوف نتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

فيليب الثالث ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م :

ورث فيليب الثالث دولة فرنسا القوية بفضل أعمال أسلافه، ولم يكن فيليب حاكماً قوياً مثلهم ولكن الأنظمة التي ورثها ساعدته كثيراً، فلم تظهر عدم كفايته بقدر كبير. وقد لعب القدر دوراً كبيراً في حياة فيليب، فقد نجح في ضم بعض الأقاليم إلى فرنسا دون إراقة دماء، وترتب على ذلك القضاء على جانب كبير من نظام الملكية الإقطاعية في فرنسا وظهور الملكية المركزية.

ومن ذلك أن الفونسو أمير بواتيه أبحر وزوجته مع لويس التاسع إلى تونس في الحملة الصليبية، ولكنه مات هناك، وباعتبار فيليب ملكًا على فرنسا فقد آلت إليه أملاكهما الواسعة في إقليم تولوز وبروفانس وبواتيه .

فيليب الرابع ١٢٨٥ - ١٣١٤م:

عرف باسم «الجميل» لجمال وجهه، وقد سار على النهج نفسه الذي سار عليه أسلافه من تقوية السلطة المركزية وإخضاع كافة الطبقات من رجال الدين والأشراف والعامّة لحكم القانون. وفي المجال الاقتصادي شجع الصناعة والتجارة حتى لا يعتمد اقتصاد فرنسا على الزراعة فقط، ولتنفيذ هذه الأفكار اعتمد على رجال القانون الشبان فكانوا أعوانه ومستشاريه، ولعل ما دفع فيليب إلى ذلك، ما ورثه في فرنسا القوية بجهد أسلافه بفضل الحروب الصليبية التي لعبت فيها فرنسا دوراً كبيراً عاد عليها برفعه أدبية وروحية، هذا بالإضافة إلى عدم الاستقرار في إنجلترا بسبب الصراع بين الملوك والبارونات، وفي ألمانيا المفككة نتيجة الصراع بين الأباطرة والباباوات.

وسوف نتناول في هذا العهد - وهو عهد فيليب الرابع - أربع نقاط رئيسية الأولى وهي السياسة الخارجية للدولة مع دول أوروبا خاصة إنجلترا، والثانية وهي علاقة فيليب بالباباوية والثالثة وهي الأحوال الداخلية لفرنسا في عهده، والرابعة والأخيرة وهي الجوانب الإدارية والتشريعية. وفيما يختص بالسياسة الخارجية فقد كانت سياسته ترمى إلى توحيد فرنسا الجغرافية لتكون فرنسا بحدودها السياسية، ومعنى ذلك طرد الانجليز من الأراضي التي يسيطرون عليها، ويلي هذه الخطوة تحقيق زعامة فرنسا على كل أنحاء أوروبا، وقد ساعده في ذلك مجموعة من المستشارين الذين هبوا له هذه الأفكار خاصة أن عهده عاصر نهاية الحروب الصليبية العسكرية في بلاد الشام، وبدأت أوروبا تفكر في طريقة

أو أخرى لاستعادة الممتلكات الصليبية سواء بالطرق العسكرية أو غيرها.

ومن أجل تنفيذ ذلك أعلن فيليب عند توليه عرش فرنسا أن حدود بلاده السياسية هي نهر الراين في الشرق أي الحدود الألمانية، وأن حدودها في الجنوب هي جبال الألب، وحدودها الجنوبية هي جبال البرانس ، ومعنى ذلك أنه أغفل ذكر أي ممتلكات لإنجلترا في فرنسا، وهذا يعنى أن هناك صداماً عسكرياً سوف يقع بين إنجلترا وفرنسا.

وبدأ فيليب تنفيذ خطته بزواج سياسي، فقد تزوج من حاكمه إقليم شامباني، وأخذ يخطط للسيطرة على جوين Guienne وجاسكوني Gac-sony وكلاهما يقع في أقصى الجنوب الغربي لفرنسا بالقرب من الحدود الأسبانية، وكانتا تابعتين لإنجلترا مع الاعتراف بالتبعية إلى الملك الفرنسي . كما تطلع فيليب أيضاً لإقليم الفلاندرز الذي يقع في أقصى شمال فرنسا وتفصل القناة الانجليزية بينه وبين إنجلترا . وترجع أهمية هذا الاقليم الى مراكز الصوف الصناعية وما يتبع ذلك من أعمال تجارية مع أوروبا خاصة مع إنجلترا التي تصدر إليه الصوف الخام، حيث يتم صنعه وبيعه ولا يخضع للضريبة المقررة على الصادرات من الصوف، ومن هنا كان التنافس بين إنجلترا وفرنسا على هذا الاقليم.

يضاف إلى ذلك التنافس بين إنجلترا وفرنسا على الثروة السمكية في بحر المانش وهو أمر أدى إلى الصدام بين الصيادين من الانجليز والفرنسيين، ثم إلى الصدام بين ملكي إنجلترا وفرنسا، وكانت الشرارة التي بدأ بها الصدام قيام بعض صيادي السمك بمقاطعة جاكسوني الانجليزية بالاعتداء على بعض صيادي السمك الفرنسيين، فأصدرت المحاكم الفرنسية أحكاماً ضد صيادي جاسكوني الذين لم ينصاعوا لهذه الاحكام.

وكان على فيليب الرابع أن يتدخل حفاظاً على كرامة أحكام محاكمة، وأستغل المتاعب التي تمر بها إنجلترا داخلياً. واستدعى ملك إنجلترا لاستجوابه، باعتباره فصلاً من أفضاله، أي إقطاعياً تابعاً له، وعليه الالتزام بالواجبات الإقطاعية، والواقع ان هذا الواجب الإقطاعي يعود إلى أن وليم الفاتح أول حاكم نورماني لإنجلترا كان أصلاً حاكماً لمقاطعة نومانديا الفرنسية، وبالتالي فهو تابع لملك فرنسا وتمسكت فرنسا بهذا الحق لفترات طويلة.

وعلى أية حال ورغم ما في الاستدعاء من شبه إهانة لملك إنجلترا إدوارد الأول، إلا أنه وعد بالحضور في وقت لاحق نظراً لمشاكله مع أسكتلندا وإيرلندا، وحتى يظهر حسن النوايا سلم بعض القلاع الانجليزية الموجودة في فرنسا إلى الملك الفرنسي كرهينة كوعد بالحضور، وحتى يهدأ الموقف، ولا يدفع ملك فرنسا للحصول على مساندة أسكتلندا أو إيرلندا، أرسل إدوارد أخاه الأكبر آدموند إيرل لانكستر Edmund Earl of Lancaster إلى باريس. ولما كان الملك فيليب يرغب في غير ذلك وهو العمل على ضم الأراضي الانجليزية التي تقع في الأراضي الفرنسية، فقد رفض هذا التصرف وتمسك بالقلاع التي وضعتها إنجلترا كرهينة لملك فرنسا، ومن هنا تصاعد الموقف وأعلن الملك الانجليزي إدوارد تحلله من التبعية الإقطاعية لملك فرنسا، وبدأ يعمل على التحالف مع بعض الأمراء في ألمانيا استعداداً للحرب مع فرنسا.

لم يقف فيليب مكتوف الأيدي وبدأ العمل للتحالف مع إسكتلندا ومساندتها ضد ملك إنجلترا الذي يعمل على ضمها للتاج الانجليزي، وتصاعد الموقف وهاجم فيليب منطقة جسوين، كما هاجم إقليم فلاندرز لتعاطف حاكمه مع ملك إنجلترا، وهنا تأثرت المصالح التجارية كثيراً من

جراء هذه الأحداث، كما تأثرت فرنسا كذلك. وعند هذه المرحلة إتفق الملكان في عام ١٢٩٨ على الصلح، وفضلاً كلاً منهما ما عقده من تحالف من أجل الحرب، بعد تدخل البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣م).

وشارت المتاعب ضد ملك فرنسا عندما رفض أهالي فلاندرز الخضوع للملك الفرنسي لأن في ذلك ضرر كبير على صناعة الصوف وعلى اقتصاد البلاد، وتصدى أهل فلاندرز للقوات الفرنسية التي تقدمت لغزو بلادهم في عام ١٣٠٢م في معركة كورتراي Courtrai وهي أول معركة يتم فيها إنتصار لقوات المشاه على الفرسان منذ عرف الاقطاع في أوروبا.

وعند هذه المرحلة إضطر الملك الفرنسي فيليب إلى عقد صلح نهائي في العام التالي (١٣٠٣م)، ومن شروط هذا الصلح بقاء جوين وجاسكوني في حوزة إنجلترا، وعودة كونت فلاندرز إلى بلاده حاكماً عليها، ولم يكن ما فعله فيليب مع فلاندرز إلا هدنة مؤقتة، فعندما مات البابا بونيفاس في نهاية العام وتحديداً في الحادي عشر من اكتوبر عام ١٣٠٣م عاد مرة أخرى لمحاولة إخضاع اقليم فلاندرز، وقد انتصرت القوات الفرنسية في بداية الأمر، ولكن قوات الفلاندرز نجحت في الصمود أمام القوات الفرنسية الأمر الذي دفع فيليب إلى مصالحة كونت فلاندرز في عام ١٣٠٥م.

وكانت علاقة فيليب الرابع عاصفة مع الباباوية كذلك، وقد عاصر فيليب مجموعة من الباباوات هم البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧)، والبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م)، والبابا كلستين الخامس (١٢٩٢ - ١٢٩٤م) والبابا بونيفاس الثامن، والبابا بندكت الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤م)، وأخيراً البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ -

- ١٣١٤م)، وكان البابا بونيفاس من أهم وأقوى الشخصيات التي عاصرها فيليب الرابع. وفلسفة هذه العلاقة تدور حول السياسة التي كان يتبعها الملك الفرنسي وهي العمل على تقوية السلطة المركزية للملك وعدم تدخل رجال الدين في الشؤون الدنيوية للبلاد. ومن جانب آخر كان البابا بونيفاس يعمل على تقوية السلطة الباباوية داخل البلاد الأوربية، لذلك بدأ الصراع بين فيليب وبونيفاس عندما فرض الملك على رجال الدين في عام ١٢٩٤م دفع الضرائب .

ولكن رجال الدين رفضوا أوامر الملك ورفعوا شكواهم إلى البابا، والواقع أن مشكلة المال وحاجة ملوك أوربا إليه إما للحرب أو للإصلاح سادت جميع الممالك الأوربية في تلك المرحلة ، وخاف بونيفاس على السلطة الباباوية داخل هذه الممالك وتصدى للملك الفرنسي ولغيره من الملوك وأصدر في عام ١٢٩٤م قراراً بعدم أحقية الملوك في فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة دون الرجوع إلى البابا، ومن الطبيعي أن يهدد البابا بقرار الحرمان من رحمه الكنيسة لكل من يخالف ذلك .

وإستاء ملك إنلجترا كذلك من قرار البابا، وبدأ الصراع بين إدوارد الأول وبين رئيس أساقفه كانتربوري ، وهو ما يذكرنا بالصراع الذي دار بين هنري الثاني وتوماس بكت، وفي فرنسا كان الصدام بين فيليب الرابع وبين البابا نفسه، وبدأ فيليب بإتخاذ بعض الاجراءات التي تضر بمصالح البابا المادية والأدبية، وعن الجانب المادي حرم فيليب تصدير الذهب والفضة إلى خارج فرنسا، وفي هذا التحريم عدم إرسال الأموال إلى البابا التي كانت ترسل إليه من فرنسا.

وعن الجانب الأدبي أصدر فيليب قراراً بتحريم دخول الأجانب إلى فرنسا أيّاً كانوا هؤلاء الأجانب، وفي هذا القرار تحريم بدخول المبعوثين البابويين إلى فرنسا. إستعد فيليب ولأول مرة في التاريخ ندعوة مجلس

الطبقات لإتخاذ موقف محدد تجاه هذه المشكلة، وصعد فيليب الرابع المشكلة عندما قبض على المبعوث البابوي وسجنه، كما تم إحراق الرسالة التي أرسلها البابا إلى فيليب على مرأى من الجميع في باريس في الحادى عشر من فبراير عام ١٣٠٢م. وتبدل الموقف لصالح الملك عندما ساند رجال الدين الفرنسيون ملكهم وكتبوا إلى البابا يفندون إدعائه وانهم يساندون ملكهم مهما كانت الظروف.

وفي تلك المرحلة كان يعيش في فرنسا أحد رجال القانون البارزين وهو وليم إف نوجارت William of Nogaret، الذي أتهم أجداده بالهرطقة في جنوب فرنسا في عهد البابا أنوسنت الثالث، وكان وليم هذا شديد العداء للباباوية، وفي جلسة مجلس الطبقات التي عقدت بقصر اللوفر في باريس عام ١٣٠٣م هاجم وليم البابا وطالب بمحاكمته وذكر أن البابا عديم الأهلية، وإتهمه بالهرطقة، كما إتهمه أيضاً بالرشوة وأنه عديم الشرف وبعض الجرائم الأخرى. ورغم أن كل هذه الإدعاءات كانت غير حقيقية إلا أن النبلاء ورجال الدين الفرنسيين، وكذلك بعض النبلاء الايطاليين قد أيدوها.

وترك البابا مدينة روما واتجه جنوباً إلى مدينة أنياني Anagni هروباً من حرارة الصيف، وفي مدينة انياني بلغه ما دار في فرنسا، فاستدعى الكرادلة لعقد مجلس يعلن فيه قرار الحرمان من رحمة الكنيسة ضد الملك الفرنسي، ويعلن أن الشعب الفرنسي في حل من الولاء الذي قدمه للملك، وتحدد الثامن من سبتمبر عام ١٣٠٣م لإعلان ذلك. وصمم فيليب على منع البابا من إصدار هذا القرار، فتقابل مع وليم أف نوجارت وسكيارا كولونال Sciarra Colonna وطلب منهما التوجه إلى مدينة انياني لإثارة المواطنين هناك ضد البابا، وقد وصلا إلى المدينة

ومعها جماعة مسلحة وهم يصيحون «الموت للبابا» وطول الحياة للملك فرنسا .

واتجه كولونا ومعهم حوالي ثلاثمائة من الفرسان إلى مقر البابا وطالبوه بالاستسلام، وعند هذه المرحلة طالب البابا بمهلة لمدة تسع ساعات وقد وافق كولونا على طلبه. ولم يكن بوسع البابا خلال هذه المدة أن يطلب من أهالي المدينة الدفاع عنه أو نجدته، فقد هرب خدماً، وحتى ما كان عنده من أقارب من حوله، وفي النهاية إقتحم الفرنسيون القصر وأشعلوا فيه النار وتم القبض على البابا ونقله إلى روما ثم ما لبث أن مات بعد أسابيع قليلة في الحادي عشر من أكتوبر ١٣٠٣م حزيناً.

وهكذا جاهد البابا بونيفاس قدر استطاعته ولكنه فشل، بعدما أضناه الكفاح، وإذا كان فيليب قد تدخل من قبل في شئون الكنيسة وأرضها التي بلغت حوالي ربع الأراضي الفرنسية، فإنه تدخل هذه المرة في تعيين البابا نفسه، وعين البابا كلمنت الخامس ونقل مقر الباباوية من روما إلى أفنيون في عام ١٣٠٩م، وظلت هذه المدينة مقراً باباويًا حتى عام ١٣٧٧م، وهي الفترة التي تعرف في التاريخ باسم الأسر البابوي، حكم خلالها ثمانية باباوات. وهكذا إنتصرت فرنسا على الباباوية بصورة لم ينتصر بها ملكًا أو امبراطورًا من قبل، وانقلب الوضع في هذه المرحلة وأصبح رجال القانون هم الحاكمون بعد أن استعان بهم فيليب في إدارة شئون الدولة، على العكس من العهود السابقة في أوربا حيث كان يستعان برجال الدين لضرب الاقطاع وإضعافه.

والجانب الثالث في هذا الموضوع هو الاحوال الداخلية لفرنسا في عهد فيليب الجميل، ومن الاحوال الداخلية الجوانب الإقتصادية، وقد كان الملك محتاجاً بصفة دائمة للمال لتنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية، ومن هنا إتخذ الملك بعض الإجراءات الصارمة في بعض الأوقات، وإبتدع أنواعاً

جديدة من الضرائب، ومما فعله الملك محاولته في عدم سيطرة الاجانب أو اليهود على الاحوال الاقتصادية في فرنسا، لذلك قام بطرد رجال المال الأجانب وكان معظمهم من اللمبارديين الايطاليين وذلك في عام ١٢٩١م، وفرض على اليهود تقديم نصف أرباحهم إلى التاج الفرنسي في بداية الأمر، ثم عاد وصادر أملاكهم وأموالهم وطردهم من فرنسا في عام ١٣٠٦م، ولكن فيليب أدرك خطأ تصرفه هذا فأداهم ثم عاد وطردهم، وتكرر ذلك أكثر من مرة، والواضح أن ذلك يرجع إلى حاجة فيليب للأموال التي يصادرها منهم عند طردهم .

كما وقف فيليب موقفًا متشددًا من جماعة فرسان الداوية Templars وهي جماعة عسكرية تأسست في بيت المقدس عام ١١١٨م ولعبت دورًا بارزًا في الحركة الصليبية داخل وخارج بلاد الشام مثلها مثل جماعة الاسبتارية وجماعة التيوتون. والحقيقة أن جماعة الداوية.

لعبت إلى جانب نشاطها العسكري دورًا كبيرًا في الانشطة المالية مما عاد عليه بالثراء الوفير حتى بعد سقوط الممتلكات الصليبية في بلاد الشام في أيدي المماليك. وتمتع أفرادها بثراء فاحش بعد إنصرافهم عن الجوانب العسكرية، وفي سبتمبر عام ١٣٠٧م أصدر فيليب أوامره سرًا بالقبض على جميع أفراد جماعة الداوية داخل فرنسا، ومصادرة أموالهم وأراضيهم . ومن أجل مصادرة أموالهم شرعًا دعا البابا كلمنت وفيليب الرابع إلى مجلس عام عقد في مدينة فين Vienne التي تقع إلى الجنوب من مدينة ليون في أكتوبر عام ١٣١١م، وقد حضر هذا المجلس عدد كبير من رجال الدين، وكان الهدف من عقد هذا المجلس هو الدعوة لإرسال حملة صليبية إلى بلاد الشام بالتحالف مع المغول، ومن أجل أيضاً إعادة تنظيم الكنيسة والنظر في شئون أملاك جماعة الداوية وتأيد تصرفات الملك فيليب الرابع ضد البابا الراحل بونيفاس الثامن .

وما يعيننا من هذا الأمر قضيتان هما : الحملة الصليبية التي ترسل إلى بلاد الشام والتحالف مع المغول لمحاربة المماليك، وهذا أمر لم ينفذ، وسوف نناقش هذا الموضوع في الفصل الرابع من هذا الكتاب . والقضية الثانية هي أن المجلس قرر إدماج جماعة فرسان الداوية مع جماعة الاسبتارية وهو ما لم توافق عليه جماعة الداوية، لذلك إتخذ البابا بعض الاجراءات للتحقيق معهم.

وبذلك تشجع الملك فيليب وأصدر قراراً في عام ١٣١٢م بحل تنظيم جماعة الداوية ومصادرة أملاكهم وعين موظفين بدلاً منهم للعمل تحت إشراف هيئة ديوان النفقات، ولم يكتف الملك الفرنسي بذلك بل قبض على جميع فرسان الداوية في فرنسا بما فيهم مقدم الجماعة جيمس أف مولاي James of Molay الذي أعدم حرقاً، واتهم فيليب أفراد الجماعة بالعمل ضد المسيحية وحاكمهم وانتزع منهم إعترافاً بإدانتهم.

أما ما قام به فيليب في الجانب الإداري والتشريعي، فقد قام فيليب باستبعاد جميع الاقطاعيين من الهيئة القضائية، وهي برلمان باريس، وحل محلهم مجموعة من رجال القانون يدينون بالولاء للملكية الفرنسية. كما أنشأ الملك محكمة مالية للنظر في جميع المشاكل والقضايا المالية. ولعل أفضل ما قدمه فيليب إلى بلاده دعوة مجلس طبقات الامة للاتعداد في عام ١٣٠٢م، وكان هذا المجلس الذي دعى لأول مرة يضم ممثلين عن رجال الدين والنبلاء ورجال الأعمال، وسيلعب هذا المجلس دوراً كبيراً في تاريخ فرنسا في المراحل المقبلة.

ورغم هذه الاصلاحات إلا أن أثرها كان سيئاً للغاية بعد وفاته، فرغم حب الشعب الفرنسي للملك فيليب وإعجابه بشجاعته إلا أنه صب اللعنات على ذكراه فقد رأوا فيه ملكاً مستبداً حطم كيان فرنسا، وأن اصلاحاته المالية عادت بالضرر على الدولة، فمن المعروف إقتصادياً أن

رسل المال جبان وأنه يهرب من الحكم المطلق، لذلك فر رجال المال من اليهود واللمبارديين أمام تعسفاته في جميع المال، فتعطلت التجارة وشلت حركتها. وخلاصة القول أن الرخاء الذي ورثه فيليب عن أجداده كان يسير بالقصور الذاتي في عهد فيليب ثم إضمحل بعد وفاته. وإذا ما إستثنينا هذا الجانب نجد أن فرنسا تقدمت تقدماً رائعاً في بعض النواحي الإقتصادية والتشريعية والأدبية والفنية، فقد جذبت الصناعات رقيق الأرض، وظهرت طبقتا رجال الأعمال ورجال القانون وطغتا على طبقة رجال الدين، وأصبح للطبقتين الجديدتين صوت في مجلس الطبقات وهو المجلس الذي ناصر الملك ضد الباباوية.

وظهر في عهد فيليب شعراء الفروسية الذين كتبوا للحب العذرى في اقليم بروفانس جنوب فرنسا، وظهرت أيضاً قصص الملاحم في شمال فرنسا، وفي عصر فيليب أيضاً ظهر إثنان من المؤرخين هما جوفانفيل الذي أرخ للملك لويس التاسع وفلهارودين Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة التي هاجمت القسطنطينية عام ١٢٠٤ وأقصت الحكم البيزنطي حتى عام ١٢٦١م.

وفي عهد فيليب أيضاً ارتقت جامعتا باريس وأورليان وأعيد تنظيمهما، وظهرت الكنائس الكبيرة في سانت دنيس ونوتردام في تحفه معمارية رائعة في فنها القوطي. والأهم من ذلك كله أن الوحدة الوطنية سادت هذه المرحلة لتعمل على وحدة البلاد بدلاً من النزعة الإقليمية الإقطاعية.

وفي ختام الحديث عن عهد فيليب نقول أن الفضل في هذا كله يرجع إلى طبقة رجال القانون - الذين سيطروا على مقاليد الإدارة - بعقولهم المفتوحة بدلاً من رجال الدين ذوى العقول الجامدة التي مثلت تلك العصور.

وفي الرسائل التي تركها بطرس دويوا Pierre Buboيس وهو من رجال القانون تتضح الفجوة الواسعة بين العقليتين. ومما قاله أن أموال الكنيسة يجب أن تكون في خدمة الدولة، ويجب فصل كنيسة فرنسا عن روما والا يكون للباباوية سلطة زمنية على الاطلاق ، وشطح بطرس عندما قال : يجب أن يكون فيليب إمبراطوراً على أوروبا بأسرها ويتخذ من القسطنطينية مقراً له، ولكنه تجاوز بكر عصره بقرون عندما طالب بتكوين محكمة دولية للفصل في النزاع القائم بين الدول، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أي دولة مسيحية ترفع سلاحها ضد دولة مسيحية أخرى، وإن يمنح النساء جميع الحقوق السياسية كالرجال، وطالب بإنشاء معهد للدراسات الشرقية في روما. ولا شك أن مثل هذه الأفكار لم نسمع عنها إلا في القرن العشرين، وهذا يدل على عبقرية بطرس وسعة أفق وطموح تجاوز الحد .

وتعاقب على عرش فرنسا بعد فيليب ثلاثة من أولاده كان آخرهم شارل الرابع ١٣٢٢ - ١٣٢٨م، ومات الأخير دون ولد يرث العرش، وكان أقرب وريث من الذكور هو فيليب دي فالوا Philippe de Falois ابن أخي فيليب، فاعتلى عرش فرنسا ١٣٢٨ - ١٣٥٠، ومع تولى آل فالوا العرش بدأت أسرة جديدة على عرش فرنسا وانتهى حكم آل كابيه.

ثالثاً : ألمانيا :

وبعاصر الحروب الصليبية في الشرق وظهر المغول في آسيا كقوة عسكرية أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen في ألمانيا، وواقع الحال أن الأسرة السالوية إنتهت بوفاة آخر حكامها لوثير الثاني Lothaire II (١١٢٥ - ١١٣٨م) ولم يكن لوثير بالرجال القدير ليرفع ألمانيا من عثرتها بعد الصراع الطويل مع الباباوية، كما أن لوثير نفسه لم يكن مقبولاً من أمراء سوابيا Swabia وهم آل الهوهنشتاوفن .

لقد برز في ألمانيا رجلان قويان بعد موت لوثير، الأول هو هنرى المتكبر (ت ١١٣٩م) دوق سكسونيا ثم بافاريا أيضاً. وهنرى هذا هو حفيد ولف الرابع Welf IV (ت ١١٠١م)، ولذلك كان هنرى عميد البيت الولفي وعرف أتباعه بالولفيين، والثاني يدعى كوزاد هوهنشتاوفن دوق سوابيا، وكونراد هذا حفيد هنرى الرابع من الأم. ويطلق على الهوهنشتاوفن أيضاً الجبليون Ghibelline نسبة إلى قرية Waiblingen في إقليم سوابيا. وعلى ذلك أصبح أمامنا هنرى المتكبر زعيم الولفيين، وكونراد رعيم الجبليين، ولما كان هنرى رجلاً قوياً فقد خشى النبلاء قوته وسيطرته عليهم، وهو ما كانت تراه الكنيسة أيضاً، لذلك إختار النبلاء كونراد ملكاً عليهم. ومن هنا ظهر التنافس بين الحزبين الولفيين والجبليين، وانتقل صدى هذا التنافس إلى إيطاليا حتى أصبح مفهوماً لديها مع مطلع القرن الثالث عشر أن كلمة الجولف تعنى المعارضة للجبليين أو الهوهنشتاوفن. أما في إنجلترا فقد أصبح مفهوم هذا التنافس يعنى إن الجبليين أو الهوهنشتاوفن هم أنصار الإمبراطورية، أما الجولفيون هم أنصار الباباوية في صراعها مع الامبراطورية، ولعل الأحداث التي وقعت في عهد أسرة الهوهنشتاوفن في صراعها مع الباباوية تفسر هذا المفهوم.

كونراد الثالث ١١٣٨ - ١١٥٢م:

قام الصراع بين الجبليين والولفيين مع إعتلاء كونراد عرش ألمانيا، وإذا كان كونراد قد ملك السلطة وكان بوسعه القضاء على هنرى، فإن ولاء الولفيين لزعيمهم هنرى كان أشد من بطش كونراد. وعلى أية حال فقد إتبع كونراد كافة السبل للقضاء على خصمه هنرى، وسادت البلاد حرباً أهلية مع بدايات عهد كونراد. وكان لهذه الحرب أثرها الكبير على ألمانيا في الداخل والخارج. ونجح كونراد في أول الأمر فانتزع بافاريا من

هنرى ، وخطط لضم سكسونيا . ومات هنرى المتكبر فجأة فى عام ١١٣٩م أى بعد عام واحد من تولية الملك كونراد ، وإرتاح كونراد لموته ، ولكنه إصطدم بعناد أهل سكسونياالذين ناصروا أسرة هنري وساندوا أبنة هنرى الاسد الذى كان فى العاشرة من عمره ونصبوه دوقاً على سكسونيا ، وظل العداء مشتتلاً حتى عام ١١٤٢م حين لجأ كونراد إلى الصلح وأعاد الى الولفيين بافاريا وسكسونيا لينقذ بلاده من الحرب الأهلية .

وإذا كان كونراد إصطدم بالحرب الأهلية مع بداية حكمه فى عام ١١٣٨م فإنه إصطدم فى العام الثانى ١١٣٩م بقرارات البابا أنوسنت الثانى Innocent II (١١٣٠ - ١١٤٣م) التى تعطى الباباوية السلطة العليا على رجال الدين فى كل أنحاء اوربا ، فإهتز عرش كونراد فى الداخل والخارج ،ولعل هذا مادفعه الى عقد الصلح مع الولفيين ليتفرغ للباباوية . ولكن كونراد كان أضعف من مواجهة البابا . وحاول كونراد أن يعوض فشله مع الأمراء والبابوية، فخرج فى عام ١١٤٨م ومعه سبعون ألف محارب وإنضم إلى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ومعه لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ - ١١٨٠م)،ولكن الحملة فشلت فشلاً زريعاً وعاد كونراد إلى ألمانيا دون نصر يقوى به على الأمراء والباباوية . ويبدو أن هذا الفشل قد شجع بعض الامراء داخل ألمانيا على تعزيز مركزهم وتقوية نفوذهم، ورغم خضوع كونراد للباباوية بهدف الحصول على اللقب الإمبراطوري، فإنه لم يحصل عليه، فقد مات عام ١١٥٢م وهو فى طريقه إلى روما للحصول على اللقب .

فريدريك الأول بارباروسا Barbarosa (١١٥٢ - ١١٩٩م)

توفي كونراد والتنافس على أشده بين الجبيليين والولفيين ، ولم يكن

من وريث للملك كونراد سوى فريدريك المعروف بالاول فهدأت النفوس ،
ولأن فريديك هذا كان ابن فريدريك دوق سوابيا أخ كونراد ، وأمه هي
جودث Judth أخت هنري المتكبر وعمة هنري الاسد . وهكذا أصبح تعيين
فريدريك ملكاً على المانيا مرضياً للطرفين المتصارعين .

عرف فريدريك باسم يارباروسيا نسبة الى لحيتة الحمراء ، وكان ذا
عقلية ناضجة وعزيمة ماضيه ، ومن حسناته أنه عمل لخير المانيا وأخى بين
الجبليين والجلوفيين وجنب البلاد فوضى الحرب الأهلية ، وأعاد الى اسرة
هنري الاسد دوقتي بافاريا وسكسونيا . وتطلع فريدريك الى اللقب
الامبراطورى منذ إعتلائه العرش ، ولكنه كان مضطراً لانتهاء الحرب
الأهلية التى ورثها من أبيه ، وما أن إنتهى من تسوية أحوال المانيا حتى
وافته الفرصة بدعوة البابا يوجين الثالث (Eugius III) (١١٤٥ -
١١٥٣ م) لمساعدته ضد أهل روما والنورمان نظير حصول فريدريك
على التاج الامبراطورى . واتجه فريدريك الى روما عام ١١٥٤م حيث كان
يوجين قد مات وتولى عرش الباباوية هادريان الرابع (Hadrian IV) (١١٥٤ -
١١٥٩ م) . وعند إجراء مراسيم التتويج تفاضى فريدريك من إمساك
زمام جواد البايا ومساعدته على النزول الى الارض .

تعقد الموقف ونزل البابا عن على فرسه بمفرده ، ورفض منح اللقب
الامبراطورى للملك فريدريك . وظل الحال يومين دار خلالها نقاش بين
رجال الملك والبابا وفى نهاية الامر رضخ الملك لطلبات البابا ، وأعيدت
مراسيم التتويج من جديد وأمسك فريدريك بزمام جواد البابا طبقا للتقاليد
المتبعة فى مثل هذه الحالات وتمت مراسيم التتويج فى يونيه عام ١١٥٥م .
بعد تتويج فريدريك إمبراطوراً أصبح أقليم لمبارديا تابعاً له ، لذلك
أرسل الامبراطور حكاما من قبله ليصرفوا شؤون البلاد للمباردية .

ورضخت بعض المدن للأمر واعترض بعضها وعلى رأسها مدينة ميلانو ، ولم يكن أمام فريدريك إلا أن يفرض سيادته بحد السيف ، فخرج فى عام ١١٥٨م ليخضع البلاد الرافضة لسيادته ، ويرى البعض أن فريدريك كان يقصد من وراء ذلك أيضاً السيطرة على المدن البحرية الإيطالية لتكون فى خدمة التجارة الألمانية فى حوض البحر المتوسط .

وجاءت المشكله عندما فرض فريدريك سيطرته على الاراضى الباباوية فاعترض البابا على هذا الأجراء الذى أعتبره مقدمة لفرض نفوذ فريدريك على حقوق البابا ، ولم يعبأ الامبراطور باعتراض البابا ، فرد الاخير بإنزال قرار الحرمان على الإمبراطور . وجلت القلوب لهذه الاحداث ولكن فريدريك لم يتراجع وبدأ بالزحف الى ميلانو باعتبارها زعيمة للقوى المعارضه ، وحاصرت القوات الألمانية مدينة ميلانو وظل الحصار حوالى ثلاث سنوات ، واخيراً إستولى عليها فريدريك بعدما أهلكتها المجاعة ، ولم يكتب الامبراطور بسقوط المدينة بل أضرم فيها النار .

خشيت و غضبت بقية المدن الايطاليه من هذا التصرف الذى ربما لحق بها فى القريب العاجل ، فكونت هذه المدن حلفاً فى أواخر عام ١١٦٨م وعرف هذا الحلف بأسم العصبة اللمبارديه Lombard League .وتصدت هذه العصبة لقوات الامبراطورية وانتصرت عليها فى عدده مواقع منها معركة لينانو Legnano عام ١١٧٦ م ، وفى العام التالي عقد صلحاً بين البابا وفريدريك عرف باسم صلح البندقية ١١٧٧ م . وعلى أثر ذلك أصبح للمدن الايطاليه الحكم الذاتى وتفككت العصبة اللمبارديه ، واحتفظ الامبراطور فريدريك بالسيادة الأسميه على هذه المدن .

ومن ذلك يتضح أن فريدريك لم يوفق تماماً فى ايطاليا ، ولكنه عوض ذلك فى بعض الجوانب الاخرى فى أوربا ، فقد نجح فى تدعيم سلطانه فى

هنغاريا وبوهيميا وبولندا ، وكما أنه نجح فى ان يكون له الحق فى تعيين بعض رجال الدين ، وتطلعت آمال فريدريك الى أبعد من أوروبا لعله كان يرغب فى بعث للامبراطورية الرومانية بمساحتها القديمة ، فخرج فى عام ١١٨٩م على رأس القوات الالمانية التى قدرها البعض بحوالي مائه ألف ، واتجه ليصل الى الاراضي المقدسه براً عبر آسيا الصغرى لينضم الى هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة وعلى رأسها ريتشاد الاول قلب الاسد ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، ولكن أحلام فريدريك لم تتحقق ، فلم يكون الامبراطوريه التى حلم بها ، ولم ينضم لقوات الحملة الثالثه ، فقد مات غريقاً فى نهر سالف Seleph فى إقليم قيليقيه بأسيا الصغرى عام ١١٩٠م

هنرى السادس ١١٩٠ - ١١٩٧م

خلف هنرى والده فريدريك على العرش وفكرة الامبراطورية الرومانية العالمية لا تبرح عقله ، ونجح فى ذلك نجاحاً ملموساً ، فقد تمكن من اخضاع ايطاليا عدا الممتلكات الباباوية حتى لا يجر على نفسه المتاعب ، وليجد فى الباباوية سنداً له ، ثم وسع ممتلكاته جنوباً وضم جنوب ايطاليا وصقلية وانهى الحكم النورمانى بهما . وبقضائه على الحكم النورمانى يكون هنرى قد قضى على أقوى حلفاء الباباوية . واذا كان ما نجح فيه هنرى السادس بالحرب ، فإنه نجح فى مجالات اخري دون حرب ، فقد طلبت إمارة انطاكية الصليبية الخضوع للامبراطورية باعتبار أن الامارة نورمانية الاصل ، وأن زوجته كونتسانس هى الوريثه لعرش النورمان فى صقلية وايطاليا . كما طلبت مملكة قبرص الشئ نفسه وكذلك إمارة قيليقيه الأرمينية . وعندما وقع ريتشاد أسيراً فى ايدي ليوبولد Leopold دوق النمسا أثناء عودته من الحملة سلمه إلى هنرى

السادس الذى إحتفظ به مده عامين، وجمال بخاطر هنرى السيطره عسكريا على الامبراطوريه البيزنطية ، كما تطلع الى فرنسا وأسبانيا ، وتصور نفسه حاكما على الامبراطورية الرومانيه بعد بعثها . وأعد قواته للخروج بحمله صليبيه الى الاراضى المقدسه ، وقد وصلت الحمله الي الشام ولكن هنرى لم يلحق بها فقد مرض ومات فى صقلية عام ١١٩٧م ، بعد أن حكم الامبراطوريه الرومانيه المصغره لمدة سبع سنوات ، وعن عمر بلغ الثلاثه والثلاثين فقط .

فريدريك الثانى ١٢١٢ - ١٢٥٠م

كان فريدريك الوارث الوحيد للامبراطور هنرى السادس ، وكان فريدريك فى الثالثه من عمرة آنذاك ، لذلك دبت الفوضى فى أنحاء المانيا قرابة عشرين عاماً تنازع السلطه خلالها الحزبان القديمان الولىف والهوهنشتاوفن ، ورشح الولىفيون أوتوآف برونزىك Otto of Brunswick (١١٩٧ - ١٢١٢م) ويعرف ايضا باوتو الرابع . كما رشح الهوهنشتاوفن فيليب دوق سوابيا (١١٩٧ - ١٢٠٨م) ويعرف ايضا باسم فيليب الرابع . وادعى كل منهما الحق لنفسه فى حكم الامبراطوريه .وقامت الحرب الاهليه بين الحزبين ، ولعبت السياسه الباباويه والفرنسيه والانجليزيه دوراً كبيراً فى هذا الصراع حتى عام ١٢٠٨م حيث مات فيليب الرابع . وهدأت الاحوال نسبياً حتى عام ١٢١٢م ، عندما حكم أوتو الرابع بدعم من البابا أنوسنت الثالث ولما بلغ فريدريك سن الرشد إشتعلت الحرب مره اخرى وأنتهت بانتصار فريدريك بعد ما تخلى الباباعن أوتو، وساعد فريدريك الذى ظل تحت وصاية البابا منذ موت ابيه .

واذا جاز لنا ان نصف الامبراطور فريدريك فى أسطر قليله ، وفى ذلك ظلم له ، فيمكن القول أن فريدريك كان محارباً وسياسياً مثقفاً لدرجة

عاليه ، مشجعاً للعلوم بدرجة تفوق ثقافته وجنديته . فقد تحدث فريدريك بلغات متعددة ، ونظم الشعر ، وشجع العلوم والفنون ، وله افكاره فى الفلسفه والطب والهندسه وعامل رعاياه معاملة بعيدة عن التعصب فكان منهم المسلم والمسيحى واليهودى وتكلم اللغه العرييه وبدا وكأنه شرقى العادات ، هذا بالاضافه الى حماسه للتجديد والثوره على القديم ، ولا عجب أن وصفه المؤرخ متى الباريسى Matthew Paris بأنه العجيب الذى بدل الدنيا وأثار إعجابها - *Mundi et immutater mirabilis* أو اعجوبة العالم . ومن العجيب أن نجد مثل هذا الامبراطور قد فشل فى مجال السياسه فى نظر معاصريه ، ويرجع ذلك الى آرائه المتقدمة لعصره التى أدت إلى اصطدامه بالكنيسه وعلى رأسها البابا أنوسنت الثالث وهونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) وجريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) .

والاسباب المباشرة لهذا الصدام ترجع الى عدة عوامل منها ، أن الامبراطور فريدريك عمل على ضم ايطاليا وصقلية للتاج الامبراطورى ، ولكن الباباوية وبعض المدن الايطاليه وجدت غير ذلك ، ونجحت الباباوية ومن يؤيدها فى النهاية .

ومن أسباب الصدام أيضاً موقف الامبراطور من الحملات الصليبية فهو الرجل الذى حكم العقل قبل السيف ، وكان لا يرى استخدام العنف طالما وجد سبيلاً " لغير ذلك . والمهم أن فريدريك تخلف عن قيادة الحملة الصليبية الخامسة كما سبق أن وعد بذلك ، ثم خرج على رأس قواته بالحملة الصليبية السادسة بطريقة لم ترض عنها الباباوية ، وكان لذلك كله عواقب وخيمه على الامبراطور .

وموجز هذه الاحداث أن الحملة الخامسه (١٢١٨ - ١٢٢١ م) استعدت للرحيل بعد أن اقسم فريدريك فى حماسه الشباب - لارضاء

الباباوية - بقيادتها ، ولكن إعتذر ووعده بالتحاق بها . ووعده أكثر من مرة بالسفر ولكن إعتذر كذلك وطلب التأجيل ، وظل هكذا ثلاث سنوات وأكثر حتى منيت الحملة بالفشل فى خريف عام ١٢٢١م ، وحمل البابا والغرب الاروبى مسئولية هذا الفشل للامبراطور ، وصدر ضده قرار الحرمان .

ووعده فريدريك بحملة أخرى ثم أجلها ، وأخيراً خرج بالحملة ولكن الباباوية إعتبرته محروماً من الكنيسة ولا يصح له قيادة حملة صليبية . ورغم ذلك خرج فريدريك بالحملة المعروفة بالسادسة ونجح فى ضم بعض الأراضى المقدسة بالوسائل السلمية الى الاراضى الصليبية ، وصادفت حملته هذه نجاحاً لم تحصل أية حملة صليبية أخرى عدا الحملة الاولى ، ورغم ذلك عاد الى أوروبا ليواجه غضب الكنيسة .

وإصطدم فريدريك مرة اخرى بالباباوية عندما أعاد تنظيم دولته وأقام المجالس العامة التى جمعت نواباً من النبلاء ورجال الدين وأهل المدن ، لان هذه النظم البرلمانية المتطورة فى حقل هذه العصور لم تجد هوى نفس الباباوية والايطالية ، وظنت الكنيسة أن فريدريك يسعى الى هدمها . ولم يجد فريدريك فى الرد على الكنيسة غير مهاجماتها بالحجج والبرهان ، وكتب فى عام ١٢٢٧م أن المسيحية الاولى قامت على الفقر والبساطة وليس لاحد أن يشرع للناس قواعد غير التى شرعها السيد المسيح ، ولكن مثل هذه الكلمات لم يفهمها سوى طائفة الفرنسيسكان التى أسسها القديس فرانسيس أف اسيس ST . Francis Of Assisi ، وهى الطائفة التى نادى بمثل هذه المبادئ فى هذه المرحلة . وظل الصدام بين الباباوية والامبراطور حتى مات عام ١٢٥٠م ، بعد أن خلف وراءه إسماء لازال الناس يختلفون فى تقديره بين العظمة والعبقرية والإلحاد .

رودلف الاول ١٢٧٢ - ١٢٩١ م (هابسبورج)

واذا كان قد سبق عهد فريدريك الاول عشرون عاماً من الفوضى ، فقد لحقه ايضاً اكثر من عشرين عاماً من الاضطراب ، وهى الفترة الممتدة من ١٢٥٠م وحتى ١٢٧٢م ، فبعد وفاة فريدريك تولى عرش المانيا ابنه كونراد الرابع Conrad IV ١٢٥٠ - ١٢٥٤ م ، ولكنه وجد معارضة من وليم كونت هولندا William count of Holland ، وقد ساد هذه المرحلة فتره من الحروب الاهلية داخل الامبراطورية الرومانية . وبعد وفاة كونراد تم انتخاب ابنه كونرادين Conradin ولكنه مات فى عام ١٢٥٦ م ، ثم مات ايضاً وليم كونت هولندا . وانقسم الألمان إلى قسمين ، فقد رشح القسم الاول الايرل الانجليزى ريتشارد أف كورنول - Richard of Cornwall ، ورشح الجانب الثانى الفونسو العاشر Alfonso X ملك قشتاله (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) . وهنا سادت الفوضى ألمانيا وأصبح من الصعب السيطرة على الموقف . وعرفت الفترة هذه وحتى عام ١٢٧٢ م باسم عصر الفوضى الكبرى . واستغل الاقطاع هذه الاوضاع وقوى من نفوذه ، وسيكون لذلك أثراً كبيراً على المرحلة التالية فى ألمانيا .

وفى عام ١٢٧٢م تم إنتخاب رودولف أف هابسبورج Rudolph of Habsburg ليبدأ عصر أسرة الهابسبورج التى ظلت سلالتها تحكم ألمانيا حتى الحرب العالميه الاولى . ويرجع أصل هذا الاسره الى مدينة هابس Habs التى تقع فى دوقية سوابيا Swabia ، وقد أصبح لهذه الاسرة شأن كبير منذ عهد الامبراطور فريدريك بارباروسا . وكان للباباوية دخلا كبيراً فى تولى رودلف عرش الامبراطورية لانه كان يخشى من تفكك ألمانيا مما يؤدى الى توسع فرنسا فى ألمانيا وكذلك توسع شارل الاول أف أنجو Charles of Anjou حاكم صقلية (١٢٦٦ - ١٢٨٥م) .

تولى رودولف عرش المانيا وهو فى الخامسة والخمسين من عمره وحكم من (١٢٧٢ - ١٢٩١ م) ، والواقع أن رودولف حكم ألمانيا فى فترة صعبه فى تاريخ البلاد . وكان عليه أن يعيد النظام داخل المانيا بعد فترة الاضطراب والحروب الاهلية الى سادتها لاكثر من عشرين عاماً . ويمكن التعرف على هذه الصفحات على بعض المشاكل الداخلية والخارجية التى عاجها رودولف . والمشكلة الاولى كانت تحديد موقفه من الباباوية حتى يمكن معالجة بقية المشاكل ومنها الفونسو العاشر الذى رفض ان يتنازل عن لقب إمبراطور الامبراطورية الرومانية، ومواجهة التمرد الذى أعلنه أوتوكار Otokar ملك بوهيميا . وفي البداية سعى رودولف إلى كسب رضاء الباباوية باعتبارها قد ساندته فى تعيينه إمبراطوراً على ألمانيا ، وثانياً أن مساندة البابا الروحية سيكون لها أثرها على المشاكل الاخرى . وقد تم ترتيب مقابله بين البابا جريجورى العاشر Gregory X (١٢٧١ - ١٢٧٦ م) خاصة أن هذا البابا قد رفض استقبال رسل الفونسو العاشر المطالب بعرش المانيا ، وعقد اللقاء فى مدينة لوزان Lausanne عام ١٢٧٥م ، وفى هذا اللقاء تم الاتفاق على ذهاب رودولف إلى روما لتقبل التاج الامبراطورى . كما قبل رودولف أن يتولى قيادة حملة صليبية للتوجه الى الشام ، كما تنازل رودولف عن حق الامبراطورية فى ايطاليا وإعترف بشارل أف أنجو ملكاً على نابلي وصقلية .

وبعد أن إطمأن رودولف وحصل على رضاء الباباوية أستدار إلى التمرد الذى يقوم به أوتوكار ملك بوهيميا . و ترجع مشلكة أوتوكار إلى أنه طلب أن يكون له دوراً فى إنتخاب حاكم المانيا الذى تم فى عام ١٢٧٢م ، وفيه تم إنتخاب رودولف ولكن الجميع تجاهلو طلبه ، وعلى ذلك رفض الاعتراف بنتائج الانتخابات التى أسفرت عن تولى رودولف عرش المانيا . ومن مركز القوه الذى تمتع به رودولف بعد مساندة الباباوية أقدم رودولف على خطوة عملية ودعا أوتوكار إلى اجتماع فى عام

١٢٧٤م ولكن الأخير لم يحضره فحدد إجتماعاً آخر فى العام التالى ، ولم يحضرة أوتوكار أيضاً . وعند هذه المرحلة لم يقف رودولف مكتوف الايدى خاصة أن ملك بوهيميا إحتل إقليم النمساوستيريا Styria وبعض اقاليم اخرى . لم يعد هناك أمام رودولف إلا إستخدام القوه العسكريه لحسم هذه المشكله ، ولعبت العرقية دوراً فى هذه الحرب ، فقد التفت حول رودولف جميع العناصر الألمانية لمقاومة تمرد أوتوكار ملك بوهيميا السلافى العرق . وخرج رودولف يقود الجيش الامبراطوري فى عام ١٢٧٦ م . وعند هذه المرحلة أدرك أوتوكار أنه سيخسر الحرب خاصة بعد ما إستسلمت مدينة فيينا ، فبدأ بعرض الصلح على الملك الألمانى ، وقد وافق الأخير على صلح عقده فى نهاية العام . وبموجب هذا الصلح إحتفظ أوتوكار ببوهيمياومورافيا وتنازل عن بقية الاراضى التى استولى عليها . وكلل هذا الصلح بأن زوج أوتوكار أبنته إلى ابن رودولف ، كما تزوج ابن أوتوكارمن إحدى بنات رودولف .

لم يستمر هذا الصلح سوى عامين فقط ، فقد تجددت الحرب بين الطرفين مرة أخرى ، ولم تكن الحرب فى بداية الامر فى صالح رودولف ولكنه نجح فى كسب هنغاريا إلى جانبه وبعض العناصر الاخرى ، وتمكن فى النهاية من كسب المعركه لصالحه ، وفى موقعة مارخفيلد Marchfeld التى وقعت فى أغسطس عام ١٢٧٨م إضطر أوتوكار للاستسلام وأجبر على تسليم كل الأراضى التى إستولى عليها ، على أن يحتفظ بإقليم بوهيميا كإقطاع من رودولف . وبعد أشهر قليلة نقض أوتوكار الصلح وتقدم بقواته وغزا اراضى النمسا وتقدم رودولف اليه وقتله فى ساحة القتال . وهنا بدأت الاوضاع تأخذ طريقها إلى حد ما فى الاستقرار داخل المانيا .

ومن أجل أستقرار حكم الامبراطورية الرومانيه فى النمسا قام رودولف بتوزيع أراضيهما بين ولديه ، ثم زوج أبنه البرت إلى وريثة دوقية النمسا ، ويعتبر ضم النمسا إلى أراضى الامبراطوريه من أهم الأعمال التى قام بها

رودولف . ومن أعماله أيضا أنه قام ببعض المحاولات من أجل تقوية السلطه المركزيه ونشر السلام داخل ألمانيا ، ومات رودولف فى عام ١٢٩١م بعدما أقام حكماً لاسرة ها بسبورج على رأس الامبراطورية الالمانية .

أدولف أف ناسو (١٢٩١ - ١٢٩٨م)

والحقيقه أن بيت هابسبورج كان قوياً للغاية عند وفاة رودولف . وعندما رشح البرت بن رودولف لعرش الامبراطوريه ، خاف النبلاء من سطوة البرت وإختاروا أدولف أف ناسو Adolph of Nasau باعتباره رجلاً طعيفاً لا يخشى منه . ويلاحظ هنا أن ولاية العرش فى الامبراطورية كانت انتخابية وليست وراثيه ، ورغم هذا لم يقف البرت مكتوف الايدى ، ولم يستسلم لنتائج الإنتخاب وأعلن الشوره علي ادولف، وظل الصراع متقطعاً لمدة سبع سنوات ظل خلالها أدولف متمسكاً بحقه فى تاج الامبراطورية الرومانية .

والمهم هنا أن أدولف ، وبعد أن توج فى مدينة أكس لاشابل (آخن) ،حتى ظهرت تطلعاته وتنكر للوعود التى قدمها لكبار الامراء ورجال الدين . وبدأ عهده بقيادة حملة ضد البرت وأجبره على تقديم الولاء وتسليم شعار الإمبراطورية . كما بدأ فى جمع صغار الملاك حوله لمساندته أمام كبار الاقطاعيين . وتطلع أدولف لأبعد من ذلك وأراد أن يجعل من نفسه نصيراً للوحدة الالمانية وإعادة أراضيها السلبية خاصة مقاطعة برجانيا التى تعرضت لاطماع فرنسا واصبحت تابعة فقط لالمانيا من الناحية الاسمية .

وعلى ذلك استغل أدولف الحرب التى كانت دائرة بين انجلترا وفرنسا

وتقرب إلى الملك الانجليزي إدوارد وعقد معه معاهدة في عام ١٢٩٤م تعهد الطرفان بموجبها مواصلة الحرب ضد فرنسا . والواضح أن هذا التصرف كان تصرفاً ذكياً من أدولف لأن فرنسا كانت تسعى جاهده للسيطرة على الممتلكات الانجليزية في الاراضي الفرنسية ، ولذلك تقابلت المصالح الالمانية الانجليزية ضد فرنسا .

والواقع أن الامراء الالمان لك يكن يعينهم في هذه المرحلة سوى تأكيد نفوذهم الاقطاعية وعدم مساس الحكم الالمانى بحقوقهم داخل اقطاعياتهم ، ولذلك لم يساندو أدولف في اطماعه . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا يدرك ذلك دائماً ، كما أنه ادرك الصراع الدائر بين أدولف ومعه صغار الاقطاعيين ضد كبار الامراء ، وبدأ فيليب في إثارة الخلاف وعوامل الانشقاق داخل المانيا ، ولكن البابا بونيفاس الثامن الذى كان يعنيه واحده أوربا لاستغلالها في حروب صليبية والتحالف مع المغول لإستعادة الأراضى المقدسة في بلاد الشام، تدخل بين أدولف وفيليب ونجح في عقد الصلح بينهما دون أن تحصل ألمانيا على بروجانديا .

أحس كبار الأمراء أن ما يقوم به أدولف ليس في صالحهم، وهنا ثارت مخاوفهم وإلتفوا حول ألبرت بن رودولف حاكم دوقية النمسا وساندوه ضد أدولف ، وتشجع ألبرت بموقف كبار الأمراء وإتصل بملك فرنسا عدو أدولف، كما تحالف ألبرت مع ونسسلاس Wenceslas ملك بوهيميا، وتطورت الأمور حتى دعا رئيس أساقفه مدينة مينز إلى اجتماع في مدينة فرانكفورت حضره كبار الأمراء، وفي هذا المؤتمر تم عزل أدولف عام ١٢٩٨م وإنتخب مكانه إلبرت بن رودلف. لم يستلم أدولف لهذه النهاية وتقدم بقواته لمقاتله ألبرت، ودارت معركة قتل فيها أدولف وأصبح ألبرت ملكا دون منازع .

ألبرت الأول (١٢٩٨ - ١٣٠٨ م)

كان رجلاً عسكرياً قديراً وحاكماً ممتازاً، وعرف في التاريخ بقسوته وصرامته، ولعبت تصرفات البابا بونيفاس دوراً كبيراً في توجيه سياسة ألمانيا في تلك المرحلة، فقد رفض البابا الاعتراف بألبرت حاكماً على ألمانيا، لذلك لجأ إلى التحالف مع فيليب الرابع ملك فرنسا عدو البابا، وبهذا التحالف يكون ألبرت قد تنازل عن حقه في إقليم برجانديا. وأيد هذا التنازل قوة التقارب بين ألبرت وفيليب عندما إلتقيا في أواخر عام ١٢٩٩م، حيث تم الاتفاق على زواج رودولف بن البرت إلى الاميرة الفرنسية بلانش Balnehe .

وفي السياسة الداخلية سار ألبرت على مناصرة المدن لضرب الاقطاع الذي يمثله كبار الأمراء. ولما كان مصدر قوة هؤلاء الأمراء يكمن فيما فرضوه من ضرائب جديدة في عصر الفوضى الذي أعقب وفاة الامبراطور فريدريك، لذلك أصدر ألبرت مرسوماً ألغى به جميع الضرائب التي صدرت بعد عام ١٢٥٠م، وعند هذه المرحلة شعر الامراء بالخطر الذي يحيط بهم فتكثروا ضد البرت وساندهم في ذلك بعض كبار الأساقفة، ولكن ألبرت وجه ضربات متلاحقة لهؤلاء وأجبرهم على إلغاء الضرائب التي فرضوها على الأهالي والاعتراف بحق حكام المدن في منح إمتيازاتها وولايتها على المواطنين الذين يسكنون حول المدينة، ومن المشاكل التي تصدى لها ألبرت مشكلة وراثة العرش في كل من بوهيميا وهنغاريا، وهي المشكلة التي كانت سبباً في مقتله في عام ١٣٠٨م على يد ابن أخيه يوحنا.

آل لكسمبورج : هنري السابع (١٣٠٨ - ١٣١٤)

بعد أن لقي ألبرت مصرعه إستبعد الامراء آل هابسبورج وتم إختيار

هنرى السابع أمير مقاطعه لكسمبورج ملكاً على ألمانيا ، وبذلك دخل تاريخ ألمانيا حاكماً جديداً من لكسمبورج . ولم يكن فى وسع آل ها بسبورج أن يفعلوا شيئاً بعد الصدمة التى تلقوها بموت ألبرت المفاجئ سوى الاعتراف بالملك الجديد مقابل الاعتراف بما تحت سلطانهم من أراضى وممتلكات .

والمهم هنا أن ألمانيا سوف تشهد مرحلة جديدة من الصراع الداخلى بين آل هابسبورج وآل لكسمبورج وما سيكون لذلك من نتائج على السياسة الألمانية الداخلية والخارجية .

وفى السياسة الداخلية فقد تقرب هنرى إلى كبار الامراء ، وذلك بالغاء الامتيازات التى كان ألبرت قد منحها للمدن ، ومعنى ذلك أن صغار الملاك وحكام المدن قد أصبحوا فى جانب ، وأن هنرى وكبار الملاك قد أصبحوا فى جانب آخر. كما أراد هنرى أن يقوي من مركز أسرته فى الحكم ، فاستغل فرصة الثورة التى قامت فى بوهيميا ، وانتهت بطرد ملكها هنرى أف كارنثيا Henry Of Carinthia فى عام ١٣١٠م ، وزوج إبنة يوحنا من اليزابيث إبنة حاكم بوهيميا السابق ونسسلاس .

أما فى السياسة الخارجية فقد ارتبط بإيطاليا كثيراً ، وكانت البداية عندما أراد أن يحصل على التاج الإمبراطوري ، ولذلك أنشغل ثلاثة أعوام ١٣١٠ - ١٣١٣م حتى حصل على أملاك التاج فى مدينة بافيا ، وأقام نائباً له فى مقاطعة لمباردى ، ثم تحالف مع حاكم مدينة ميلان ، واتجه بعد ذلك إلى روما حيث توج فى كنيسة القديس بطرس فى التاسع والعشرين من يونية عام ١٣١٢م . وبعد ذلك إتجه إلى الشمال وحاصر مدينة فلورنسا دورج نجاح ، والنتيجة العامة لذلك كله فى ايطاليا كانت ضياع أمل الجبليين خارج ايطاليا ، ومن فلورنسا إستعد هنرى لشن

الحرب على مدينة نابلي ولكنه مات قبل أن يكمل حملته . والمهم هنا أن حملات هنرى على ايطاليا كانت فاشله ولم تعد بالنفع على ألمانيا ، ووفاته عاد الصراع داخل ألمانيا على عرش البلاد وأنتهز فيليب الرابع ملك فرنسا هذه الاوضاع وأمن وجوده داخل مدينة ليون التى أستولى عليها من ألمانيا فى عام ١٣١٠ م .

لويس الرابع ١٣١٤ - ١٣٤٧ م

ظل الصراع على العرش داخل ألمانيا أكثر من سبع سنوات ، ويرجع هذا الصراع إلى عاملين رئيسيين ، أولهما : عدم وجود ملكيه مركزيه قويه تسيطر على طموح كبار الامراء ، والثانيه عدم وجود قواعد ثابتة يتم بموجبها إنتخاب أو إختيار الملك . وقد ترتب على العامل الثانى أنه عند وفاة هنرى السابع إجتمع الأمراء لإنتخاب الحاكم الجديد ، وكان هناك مرشحان رئيسيان . الاول هو الابن الأصغر للملك الراحل هنرى وهو يوحنا ملك بوهيميا (١٣١٣ - ١٣٤٦م) من آل لوكسمبورج ، والثانى فريدريك حاكم النمسا ، وهو ابن ألبرت الاول من آل هابسبورج . ثم ظهر على الساحة مرشح ثالث وهو لويس دوق بافاريا الذى هزم فريدريك فى نوفمبر من عام ١٣١٣ م . وبدأ آل لكسمبورج فى مساندة لويس باعتبارة رجلاً قوياً يستطيع أن يقف أمام مرشح آل لكسمبورج . وقد أسفر الانتخاب عن حصول لويس على خمسة أصوات ، بينما حصل فريدريك على اربعة أصوات وأصبح الصدام العسكري ضروريا لحل هذه المشكله . وظل الصراع حتى سبتمبر من عام ١٣٢٣ م ، وانتهى بانتصار لويس فى معركة مولدورف Muhl Dorf الذى عرف فى تاريخ ألمانيا باسم لويس الرابع . وكان من أهم مظاهر حكم لويس الرابع هو الصراع بينه وبين الباباوية ، فقد استغل البابا فترة الصراع فى ألمانيا وتدخل فى الشئون

الإدارية الألمانية في ممتلكاتها في إيطاليا ، وعين روبرت الأول ملك نابلي (١٣٠٩ - ١٣٤٣ م) نائياً للإمبراطور الألماني في إيطاليا . وظل الحال كذلك حتى عهد البابا حنا الثاني والعشرين ، وعند هذه المرحلة التي انتهت بانتصار لويس على فريدريك رأي البابا أن يقوم لويس بعرض القضية بالممتلكات الألمانية في إيطاليا على المحكمة الباباوية في روما ، فرفض لويس وتطور الأمر وأصد البابا قرار الحرمان ضد لويس .

وقد ظهرت بعض العوامل التي أدت إلى إضعاف البابوية وتقوية موقف لويس ملك ألمانيا ، ومن العوامل التي أدت إلى إضعاف البابوية كثرة الخلافات الدينية وحركات الهرطقة داخل الكنيسة الغربية ، وانتهاء الحرب الصليبية التي أستغلها البابويه لتقوية مركزها ، وانتهاء بعض الجماعات العسكرية مثل جماعة الداوية ، والأسر البابوية في أفينون ، ومواقف ملوك وحكام أوروبا من البابوية .

أما العوامل التي أدت إلى تقوية مركز لويس ، فهو الشعور القومي الألماني ، ومن هذه المدخل إجتماع الناخبون الألمان في مدينة رينز Rense في عام ١٣٣٨ م ، وقرروا مبدأ في غاية الأهمية في تاريخ ألمانيا بخاصة وما سيكون له من نتائج على تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، فقد قرروا أن السلطة الزمنية مستمدة من الله مباشرة وأن الحاكم الذي يتم اختياره في ألمانيا ملكاً أو إمبراطوراً يصبح الحاكم الشرعي للبلاد ، بدون موافقة البابا أو أي سلطة دينية أخرى . وقد عقد إجتماع أخر في مدينة فرانكفورت ، وقد أيد المؤتمر الأخير قرارات المؤتمر الأول ، وأصدر عدة قرارات أخرى من شأنها تهدئة الأحوال داخل ألمانيا وتقوية سلطته المركزية ، ثم تحالف لويس مع إدوارد الثالث ملك إنجلترا حتى يتمكن من الوقوف في وجه البابوية .

ورغم هذا كله فإن لويس تراجع فجأة عن موقفه المتشدد مع البابويه

وألقى تحالفه مع ملك إنجلترا ، وتصلح مع فيليب السادس ملك فرنسا (١٣٢٨ - ١٣٥٠ م) ، لعله يستطيع أن يصلح أحواله مع الباباوية ، ولكن هذا التصرف قد أضعف من مركز لويس داخل المانيا ، وظل الحال كذلك في الوقت الذي ظهر فيه التنافس من جديد بين آل لكسمبورج وآل ها بسبورج ، وفي عام ١٣٤٦م أصدر البابا كلمنت الرابع (١٣٤٢ - ١٣٥٢ م) قراراً جديداً يقضى بحرمان لويس من رحمة الكنيسة . وفي الوقت نفسه نصح البابا بإجراء إنتخابات جديدة في المانيا لاختيار حاكم جديد ، وتم إنتخاب شارل حاكم مورافيا Moravia حفيد هنرى السابع وهو من آل لكسمبورج ليتولي الحكم في المانيا . وعلي أثر هذه التطورات وقعت معركة كرسى Crecy في أغسطس عام ١٣٤٦م ، هزم فيها شارل حاكم مورافيا ، وفر من أرض المعركة . وقد أضعف هذا التصرف من مركز شارل وقوي من مركز لويس ولكن الاخير مات في اكتوبر عام ١٣٤٧م

شارل الرابع ١٣٤٧ - ١٣٧٨م :-

عند موت لويس أصبح عرش المانيا مهياً لان يتولاه شارل الرابع ، والحقيقه أن ذلك يرجع إلى موقف الباباوية بالاضافه الي مساندة بعض الامراء . ويرى البعض أن شارل الرابع يعتبر من أعظم الحكام الذين تولوا حكم بوهيميا ، ولكنه لم يحكم الامبراطورية بالنجاح الذي حكم به بوهيميا . ولعل ذلك مرجعه إلى مرض الوباء الاسود الذي هدد العالم في الفتره من ١٣٤٨ - ١٣٤٩م وما كان لهذا المرض من تأثير على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بعد أن مات بسببه أكثر من ثلث السكان في أوربا .

والواقع أن عهد شارل تميز بحدث هام وقع في عهده ، وهذا الحدث هو

صدر المرسوم الذهبى Golden Bull فى عام ١٣٥٦م . وقد وضع هذا المرسوم القواعد المنظمة لانتخاب أباطرة المانيا دون تدخل الباباوية أو الرجوع اليها ، وقد حدد المرسوم سبع شخصيات فقط فى انتخاب الامبراطور وهم روساء أساقفة مدينة كولونيا ، ومينز ، وتزيف ، وملك بوهيميا ، ودوق بافاريا ، ودوق سكسونيا وأمير براندنبرج -Brandenburg ، وقضى المرسوم أن يتم الانتخاب فى اجتماع يعقد فى مدينة فرانكفورت ، وأن يتم التتويج فى مدينة أكس لاشابل . وقضى المرسوم أيضاً على أنه فى حالة إختيار أى ملك أو أمير من الولايات أو المدن السبع فإن أرضه تؤول إلى أبنة الأكبر فقط دون منازع حتى تظل وحده المملكه ثابتة ولا تتعرض للانقسام .

ومن الطبيعى أن يعلن البابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢م) عدم رضاه عن هذا المرسوم ، ولكن شارل الرابع لم يبال بموقف الباباوية ، وبذلك أنقطعت الصلة بين الامبراطورية الرومانية والباباوية التى كانت من قبل هى صاحبة الحق الوحيد فى منح اللقب الامبراطورى لحاكم ألمانيا ، وهى الدولة الوحيدة فى أوروبا التى تمسك بهذا اللقب بعد شارلمان .

وتغلبت عاطفه الابوه على شارل الرابع ، فرغم أن المرسوم الذهبى ينص على وراثة الابن الأكبر لابه خشية تفتيت المملكه ، إلا أن شارل قام بتقسيم أملاكه بين أولاده . وقد أدى هذا فى النهاية إلى إضعاف آل لكسمبورج وسيكون لذلك أسوء الأثر على الأسرة بعد ذلك .

ونسلاس (١٣٧٨ - ١٤٠٠م) ونهاية آل لكسمبورج :-

لقد عهد شارل لابنه ونسلاس قبل وفاته ، ففى عام ١٣٧٦م قامت هيئة الانتخاب بانتخابه ثم توج فى العام نفسه إلى جانب والده ، ولكن

ونسلاس كان لاهياً مستهتراً فعزل في عام ١٤٠٠م ، وأعقبت ذلك فترة من الاضطرابات دامت حوالي عشر أعوام إنتهت بتولى أخيه سيجيسموند Sigismund حاكم هنغاريا حكم الامبراطورية منذ ١٤٠١م ثم مع بوهيميا منذ عام ١٤١٩م وحتى عام ١٤٣٧م . وقد مات دون وريث ذكر فخلفه البرت الثاني من بيت هابسبورج الذي حكم لمدة قصيرة ١٤٣٨ - ١٤٣٩م ، وتولى بعد ابنه فريدريك الثالث (١٤٣٩ - ١٤٩٣م) . وقد ساعدت الفترة الطويلة التي حكمها فريدريك الثالث في التمكين لآل هابسبورج بالسيطرة على البلاد وظل اللقب الامبراطوري مقصوراً على آل ها بسبورج حتى عام ١٨٠٥م عندما وضع نابليون نهاية الامبراطورية الرومانية .

رابعاً: الباباوية في القرن الثالث عشر

البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م)

في الوقت الذي ظهر فيه المغول في اسيا ، كان البابا إنوسنت الثالث يجلس على عرش الباباوية في روما . وكان هذا البابا على درجة واسعة من العلم والمعرفة . إذ درس اللاهوت في باريس كما درس القانون في بولونيا ، ولم يكن لملوك أوربا وأباطرتها المعاصرين له قوته وبصيرته ، فقد برهن على أنه سياسى ماهر سريع البديهة متطور لمقتضيات الظروف والاحوال ، وكانت آمال أنوسنت الثالث تنحصر في العمل على تسوية كافة مشاكل الممالك ليسودها السلام حتى يتمكن من تسخير كافة القوى الأوربية في غزو مدينة بيت المقدس التي استردها صلاح الدين في السابع والعشرين من رجب ٨٥٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٧٨م) ، خاصة بعد أن فجع أخوه العادل في جمع شمل البيت الايوبي ، وأن يتبوأ مكان الصدارة على عرش مصر التي كانت قوة المسلمين ومعقلهم المنيع ومركز قوينهم بالمال والمؤن والسلاح . وغير خاف أن البابا أنوسنت الثالث كان

يرمى من وراء ذلك إلى رفع شأن الباباوية وأن يكون له السلطة الدينية والدينيوية . وكان في الدعوة إلى الحملة الجديدة فرصة طيبة لتحقيق تلك الامال ، فضلاً عن الهدف البعيد المدى الذي ينحصر في فرض سيطرة الغرب الأوربي على العالم الاسلامي .

لذلك بدأ البابا إنوسنت عهده بالكتابة إلى البنادقة يطلب منهم الا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين المواد الاستراتيجية كالسفن والاسلح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال في الحرب ، وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقيع أشد العقاب عليهم . كذلك سارع بالكتابه في عام ١١٩٩م إلى بطريق بيت المقدس الاسمى إمري الراهب Aiemry The Monk (١١٩٧ - ١٢٠٢م) يطلب منه تقريراً مفصلاً عن الحالة في بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بكافة البيانات التي تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض ، كما طلب الشئ نفسه في عام ١٢١٣م من الداوية والاسبتادية ، ويبدو أن هذه التقارير كانت ترسل اليه من أن لآخر . فقد أرسل اليه بطريق بيت المقدس الاسمى أيضاً تقريراً في عام ١٢١٤م ، وقد اشتمل هذا التقرير على معلومات على جانب كبير من الاهمية تضمنت بعض النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية الخاصة بالمسلمين . فمن الناحية السياسية تضمن الحديث عن البلاد التي يحكمها كل من العادل وأولاده الكامل والمعظم ، واشتمل الجانب الاقتصادي الحديث عن النيل وموعد فيضانه وبعض المنتجات الزراعية في مصر ، وعن الناحية الاجتماعية تناول الحديث أحوال المسحيين والمسلمين واليهود وعلاقتهم الطيبية بالمسلمين ، والجانب الخطير في هذا التقرير هو الجانب العسكري ، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها البعض وكان ما تناوله بالتفصيل من المدن المصرية هي مدينة دمياط وعدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسله وكيفية دخول السفن من دمياط التي كانت مفتاح مصر أنا ذاك .

والواضح من هذا أن البابا أنوسنت الثالث كان يضع مسألة الشرق اللاتينى وغزو بيت المقدس نصب عينيه لتحقيق الامال الكبير التى رسمها لنفسه والكنيسة . واذا كان البابا قد استهل عهده بالعمل على دعم الحركة الصليبية التى بدأ يشوبها الفتور ، فان الحوادث التى جرت فى أوربا اثناء توليه كرسى الباباوية ، مكنته من أن يبسط نفوذة على معظم ربوع أوربا تقريبا . واستطاع أن يعلى شأن الباباوية لما قام به من جهد طوال فتره بابويته حتى اصبح السيد الأوحى الذى لا منازع له مما هيا الجو للدعوة للحملة الصليبية الخامسة بعد أن انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها وفشلت فى تحقيق أغراضها .

وكان ظهور حركة الهرطقة من الامور التى شغلت بال الباباوية خاصة بعد أن استفحل أمرها . وحاول أنوسنت فى أول الامر اقناع الهرطقة بالعودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما واتباع تعاليمها ، ولكن مبعوثيه فشلوا فى هذه المهمة . وتعاطف ريموند Raymond كونت تولوز مع الهرطقة وتقبل آراءهم ورفض أمداد الباباوية بالقوة الكافية للقضاء عليهم . وأخيراً أتجه البابا إلى فيليب ملك فرنسا فى عام ١٢٠٤ ، الا أن فيليب كان مشغولاً بصراعه ضد حنا ملك انجلترا . وكرر البابا نداءه لملك فرنسا ١٢٠٥م وأيضاً فى عام ١٢٠٧م دون جدوى .

وتطورت الحوادث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ريموند كونت تولوز لرفضه إعادة الكنائس التى أستولى عليها ، فضلاً عن قيام أحد فرسانه باغتيال مندوب البابا . ولم يطق البابا صبراً على هذا التمرد الذى من شأنه القضاء على النفوذ البابوى فى الممالك الاوربية ، فدعى إلى حملته صليبيه ضد هؤلاء الهرطقة وهى المعروفة بالحمله الالبيجنسيه، وكان على رأس الداعين لها جاك دى قستري James of Vitry الذى عين فيما بعد اسقفاً لعكا (١٢١٦-١٢١٨) ، وجاء مع الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام ١٢١٨م (٦١٥ هـ) وأرخ لها ايضاً .

وقد لبي بعض الامراء دعوة البابا وعلى رأسهم سيمون أف مونتفرت Simon of Montfort الذي تولى قيادة الحملة، واستطاع هزيمة ريموند عام ١٢١٣م ، لذلك كفاءة البابا بأن ولاء بعض الامارات الاقطاعية المجاورة له، وهذا يدل على مدى النفوذ البابوي وسيطرته على السلطة الزمنية . ولم يستطيع فيليب أن يقف مكتوف الايدي ويصم أذانه عما حدث حتى لا تضيع هيبتة أمام البابوية وأوريا فارسل ابنه لويس للمشاركة في هذه الحملة عام ١٢١٣م وقد اعترف سيمون بالتبعية لفيليب ، إلا أن سلوك سيمون بعد ذلك تجاهه جعل فيليب يساند ريموند كونت تولوز في إسترداد أملاكه، ثم قتل سيمون في عام ١٢١٨م .

ورغم هذا نجد أن الغرب الأوربي في أواخر القرن الثاني عشر وبدايات القرن الثالث عشر للميلاد مسرحاً للقلق والاضطرابات والمشاكل الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين وكان على رأس البابوية في ذلك الحين شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا أنوسنت الثالث الذي كان يعتبر نفسه خليفة الله على الارض وأن الحكام والملوك أتباعه وعماله ، وليس أدل على ذلك من مواقفه من ملوك الغرب وحكامه . وقد بلغت البابوية أوج عظمتها وقوتها في عهده بعد أن أصبحت أوريا تحت رحمته وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء .

البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧م)

لعل أهم الأحداث التي وقعت في عهده جانباً من الصراع الذي دار بين الامبراطورية والبابوية التي تضيق هذه الصفحات بذكرها . ومرجع هذا الامر أن الامبراطور فريدريك الثاني قد وعد منذ توليه بعدم ضم

جزيرة صقلية إلى الامبراطورية الرومانية ، كما وعد بعد مجلس اللتيران الكنسى الذى عقد فى عام ١٢١٥ م بالتوجه إلى الاراضى على رأس حملته لتحرير مدينة القدس واستعادتها من أيدي المسلمين بعد أن سقطت فى أيدي صلاح الدين ١١٨٧ م ، ولكنه ماطل ثم توج ابنه هنرى فى ١٢٢٠ م ليكون خليفته فى حكم الامبراطورية وصقلية معاً . ولم يكن فريدريك جاداً فى وعده ولم يلحق بالحملة الصليبية الخامسة التي قدمت إلى مصر وأستولت على مدينة دمياط فى عام ١٢١٩ م . ورغم زواج الامبراطور فريدريك من وريشه عرش مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية ، الا انه لم يتقدم بخطوة عملية لتنفيذ وعده بالذهاب إلى بلاد الشام واستعادة القدس .

وقد ازعجت هذه التصرفات البابا إلى حد كبير يضاف إلى ذلك أن فريدريك إتخذ بعض القرارات التي ترمي للحد من نفوز رجال الدين فى المانيا ، وهو الأمر الذى أزعج الباباويه باعتبار أن رجال الدين يقعون تحت سلطان البابا ، كما أن فريدريك تمسك بكل حقوقه فى اقليم لمبارديا الامر الذى اثار مدن اقليم لمبارديا ، وبدأت تتحالف من جديد ضد الامبراطور ، وعلى أثر ذلك ضاق البابا ذراعاً بتصرفات فريدريك مما مهد لنزاع جديد بين الباباوية والامبراطورية . وما لبث أن توفي البابا فى مارس ١٢٢٧ م .

البابا جرن بجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) :-

كان قد بلغ الثمانين من عمره عند إختياره ليجلس على عرش الباباويه ، ورغم كبر سنه الا انه كان قوى الاراده حازماً ، وأصر على قيام الامبراطور فريدريك بحمله صليبيه إلى الشرق ، وقد أستعد الامبراطور

فريدريك بحملة صليبية ضد بلاد الشام ، وقد إستعد الامبراطور للسفر واتجه إلى مدينة برنديزي الايطالية بنية الابحار إلى عكا ، ولكنه مرض ولم يكمل رحلته . وهنا أعتبر البابا أن الامبراطور يتمارض وغير راغباً في محاربة المسلمين فأصدر قراراً فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٧م بحرمان الامبراطور من رحمة الكنيسة . وكان رد الامبراطور على ذلك أن كتب إلى حكام أوروبا يوضح موقفه وحقوق الامبراطور . ورد البابا على ذلك بأنه أعاد إصدار قرار بالحرمان ضد الامبراطور فى عيد القيامة للعام التالى ١٢٢٨م ولم يبال فريدريك بذلك وأبحر بحملته الصليبية بعد دعوة الملك الكامل له لاستلام بيت المقدس ، ورغم أن الامبراطور قد حقق نصراً كبيراً فى حملته هذه ، الا أن البابا أرسل إلى الصليبيين في بلاد الشام يحذرهم من التعامل مع فريدريك باعتبارها محروماً من رحمة الكنيسة ، ورد فريدريك على ذلك بأن توج نفسه ملكاً على بيت المقدس ، ومعنى ذلك أن فريدريك تلقى التاج من الله مباشرة دون وساطة رجال الدين وعلى رأسهم البابا .

وعاد فريدريك بسرعه إلى برنديزي فانزعج البابا وإعتقد أنه سوف يهاجم مدينة روما ، فاستعد للدفاع عن نفسه ، وأخيراً بدأت المفاوضات بين البابا والامبراطور ، التى أنتهت بما يعرف بصلح سان جرمانو St - Germano الذى وقع فى يوليو عام ١٢٣٠ ، وبموجب هذا الصلح تم رفع قرار الحرمان الذى وقع على الامبراطور واعترف البابا بالمكاسب التى عادت على المسيحيه بعودة بيت المقدس ، وذلك مقابل اعتراف الامبراطور بحق الباباوية فى السيادة على صقلية ، وتعهدته بحماية أملاك الباباوية .

لم يكن ما يحدث سوى هدنة مؤقتة ، لان الباباوية تختلف تماماً في سياستها عن سياسة الامبراطور فريدريك التي ترمي إلى تقوية نفوذ الامبراطور في ايطاليا، الأمر الذي ازعج المدن اللمباردية وجعلها تتحالف ضد الامبراطور ، ولكنها هزمت قرب مدينة ميلان في نوفمبر عام ١٢٣٧م عند مدينة كورتنونا Cortenova. وتدخل البابا للوساطة بين الطرفين ، ولكن فريدريك لم يقبل ذلك فوقف البابا إلى جانب المدن اللمباردية والبنادقة . وتطورت الاحداث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد الامبراطور في يوم عيد السعف عام ١٢٣٩ ، ورد الامبراطور بغزو الاراضي الباباوية في فبراير عام ١٢٤٠م ، وأحس البابا بضعف مركزه بعدما إبتعد عنه من ساندوه ، ولم يجد امامه سوى أن يعلن حملة صليبية ضد الامبراطور.

وفي عام ١٢٤١م دعا البابا رجال الدين في كافة الممالك المسيحية إلى مجلس ديني عام في قصر الاتيران في روما ، وظن فريدريك أن الغرض من إنعقاد هذا المجلس هو إصدار قرار بحرمانه من رحمة الكنيسة كما هو مألوف ، فعمل على منع هذا الاجتماع . ولما كان الترتيب يقضى باجتماع رجال الدين في مدينة جنوة ، فقد عمل فريدريك بمعاونة حلفائه على ضرب السفن الجنوبية حتى لا يتم الاجتماع ، وقد نجح الامبراطور في ذلك حتى أنه تم القبض على بعض رجال الدين ، ولكن فريدريك أفرج عنهم أمام تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بشن الحرب على الامبراطور ، وما لبث أن مات البابا في الحادي والعشرين من أغسطس . وتقلد كلستين الرابع منصب الباباوية حتى نوفمبر من العام نفسه .

أنوستنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤م)

ظل الكرسي البابوي خاليا لمدة تسعة عشرة شهراً . وقد ترك الكرادلة مدينة روما واتجهوا الى مدينة أنياني ، وكان الامبراطور فريدريك وراء هذا التأخير ، وعلى أثر ذلك تكونت عصبة للوقوف في وجه الامبراطور .

وتعهدوا بالدفاع عن الكنيسة وراعيها ، وفى نهاية الامر تم انتخاب أحد الكرادله الجنوبيين ليصبح البابا أنوسنت الرابع . وقد أرسل الامبراطور من جانبه وفداً لتهنئة البابا ولعقد اتفاقيه سلام بين البابا والامبراطور ورفع قرار الحرمان . وقد تم عقد المعاهده بين الطرفين ، ونظراً لمماطلة البابا فى رفع قرار الحرمان لم تنفذ المعاهده . وفى يونيو عام ١٢٤٥م دعا البابا لمجلس عام فى مدينة ليون حضره أساقفه من فرنسا وإسبانيا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ، وإستكلندا وإيرلندا وقليل من المانيا ، وفى هذا المؤتمر جدد البابا قرار الحرمان على الامبراطور فريدريك وعزلة من منصب الامبراطور . وعند هذه المرحلة أرسل الامبراطور الى كل أمراء أوروبا يطلب مساعدتهم . وهنا تدخل الملك الفرنسى لويس التاسع بين الامبراطور والبابا حيث تقابلا فى احد أديرة مدينة كلونى Cluny ولكن البابا رفض بدعوى أن الامبراطور قد أدخل بوعدة .

وتصاعد الموقف عندما كتب البابا رسالة فى الحادى والعشرين من ابريل ١٢٤٦م يطلب منهم اختيار ملكاً آخر لالمانيا وحدد لهم شخصية هنرى حاكم ثورنجيا ، ولكن الامراء الالمان ظلوا أوفياء للامبراطور ، إلا أن بعض رجال الدين وعلى رأسهم أساقفة مدن كلونى ، وتريف ويرمن ومينز وسبير وغيرهم وقفوا الى جانب هنرى فاشتعلت الحرب التى قتل فيها هنرى فى العام التالى (١٢٤٧م) ، وبناء على توجيه من البابا تم إختيار وليم ايرل هولندا ملكا على ألمانيا . وظل الصراع بين البابا والامبراطور حتى موت الاخير فى ديسمبر ١٢٥٠م .

وعندما علم البابا بموت الامبراطور غادر مدينة ليون بعد أن قضى بها ست سنوات ، وعاد الى ايطاليا وظل لبعض الوقت فى مدينة بروجيا ، وفى المانيا تولى العرش كونراد الرابع ابن فريدريك ، ولكن البابا رفض

الاقرار بأى حقوق له فى صقلية وأبوليا وأعلن أن هذه الاراضى هى اقطاع من البابويه . ولكن كونراد لم يعبأ بذلك وتقدم الى إيطاليا وسيطر على الموقف فى المدن المتمردة ووضع أخاه على الممتلكات الايطالية وعلى جزيرة صقلية . وقد رفض البابا الاعتراف بأنه يحكم صقلية أى فرد من عائلة فريديريك ، ورشح لها ريتشاد أف كورنويل أخ ملك انجلترا ، وشارل أف انجو أخ ملك فرنسا ، ولكن كلاهما رفض هذا العرض .

وفى مايو ١٢٥٤ م مات كونراد وخلف وراة ابنه كونرادين وكان عمره سنتان وتولى الوصاية عليه مانفرد الذى ارسل الي البابا يطلب منه وضع كونرادين تحت حمايته ، وأنه سوف يسلم مملكة صقلية للباباوية . وبذلك عقد السلام بين الباباوية والمانيا ولكنه كان سلاماً قصيراً فسرعان ما تمرد مانفرد على البابوية وكسب معركة عسكرية ضد حلفاء البابا . وعندما علم البابا بأنباء هذه الكارثة سقط صريع المرض ثم مات فى مدينة نابلى فى ديسمبر ١٢٥٤م . وما يذكر للبابا إنوسنت الرابع السفارات التي ارسلها الى المغول ، وسيرد ذكرها بالتفصيل فى الفصل الرابع .

الكسندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١م)

وفى مسلسل الصراع بين البابوية والامبراطور أصدر البابا الكسندر فى شهر مارس فى عام ١٢٥٥ قرار الحرمان ضد مانفرد ، ثم اعقب ذلك بمعاهدة عقدها مع هنرى الثالث ملك انجلترا منح بموجبها جزيرة صقلية إلى إدموند Edmund ابن هنرى . ولم ينته الامر عند هذا الحد فقد قامت ثورة فى مدينة روما يقودها بعض النبلاء ضد السناتور برانكاليون Brancalone وطالبوا بعزله عن وظيفته وسجنه ، وقد تم عزله ثم أعيد الى وظيفته بعد سنتين . ولكن البابا أصدر ضده قرار الحرمان لتحالفه مع

مانفرد ضد البابا ، وقد هدد برانكاليون بالانتقام من مدينة أنياني مسقط رأس البابا بإزالتها من الوجود ، فإضطر البابا للرضوخ إنقاذاً للمدينة . وتشجع مانفرد بذلك وأعلن سيادته على صقلية وأبوليا وكلايريا واجبر حلفاء البابا على الفرار من أمامه . وهدد البابا بإنزال قرار الحرمان على مانفرد إذا لم يحضر إليه أو يخضع لشروط البابا . ولكن الاخير توفى بعد قليل ، والمنافسه على عرش المانيا وصقلية مشتعلة .

أوريان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤م)

وبعد ثلاثة اشهر من موت البابا الكسندر تم اختيار أوريان الرابع ، ومع اختياره كانت الحرب دائره بين المتنافسين على عرش ألمانيا وهما ريتشارد أف كونويل والفونسو ملك قشتالة . وقد حاول البابا التوسط في الصراع ، ولكن ريتشارد رفض عرض البابا . وهنا تدخل الامراء الالمان وأختاروا كونرادين الابن الاصغر للامبراطور كوانراد . ولكن البابا عارض هذا الاختيار بكل قوة وهدد بقرار الحرمان لكل من يحاول انتخاب أى عضو من سلالة فريدريك باعتبارها أسرة معادية للكنيسة .

وكانت سياسة البابا ترمى لإبعاد مانفرد عن عرش صقلية وأخضاعها للسيادة البابوية . ولذلك طلب البابا من هنرى الثالث ملك انجلترا اعلان الحرب على مانفرد لأن إرموند ابن هنرى قد رشح لعرش الجزيرة ، واعتبار هذه الحرب حرباً صليبية . ولكن حرب الامراء الانجليز ضد ملكهم هنرى جعلوه يرفض طلب البابا . وعند هذه المرحلة عرض البابا عرش صقلية على شارل كونت أنجو مره أخرى ، وقد قبل شارل عرض البابا . وخلال هذه المرحلة زوج مانفرد ابنته الى جيمس الثاني ملك أرغون ، وكان ذلك سبباً دفع البابا الى إنزال عقوبه الحرمان على مانفرد . وقد اندفع الاخير وسمح للفرق العربية التى كانت تدافع عنه كما

كانت تدافعت عن فريدريك من قبل بأن تتوغل فى اراضى البابوية ، ولكن الجلفيين دافعوا عن البابوية وعن مدينة روما . ولما أحس البابا أنه غير آمن فى المدينة غادرها الى مدينة بروجيا لكنه مات فى اكتوبر ١٢٦٤م ، فى الوقت الذى كان مندوبه جيدو Guido قد اتجه انجلترا ليصدر قرار الحرمان ضد النبلاء الانجليز الثائرين ، ولكن الملك الانجليزي منعه من دخول انجلترا فإضطر إلى إصدار قرار الحرمان من مدينة بولونيا أمام جمع كبير من رجال الدين الانجليز . وما لبث أن وصل اليه خبر وفاة البابا وتعيينه خلفاً له .

كلمت الرابع (١٢٦٥ - ١٢٦٨)

وكان أول ما فعله كلمنت هو الكتابه الى شارل كونت أنجو يطلب منه الحضور لتولى عرش صقلية الذى اسنده اليه البابا الراحل . وتم استقبال شارل فى روما بكل ترحاب بعدما وصل من مارسيليا التى غادرها فى ابريل عام ١٢٦٥ م . وقد تعهد شارل فى البدايه بأنه سوف لا يتطلع ولا يتطلع خلفاؤه من بعده لضم عرش صقلية لعرش المانيا أو لمبارديا أو تسكانيا ، كما وافق على دفع ألفين أوقيه من الذهب الى البابا وحصاناً أبيض أصيلاً كل عام . وهكذا أصبح شارل سيداً على صقلية بمساندة من البابويه ، ولكنه عامل أهالى الجزيره معاملة سيئه ، وسيكون لذلك اسوأ الأثر فى نفوس المواطنين حتى كتبوا فى النهايه رساله الى كونرادين فى بافاريا الذى لم يبلغ السادسة عشر من عمره للقدوم لتولى عرش صقلية ، وقد قبل كونرادين العرش ، وتوجه الى ايطاليا حيث سانده الجبليون فى مدن الشمال .

وانزعج البابا لمثل هذه الاحداث وأصدر قرار الحرمان ضد كونرادين ولكن الاخير لم يعبأ بذلك ، وتقدم حتى وصل مدينة روما حيث تم الترحيب به ، وقد نجح كونرادين بما معه من قوات فى هزيمة قوات شارل

من الفرنسيين في بداية الامر ، ولكنه هزم فى التاسع والعشرون من أكتوبر ١٢٦٨م وأسر وأعدم ومعه صديقه دوق النمسا . وما لبث أن مات البابا كلمنت الرابع فى نوفمبر من العام نفسه .

جريجورى العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦)

ظل العرش البابورى خاليا بعد موت كلمنت حوالى ثلاث سنوات ، وفى النهاية تم اختيار ثيوالد الذى عرف باسم جريجورى العاشر . وفى السنه التاليه لحكمه مات ريتشارد أف كورنويل المطالبه بعرش ألمانيا ، كما أغتيل ابنه هنرى من قبل . وأثناء عوده الامير الانجليزى إدوارد من حملته على بلاد الشام زار البابا فى روما وطلب منه إصدار قرار الحرمان على المتورطين فى اغتيال هنرى . والمهم هنا أن العرش الالماني أصبح خاليا أمام الفونسو ملك قشتالة ، ولكن البابا رفض مسانده وأيد تعيين رودولف أف هابسبورج الذى إختاره الامراء الألمان ليكون ملك عليهم ، وقد توج فى سبتمبر عام ١٢٧٣م فى مدينة أكس لاشابل .

والحقيقه أن الهدف الرئيسى للبابا جريجورى العاشر كان توحيد كافة الممالك المسيحية بهدف إرسال حملة صليبيه الى بلاد الشام تتحالف مع المغول بعد أن تدهورت أحوال الصليبيين فى عكا وطرابلس وأنطاكية ، ولذلك دعا البابا الى مجلس عام عقده فى مدينة ليون فى عام ١٢٧٤م . ومن أجل توحيد الممالك المسيحية اتجه البابا الى شمال إيطاليا لانهاء الخلاف بين الجولفيين أنصار البابويه والجبليين أنصار الامبراطور ، وقد فشل البابا فى مهمته وأنتهى الامر باصدار البابا قرار القطع من رحمة الكنيسه على مدينتى فلورنسا وميلان .

وفى أول مايو عقد المجلس فى مدينة ليون وإستمر حتى السابع عشر من يوليو عام ١٢٧٤م ، وقد حضر هذا المجلس خمسمائه من الاساقفه

وسبعون من رؤساء الاديرة وألف من الرتب الدينيه الصغيره، كما حضر جيمس الاول ملك أراغون (١٢١٣ - ١٢٧٦ م) رغم كبر سنه ، بالاضافه الى البطريك الاتينى فى القسطنطينيه وبطريك أنطاكيه وسفراء عن ملوك المانيا وفرنسا وانجلترا وصقلية وقبرص . وقد وافق الحاضرون على الاعداد لحملة صليبيه تتحالف مع المغول وأن يتم جمع عشر الدخل من أجل بيت استعادة بيت المقدس . وخلال انعقاد المجلس وصل رسول الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج ليعلن عن رغبة الامبراطور فى خضوع كنسية القسطنطينيه الأرثوذكيه لتعاليم كنسيستروما الكاثوليكيه وسيطرتها عليها ، وكان ذلك يعتبر خطوة ايجابية فى سبيل توحيد الكنستين الشرقيه والغريبه، ولكن ذلك لم ينفذ. وقد وافق المجمع على اختيار رودولف ملكاً على ألمانيا ، ونبذ فكرة تعيين الفونسو ملك قشتالة ، وهناك نقطه هامه اقراها المجلس ووضع فيها قواعد إنتخاب الباباوات دون تأخير كما حدث من قبل ، وقد تم الاتفاق على أن يتم اجتماع الكرادلة لانتخاب البابا بعد عشرة أيام فى المدينه التى مات فيها البابا ، وذلك فى مكان منعزل ولا يسمح لأحد بالدخول عليهم واذ لم يتوصل الكرادله الى اختيار البابا بعد ثلاثة أيام ، فيقدم اليهم الطعام المسموح به من خلال فتحه صغيره تزداد فى النقصان حتى يتم اختيار البابا . ومالبث البابا أن مات فى يناير عام ١٢٧٦ م .

البابا أنوسنت الرابع (١٢٧٦ م)

تولى عرش البابوريه لعدة شهور بدأت من يناير حتى يونيو ، شغل البابا فيها نفسه ، باتباع سياسة سلفه وهى مواصلة السعى للإصلاح بين الولىف والجبلين ، فأرسل سفراء لهذا الغرض ، كما حاول التوفيق بين الملك الالمانى رودلف وبين شارل أف انجو ، وسعى أيضا لتأكيد السيادة

الباباوية على أراضيها فى ايطاليا . ومات البابا وخلفه هادريان الرابع الذى توفى فى أغسطس من العام نفسه ، ثم أعقبه البابا يوحنا الحادى والعشرين الذى تولى عرش البابويه من سبتمبر ١٢٧٦ حتى مايو ١٢٧٧ م . وخلال هذه المرحلة لم تتغير السياسه البابويه داخل أوروبا أو موقفها من الحروب الصليبيه والتحالف مع المغول .

نيقولا الثالث ١٢٧٧ - ١٢٨٠ م :-

ومع تولى البابا نيقولا عرش الباباوية، كان رودلف ملك المانيا لا يستطيع الحضور الى روما لتقلده التاج الامبراطورى بسبب بعض الأوضاع فى بلاده . وفى يونيه عام ١٢٧٨ م قدم رودلف تأكيداً بحقوق الباباويه على الامبراطوريه ، ووعد باعادة الاراضى التى تخص الباباويه الى البابا ، ولذلك كفاءة البابا بأن عينه نائباً فى مقاطعة تسكانيا ، وهو المنصب الذى تولاه من قبل شارل أف أنجو . كما كان على البابا أن يواجه شارل أف أنجو ملك صقلية الذى عارض انتخابه كبابا للعالم الغربى ، ولكن الموقف عولج بعد قليل عندما تزوج أحد أقارب البابا من إحدى قريبات شارل .

وما يذكر للبابا نيقولا أنه زاد من مساحة منطقة مبنى الفاتيكان وأضاف اليها نافورة وحديقه ، وانه أصر على وحده الكنيسه الشرقيه والغريه وهو الامر الذى عرضه مندوب الامبراطور البيزنطى فى مجلس ليون ، ولكن هذا الاصرار كان نظرياً ولم يوضع موضع التنفيذ . ومات البابا فجأة فى أغسطس عام ١٢٨٠م فى منزلة الريفى الذى يقع بالقرب من مدينة فيتربو Viterbo ثم دفن فى روما .

مارتين الرابع ١٢٨١ - ١٢٨٥ م

اجتمع الكرادله فى مدينة فيتربو بعد وفاة البابا نيقولا الثالث ولكنهم

عجزوا عن اختيار البابا الجديد ، وفى هذه المرحلة إستخدم شارل أف أنجو نفوذة لتأمين عملية إنتخاب بابا تتفق اهاوؤه مع أهداف ومصالح شارل ، وتم القبض على اثنين من الكرادله كانوا من اقرباء البابا الراحل وأودعا فى السجن بتهمة تعطيل الانتخاب ، وفى فبراير عام ١٢٨١م تم اختيار البابا الذى عرف باسم مارتين الرابع وكان أول ما فعله البابا هو وضع مدينة فيتريو تحت قرار القطع من رحمة الكنيسة بسبب الاحداث التى وقعت بعد وفاة البابا سلفه .

وإنشغل البابا بقضية توحيد الكنيسة الشرقية والغربية ، وأنزل قرار الحرمان على الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج بسبب عدم التزامه بمعاهدة وحده الكنيسة التى اقرها مجلس ليون . وجدير بالذكر هنا أن الامبراطور البيزنطى لا يعنيه من قريب أو بعيد قرار الحرمان لانه تابع للكنيسة الشرقية ويدين بالمذهب الارثوذكى وليس الكاثوليكي . وانما تأثير هذا القرار ترجع قوته الى أنه يحرم على حكام وشعب أوربا التعامل مع الامبراطور . ويرى البعض أن شارل أف أنجو كان له مصلحة كبيرة فى صدور مثل هذا القرار ، لأنه كان يخطط لحملة عسكرية ضد الامبراطورية البيزنطية، وأن البابا لبيى طلب شارل كرد للجميل أو الدور الذى لعبه فى عميله إنتخابه فى مدينة فيتريو .

وفى عهد البابا مارتين وقعت أحداث كبيرة كان لها أكبر الاثر على الباباوية وعلى كافة حكام أوربا بما فيها مملكة أراغون فى الاندلس والامبراطورية البيزنطية وعلى الحروب الصليبية فى الشرق وخانية فارس المغولية . وتعرف هذه الحادثة باسم المذبحة الصقلية The Sicilian Vespers ، رغم أن كلمة vesper تعنى صلاة الغروب . وموجز أحداث هذه المذبحة أن الباباوية كان لها دوراً كبيراً فى تعيين شارل أف أنجو ملكا على جزيرة صقلية حتى تفصلها عن الامبراطورية الرومانية فى ألمانيا .

وأن شارل عامل أهل الجزيرة معاملة سيئة حتى ضاقوا به ذرعاً ، حتى أنهم كتبوا إلى كونرادين للمقدوم اليهم وتولى أمر الجزيرة ولكنه فشل وقتل. ومع تطور الاحداث زوج مانفرد الذى كان مرشحاً لعرش صقلية ابنته كونستانس الى بطرس بن جيمس الثانى ملك أراغون ، وبذلك يكون بطرس صاحب الحق فى عرش صقلية بعد وفاة مانفرد . وعلى هذا النحو أصبح شارل والبابا فى جانب ، وشعب صقلية وملك أراغون والامبراطور البيزنطى المحروم من رحمة الكنيسة فى جانب ، وعلى ذلك يقال أن هذه الحادته هى مؤامرة نسجت خيوطها فى اراغون والقسطنطينية ثم نفذت على أرض مدينة بالرمو فى صقلية . وقد تولى أمر هذه الثورة يوحنا حاكم بروسيديا Procida وهو طبيب ، وقد أبعد شارل من أراضيه ، وقد خطط يوحنا لعزل شارل وتعيين بطرس الاراغونى على عرش صقلية . وقد تم تحديد يوم عيد القيامة الذى وقع فى آخر مارس عام ١٢٨٢م موعداً لتنفيذ المؤامرة .

وعندما دقعت اجراس الكنائس لتعلن وقت صلاة الغروب نهض أهل صقلية جميعاً وذبحوا كل الفرنسيين الذى كانوا على أرض الجزيرة ، وقد رتبت هذه العملية بتخطيط جديد ، ولم تفرق بين السن أو الجنس ، وعند هذه المرحلة تقدم بطرس ملك أراغون الى الجزيرة بإسطوله وتوج ملكاً على الجزيرة ، وتشير هذه الاحداث الى أن بطرس يعتبر ضالماً فى المؤامره والتخطيط لهذه المذبحة .

وفوجىء البابا بهذه الاحداث فانزل قرار الحرمان على الملك بطرس ووضع الجزيرة باكملها تحت قرار القطع من رحمة الكنيسة ، ولكن أهل الجزيرة ساندو بطرس وأصروا على عدم عودة شارل البغيض ، كما تحرك شارل وحصل على مساعدة بعض الفرق الفرنسيه وأبحر الى نابلى ومنها الى صقلية والقى الحصار على مضيق مسينا ، وهنا تدخلت الوساطة

للصلح بين الطرفين .

واقترح شارل إقامة مباراة فردية بينه وبين بطرس لحسم القضية ، واقترح أن تكون مدينة بوردو مكاناً لهذه المباراة . ولما كانت هذه المدينة تقع ضمن الاملاك الانجليزية فى الاراضى الفرنسية فقد رفض الملك الانجليزى إدوارد إقامة المباراة ، كما أن البابا حرم إقامة مثل هذه المبارزات ، لذلك لم تتم المباراة وتتصاعد الموقف وأصدر البابا فى مارس عام ١٢٨٣م قراراً بحرمان بطرس من رحمة الكنسية ، وأحل اتباعه من قسم الولاة الذى قدموه إليه . ورغم هذا القرار فقد ظل اتباع بطرس فى أراغون وصقلية مخلصين له . وأمام هذه الاحداث منح البابا مملكة أراغون الى شارل أف فالوا valois أصغر أبناء الملك الفرنسى فيليب الثالث .

وتحرك شارل أف أنجو وذهب الى مقاطعة بروفانس لجمع بعض القوات الفرنسية ، وأثناء هذه المرحلة نجح الأسطول الأراغونى فى الانقضاض على أسطول شارل وحطمه فى ميناء نابلى ، وقد تم أسر ابنه ويدعى أيضاً شارل أمير سالرنو . وقد حزن شارل أف أنجو لذلك حزناً شديداً وبدأ الياس يتسرب الى نفسه ، ورغم هذا فقد اسرع لتجده ابنه ولكنه ما لبث أن مرض ومات فى مدينة فوجيا foggia فى السابع من يناير عام ١٢٨٥م ثم ما لبس أن مات البابا مارتين فى التاسع والعشرين من مارس فى العام نفسه .

هونوريوس الرابع ١٢٨٥ - ١٢٨٧م

تولى السدة البابوية والمشكلة الصقلية على أشدها ، وفى نوفمبر من عام ١٢٨٥ مات بطرس ملك أراغون وصقلية ، فتولى حكم أراغون ابنه الأكبر الفونسو ، كما تولى حكم صقلية ابنه الثانى جيمس الذى توج فى مدينة صقلية . ومن أجل حل هذه المشكلة اتفق شارل الثانى أمير سالرنو

وملك نابلى الاسير فى تلك المرحلة مع جيمس ملك صقلية، وتم توقيع معاهدة بين الطرفين، تم التسليم بموجبها يُحق جيمس فى عرش صقلية مقابل تحرير شارل الثانى من الاسر. وإعترض البابا علي هذه المعاهدة وأصدر قرار الحرمان على الملك جيمس ، ورد عليه الملك بأنه ينكر حق الباباوية فى التدخل فى شئون صقلية، وعوض البابا فشله فى قضية صقلية بأن تقرب الى رودولف ملك ألمانيا وتم الاتفاق على قيام البابا بمنح الملك لقب الامبراطور، ولكن وفاة البابا فى ابريل عام ١٢٨٧م ، منعت الملك من الحضور الى روما ولم يتم التتويج .

نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م)

تولى عرش الباباوية ولا زالت مشكلة صقلية باقية ، وبدأعهده بمساندة شارل الثانى ملك نابلى ضد حكام أراغون وتدخل إدوارد الاول ملك إنجلترا وتمكن من فك أسر شارل الثانى ، وعلى ذلك تمت معاهدة ثانياه بين جيمس وشارل الذى تنازل عن دعواه فى عرش صقلية . واعترض البابا نيقولا كما أعترض سلفه على المعاهدة بدعوى أن مملكة صقلية تعتبر إقطاعية باباوية ، وليس من حق شارل أن يسلمها لأحد .

وبقى البابا طول العام الاول من عهده مقيما فى روما ، وفى ربيع عام ١٢٨٩م حدث اضطراب فى المدينة فاضطر الى الانسحاب الى مدينة ريتى Rieti حيث قام بتتويج شارل الثانى فى التاسع والعشرين من مايو ، ملكاً على صقلية وأبوليا ، وأعلن شارل نفسه تابعاً للبابا رغم أن صقلية كانت تحت حكم جيمس الاراغونى .

وحاول الفونسو ملك أراغون أن يحل بلاده من قرار القطع الذى أصدره البابا مارتين فى عام ١٢٨٣م ، فدخل مع البابا نيقولا فى مفاوضات تعهد بموجبها الفونسو ألا يساند دعوى أخيه جيمس فى

الأحقية بعرش صقلية ، ولكن الفونسو ما لبث أن مات بعد قليل
١٢٩١م دون أن يترك وريثاً يخلفه علي العرش ، فتولى عرش اراغون
جيمس ملك صقلية وترك صقلية لآخيه الأصغر فريدريك . وطالب البابا
جيمس بأن يقر الاتفاق الذي عقده الراحل الفونسو مع الباباوية وهو
التخلي عن عرش صقلية ، وهنا رفض جيمس عرض البابا ، فاشتعلت
الحرب من جديد بين جيمس وبين شارل الثاني أمير نابلي .

واهتم البابا هونوريوس الرابع بقضية الحروب الصليبية ، وإستعد أن
يمول على نفقته الخاصة جيشاً من ألفين من المشاه وخمسمائة من الفرسان ،
وأن يستأجر السفن من البنادقة لنقل هذه القوات الى الاراضى المقدسه
والتحالف مع المغول ، ولكن الاخبار وصلت اليه بتداعى بقية الممتلكات
الصليبية فى بلاد الشام ، وقد ملأت هذه الأخبار قلب البابا بالاسى
وأحس بالعار الذي لحق به ، وكان لهذه الأحداث أكبر الاثر على أوروبا
جميعاً ثم ما لبث أن مات البابا فى ابريل عام ١٢٩٢م .

كلستين الخامس ١٢٩٤م

ظل كرسى الباباوية شاغراً لمدة أكثر من عام وذلك لاختلاف وجهات
النظر حول انتخاب البابا الجديد الذي عرف باسم كلستين الخامس وهو من
مدينة أبوليا ابن فلاح فقير له إحدى عشر طفلاً . وقد أصبح كلستين راهباً
منذ حياته المبكره على الطريقة البندكتية ، وأحب حياة العزلة وعاش فى
كهف بالقرب من مدينة سولمونا Sulmona . وعندما علم شارل الثاني ملك
نابلي بأن البابا الذى يتم اختياره يرجع إلى مدينة أبوليا ، اعتبره من
أتباعه أو من رجاله ، فأسرع إليه ومعه ابنه شارل مارتل ملك هنغاريا
إلى كلستين واصطحباه إلى مدينة أبوليا ، وقد دخل كلستين المدينة
راكباً حماراً دليلاً على تواضعه ، وقد أمسكا بلجام الحمار شارل الثانى

وابنه شارل مارتل وسارا أحدهما على يساره والآخر على يمينه ، وقد اصطف الآلاف من المواطنين لمشاهدة الموكب ، وتم تتويجه في مدينة أبوليا في اغسطس عام ١٢٩٤م ، ثم تقدم كلستين بعد ذلك الى مدينة نابلي واتخذ من القصر الملكي مقراً له حيث أصبح أداه ضعيفه في أيدي الملك شارل الثاني ، وقد رفض كلستين الذهاب الى بروجيا أو الى روما . وعند هذه المرحلة شعر الكرادله بالخطأ لاختيار هذه الشخصية لتصبح على رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وبدأوا في التخطيط للتخلص منه . ويقال أن بونيفاس الثامن الذي خلف البابا كلستين لعب دوراً كبيراً ليجعله يتخلى عن منصبه ، ويقال أيضاً أن البابا نفسه كان مريضاً وأنه لا يريد شيئاً سوى أن يعود لعزلته كراهب .

وفي ديسمبر عام ١٢٩٤م جمع البابا الكرادله وأعلن إعتزاله ، وقد اصطحب بونيفاس كلستين في الطريق إلى روما حيث نجح الاخير في الهروب وعاد إلى مدينة سولونا حيث يوجد بالقرب منها الكهف الذي عاش فيه . وقد إستقبله الرهبان بكل ترحاب ، ولكن بونيفاس الذي خلفه على عرش الباباوية أرسل رجاله للقبض عليه . وعندما علم كلستين بذلك إستقل سفينه بهدف الهرب إلى ساحل دلماشيا ، ولكن عاصفة قوية أجبرته على العودة حيث تم القبض عليه حيث أودع في قلعة فومون Fumon بالقرب من مدينة أنياني حيث مات بها .

بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣م)

تم إختياره بابا في ديسمبر عام ١٢٩٤م ، ولم يعترض شارل ملك نابلي على هذا الاختيار . ورغب جيمس ملك أراغون في العام التالي في عقد سلام مع الباباوية ، وتنازل عن دعواه في حكم صقلية ، ولكن شقيقه فريدريك الثالث رفض هذه الفكرة وتمسك بحقه في حكم الجزيرة ، وقد سانداه أهل صقلية في دعواه وتوجوه ملكاً على صقلية في مدينة

بالرمو فى مارس ١٢٩٦م .ورد البابا بونيفاس على ذلك بإصدار قرار الحرمان ضد الملك فريدريك .ولما كان أخوة جيمس قد وعد بمساندة الباباوية فى حقوقها ،لذلك أصبح مضطراً لحمل السلاح فى وجه أخيه فريدريك .

وفى عام ١٣٠٢م قام شارل أف فالوا الذى سبق أن منحه البابا مملكة أراغون كإقطاعية باباوية له ، قام بحملة على صقلية ، ولكن فريدريك هزمه ، ورغم هذا تحول عن موقفه وتصالح هو وأخوه جيمس مع البابا . وقد منح البابا جيمس جزيرتى سردينيا وكورسيكا كمكافأة له على مسانده .

وقد أقحم البابا نفسه فى العداء السائد بين عائلتى أورسينى orsini وكولونا ، وقد لعب كل منهما دوراً كبيراً فى التاريخ السياسى والبابوى، وانحاز البابا الى عائلة أورسينى ، وكان هناك أثنان من الكرادله من عائلة كولونا وكانا قد عارضا انتخاب البابا بونيفاس ولكنهما أيدا الانتخاب بعد ذلك .

وكانا لهما نفوذ كبير كمستشارين فى عهد البابا نيقولاس الرابع ، وقد خافا على نفوذهما من البابا بونيفاس لانهما يساندان أهل صقلية أعداء الباباوية . وتطورت الاحداث واستعان البابا بقواته عائلة أورسينى لتدمير القلاع الخاصة بعائلة كولونا والاستيلاء على أراضيها . وأمام هذه الاحداث فرت عائلة كولونا إلى صقلية وفرنسا وساندت الملك فليب الرابع فى صراعه مع البابا بونيفاس الذى طلب بدوره حماية ألمانيا . وخلال عهد البابا بونيفاس دار صراع فى مدينة فلورنسا وانقسم الاهالى إلى حزبين أحدهما يساند الجبليين والآخر يساند الجلفيين ،وقد أرسل البابا مندوباً إلى المدينة لإصلاح أوضاعها ولكنه فشل فى مهمته لذلك

وضع البابا المدينة تحت قرار القطع .

كما طالب أهالى أهل اسكتلندا من البابا حمايتهم من إدعاء ملك إنجلترا إدوارد الاول فى حكم أراضيهم وممارسة النظم الاقطاعيه عليهم ، وفى بدايه الامر ساند البابا إسكتلندا ، وكتب فى يونيه من عام ١٢٩٩م يبلغ الملك إدوارد أن اسكتلندا تحت حماية الباباوية ويطالب الملك بالافراج عن رجال الدين الذين سجنهم . ولكن البابا غير موقفه بعد ذلك عندما احتاج الى مساندة إدوارد ضد ملك فرنسا . أما الصراع بين فيليب الرابع والباباوية فقد ذكرنا جانباً طيباً عنه فى الحديث عن فرنسا فى عصر فيليب الرابع . أما موقف البابا من قضية التحالف مع المغول فسوف نتناوله فى صفحات تالية فى الفصل الرابع .

الفصل الثالث

روسيا والغزوات المغولية

مقدمة

الأمة الروسية قبل المغول

- ١ - روسيا الكيفية
- ٢ - نمو القوة فى كييف
- ٣ - تحول روسيا الى المسيحية
- ٤ - الحرب الأهلية
- ٥ - السنوات المجيدة
- ٦ - السنوات المظلمة
- ٧ - نشأة مدينة موسكو

الغزوات المغولية وأمراء روسيا

- ١ - طبيعة الحكم المغولى
- ٢ - إيفان الأول وخلفاؤه

تطور الأمة الروسية

- ١ - إقامة حكومة المملكة المستبدة
- ٢ - نشأة رقيق الأرض
- ٣ - الأزمة القيصرية
- ٤ - زمن القلاقل

روسيا تحت حكم رومانوف الأول

- ١ - استعادة الاستقرار والسلطة
- ٢ - ثورة فلاحى الفولجا
- ٣ - ضم أوكرانيا الشرقية
- ٤ - الأنقسام الدينى
- ٥ - عوامل الضعف المهده للعرش

مقدمة :

مع بداية عصر المسيحية كان السلاف أجداد الروس يعيشون فى المنطقة التى تعرف الآن باسم شرق بولندا وغرب أوكرانيا ، وغرب روسيا البيضاء ، وكانوا شعباً بدائياً قديماً يتحدث اللغة السلافية ، وهى لغة من مجموعة اللغات الهندوأوربية . وخلال الخمسة قرون الأولى للميلاد ، وهى الفترة التى تميزت بالهجرات الى أوروبا وآسيا ، فإن السلاف أخذوا طريقهم فى الهجرة وكانت هجرتهم بطيئة ولكنها مستمرة ، وبذلك أصبح من الصعب تحديد تحركاتهم بتاريخ دقيق .

وعلى أية حال فمن المعروف انه فى القرن السادس الميلادى إنقسم السلاف الى ثلاث مجموعات تحركت فى ثلاثة اتجاهات مختلفة ، الى الغرب ، والى الجنوب ، والى الشرق ، وهاجر السلاف الغربيون وهم أجداد البولنديين poles والتشييك Czichs والسلفواك Slovake الى نهر الألب Elbe والأودر Oder ونهر الفستولا الأدنى Lower vistola ، وهؤلاء وقعوا تحت تأثير الثقافة الغربية واعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى وتعاملوا مع الأبجدية اللاتينية .

أما السلاف الجنوبيون وهم أجداد الصرب والبلغار فقد هاجروا الى جبال الكريات والى البلقان ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية واعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى وتعاملوا مع الأبجدية السيريلية Cyrillic . وهى أبجدية سلافية قديمة يقال أن مخترعها القديس سيريل Cyril الذى توفى فى روما عام ٨٦٩ م . وترجم الإنجيل الى هذه اللغة ولا تزال أشكالها الحديثة تستعمل فى صربيا وبلغاريا والاتحاد السوفيتى .

أما السلاف الشرقيون وهم اسلاف الروس فقد إتخذوا طريقهم إلى بحيرة

ريبوس Reupus وبحيرة إلمن Elmen ، إلى نهر الدنيبر ونهر أوكا Oka وأعلى نهر الفولجا ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية ، وبالتدريج إتخذت ثقافتهم نحواً يحاكي ثقافة السلاف الجنوبيين ، ولكنهم كانوا مختلفين عن السلاف الغربيين وفي القرن السادس الميلادي كان السلاف الشرقيون بعيدون عن جيرانهم الذين يعيشون في منطقة الأستبس خاصة من هم تحت النفوذ البيزنطي والغربي ، وكانت حياتهم الإجتماعية والاقتصادية هي القبيلة ، وكانوا يعيشون جماعات في منازل بسيطة لاتعدو أن تكون أكشاك خشبية أو في تجويف جذوع الشجر. وقامت حياتهم على الزراعة بمحارث خشبية تجرها الخيول أو الثيران ، وعلى الصيد في الأنهار وعلى صيد الحيوانات . وكانت القبيلة تتحرك كلها للبحث عن أرض جديدة ، حيث تكون الطبيعة رحيمة بهم ، لذلك كانوا دائماً عرضة لهجوم القبائل الأخرى .

لقد عكست الديانة التي إعتنقها هؤلاء السلاف المستوى الثقافي لهم ، وكان العالم بالنسبة لهم غامض ملآن بالشر ، وأن الأرواح الطيبة يمكن أن توجد في بعض الأماكن أو ربما في الصخر أو الجداول المائية أو الأشجار أو حتى في الحيوانات أو الإنسان ، وفوق كل هذه الأرواح تسيطر الآلهة على القوى الطبيعية مثل الاله برون Perun إله الرعد والبرق واستريبوج Stribog إله الرياح والإله سفاروج savarog إله السماء .

ومن أجل الحصول على رضا هذه الآله كان على الإنسان أن يقدم الأضحيات والصلوات أمام الآله المصنوعة من الذهب أوالفضة ، ولم يكن هناك قساوسة للقيام بالخدمات الدينية ، بل كان هناك السحرة ، وهم الذين يقومون بمثل هذا العمل ، كما انهم كانوا أيضاً يتنبئون بالمستقبل .

وانعكس المستوى الثقافى على تنظيمهم السياسى ، وهو ما يشبه التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الذى يعتمد على القبيلة التى كانت تحت قيادة كبيرهم وهو الحارس على القيم القانونية ، وهو مصدر التشريع ، وفوق ذلك فإن القبيلة لم يكن لها تنظيم آخر ، وأن الغرض من كل ذلك هو وحدة القبيلة عندما كان الأمر يحتاج الى الدفاع أو الهجوم .

وكان ثقافة وسياسة السلاف الشرقيين تتقدم منذ ظهورهم فى سهول روسيا فى القرن السادس الميلادى حتى الوقت الذى بدأت فيه دولتهم فى الظهور فى القرن التاسع الميلادى ، وقد تأثر ذلك كله بالطبيعة والبيئة المحيطة وهى الطبيعة التى تميزت الحياة فيها بالمخاطر والمكافأة ، لقد هددهم قوة الأعداء بالانقراض ، بينما بشرتهم الطرق التجارية الغنية والأرض الخصبة والرصيد الهائل من الغابات وخيراتها والأنهار ، بمستقبل أفضل ، خاصة إذا ما عاشوا فى جماعات . وحتى يصبحوا سادة هذه البيئة فقد وجدوا إلزاماً عليهم أن يغيروا من نظام حياتهم ، لذلك بدأوا فى إقامة منازل ثابتة ودائمة حتى يتمكنوا من تقوية وسائل الدفاع عنهم ، وحتى يخططوا لإقتصاد حقيقى ، ويوحدوا أو يضموا وحداتهم السياسية الصغيرة وهى القبيلة فى نظام أكبر وأشمل .

وخلال القرنين الثامن والتاسع الميلادى فقدت القبيلة أهميتها ، وبدأت المدن فى الظهور عندما إستقر فيها هؤلاء السلاف ، وقد ساعد على نمو هذه المدن وجود الطرق التجارية بين شرق وغرب أوروبا ، ونتيجة لذلك إمتدت التجارة بين أوروبا وآسيا ، وكان أهم هذه الطرق التجارية طريق نهر الرود Road الذى يمتد من البحر البلطى الى البحر الأسود ، وطريق آخر يصل بين بحر قزوين ونهر دفينا Dvina أو بحيرة لادوجا Ladoga ونهر الفولجا . وكانت أعظم المدن الروسية هى مدينة كييف Kiev ،

وتشيرينجوف Chernigor ونوفجورد Novgorod التى نمت على الطرق النهرية ، وقد ربحت هذه المدن وغيرها من نمو التجارة بتصدير الفراء ، والعسل ، والشمع والدقيق التى كانت ترسل الى القسطنطينية وهى المركز الرئيسى للتجارة البيزنطية والى البلاد العربية . وكان يتم تبادل البضائع مثل الحرير ، والعطور ، والتوابل ، والرماح ، والسيوف، والمعادن الثمينة ، وهى التى يعاد بيعها فى عودة الرحلة الى البحر البلطى .

وكان لنمو المدن أثراً كبيراً على الحياة السياسية والاجتماعية والإقتصادية . وقد غير هذا كله من أحوال السلاف الشرقيين فقد ظهرت فى كل مدينة نواة للسلطة وهى المجلس العام ، وهو يتكون من جميع الرجال البالغين . ومن وقت لآخر يعين هذا المجلس أميراً على المدينة ومعه بعض المحاربين الذين يتولون أمر حماية المدينة . ومع زيادة الأمان زادت المشروعات وظهرت طبقة من التجار المغامرين ، وبدأت الثروات فى الازدياد والظهور وقد تعاون ذو الثروة والمركز الاجتماعى تماماً مع أمير المدينة من أجل الحفاظ على مصالحهم .

وقد استطاع العديد من هؤلاء الأمراء تقوية مدنهم بإخضاع المدن الضعيفة ، أو بإتحاد مدنهم الضعيفة مع مدن أقوى من أجل الحماية العامة ، وعلى سبيل المثال ، فإن مدينة مثل كييف أو نوفجورد أو تشيرنجوف ، وسمولنك Smolensk وبلوزيرو Beloozero وإزبورسك Iz-borsk أصبحت مركزاً لوحدات سياسية واسعة .

وكان نمو المدن هاماً جداً لتقدم هؤلاء السلاف ، ولم يتم ذلك فى وقت قصير ، ولكنه غير من أنماط الحياة التقليدية . وفى القرن التاسع فإن قوة التجار الفارانجيين Varangians من أهل إسكندنافيا قد ظهرت على طول الطرق النهرية ، وقد قام الفارانجيون بأعمال النهب عندما لا يكون

لديهم تجارة ، وقاموا بأعمال التجارة إن لم يكن لديهم قدرة على النهب ، وكانو قادرين على أن يكسبوا الجانب الإقتصادي والسياسى فى المدن السلافية وانهم إستخدموا هذه القوة فى تقدم المدن فى النشاط التجارى المدنى . وكانت سيطرتهم قد ساعدتهم على النمو السريع للتنظيم السياسى بعيداً عن النمو الروسى .

تطور الأمة الروسية

مع أن شعوباً عديدة قد عاشت على سهول روسيا قبل قدوم السلاف الشرقيين ، الا أن أيا منها لم يوفق فى خلق سياسة مستديمة أو فى إستحداث ثقافة قومية ، وقد نجح سلاف الشرق فى ذلك ولكن بعد التغلب على مصاعب جمة . فلقد عاق تقدمهم عوامل كثيرة منها :

- ١ - تخلفهم الثقافى عند هجرتهم .
- ٢ - ضعفهم النسبى كأسبق المتنافسين على أفضل أقاليم السهل .
- ٣ - القتال المستمر والصمود للغارات التى كانت تشنها الجماعات البدوية العديدة .
- ٤ - الضرورة التى فرضت عليهم التسليم لسيادة الشعوب التى تفوقهم قوة . والتى تسعى وراء القوة والمكسب فى الأرض التى إختاروها .

٥ - الأنشاقات الداخلية التى نشبت بتطوير وتقدم نظامهم السياسى .
وكأن الثمن الذى دفعوه للبقاء والتقدم فى ظل هذه الظروف هو

- ١ - الاستبداد المطلق للحكومة
- ٢ - إستعباد الأغلبية للأقلية
- ٣ - التخلف الثقافى المستمر

روسيا الكيفية:

إقامة الدولة الروسية : - ليس من السهل الكتابة عن تسلسل

الأحداث أثناء الفترة التي قامت فيها علاقة وثيقة بين السلافيين والفارانجيين ، وهي الفترة التي شهدت بداية الدولة الروسية ، وذلك بسبب نقص المصادر الموثوق بها . وعلى أية حال فإن "Chronicle of Contemporary years" وهي من أقدم الحوليات التاريخية الروسية التي تورد أحداث عن تلك الفترة تعتبر هامة وثقة كثرات للروس ، ولو أن أجزاء منها غير قابلة للتصديق ، ولكن ملخصاً بسيطاً لها يصلح على الأقل كمقدمة لسرد التاريخ الروسى .

ووفقاً للحوليات ، بدأ الفارانجيون القادمون من إسكندناوه الوثاقون من تفوقهم فى الحصول على ضرائب من السلاف فى منتصف القرن التاسع ، وقد أدى هذا الى إثارة السخط ، ودفع السلاف إلى الثورة ضدهم وطردهم مرة أخرى إلى إسكندناوه . ولكن سرعان ما سادت الفوضى وعم الأضطراب من محاولة السلافيين حكم أنفسهم إلى درجة انهم توسلوا للفرانجيين أن يعودوا ويحكموهم .

وقد لبي الدعوى ثلاثة إخوة فارانجيين وهم روريك Rurik وسنيوس Sineus وتروفور Truvor ، وأقبلوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب روريك نفسه أميراً فى مدينة نوفجورد ، وسنيوس فى بلوزيرو Beloozero وتروفور فى إزبورسك Izborsk . وفى خلال عامين توفى سنيوس وتروفور تاركين روريك يسيطر على منطقتيهما ، وبينما كان روريك يهتم بشئون إمارته الواسعة فإن أتباعه من السلافيين والفرانجيين عبروا حدود الإمارة واستقروا فى كييف وأقاموا علاقات تجارية واسعة ، وبعد وفاة روريك فى ٨٧٩م إعترف بإبنه إيجور Igor ، وكان طفلاً صغيراً وريثاً له فى أرضه وسلطته ، ولكن لما كان إيجور طفلاً صغيراً فقد حكم بالنيابة عنه قريبه أولج oleg حتى بلغ الطفل سن الرشد ، وقد أثبت أولج أنه

أوسع طموحاً من روريك فى توسيع وتقوية إمارته . فإستولى على مدينة كييف وأقام بها سلطة مركزية على كثير من المدن الأخرى التى أخضعها لحكمه ، بما فى ذلك المراكز التجارية الهامة مثل سمولنسك ونوفجورود ، وبعد هذا كسب أتباعه من سلافيين وفارانجيين ، وأطلق عليهم جميعاً إسم الروس من الكلمة الفارانجية (Rus) ، نتيجة حمايتهم وتنظيم مستوطناتهم وتأمينهم فى ترويج تجارتهم مع بيزنطة . وهكذا وضع أولج أساس دولة روسيا الكيفية ، وهى دولة حكمها الأمراء المتعاقبون من سلالة روريك .

إن أجزاء من تلك الرواية ثبتت صحتها بالمصادر الموثوقه بها . فقد يكون من المؤكد أن الفارانجيين كانوا قد وطدوا فى النصف الثانى من القرن التاسع سيطرتهم الحربية والسياسية على المستوطنات السلافية الشرقية ، وأنهم كانوا قد نجحوا فى تكوين نواة دولة مركزها كييف ، وأنهم تولوا سلطة الحكم فى تلك الدولة وانه خلال القرن العاشر كان اسم الروس يطلق على الدولة الوليدة وشعبها كما تدل الشواهد . على أن أحد الفارانجيين وإسمه روريك كذلك كان قد إكتسب وضعاً بارزاً بالنسبة لبعض المدن السلافية فى الفترة التى تعنيها الحوليات . وأنه كان أول من أسس عائلة حاكمة روسية توفى آخر أفرادها وهو فيودور عام ١٥٩٨ م . وهناك نقط فى الرواية لازالت موضع جدل خصوصاً بالنسبة لكلمة Rus (روس) وردها إلى أصل فارانجى لأن الكثير يعتقد أن أصلها سلافى شرقى .

ومع أن السلافيين فى تلك الفترة المبكرة قبلوا قيادة الفارانجيين فى الشؤون السياسية والاقتصادية إلا أنهم لم يقبلوا ثقافتهم . وعلى العكس فإن الفارانجيين هم الذين تطبعوا بخصائص الثقافة السلافية ، وإستمرت الدولة النامية سلافية فى الأساس .

٢ - نمو القوة في كييف :

في بداية القرن العاشر كان الروس قد وطدوا مركزهم في كييف الى حد استخدامها كمعقل لحماية تجارتهم في نهر الدنيبر الأسفل ، لأن هذا النهر كان طريقاً خطراً الى القسطنطينية - وخلال المائة سنة التالية كان أمراء كييف قادرين على تقوية ذلك المركز ، وبسط سلطانهم على القبائل والمدن التي تقع على إمتداد الطريق النهري ، وضم مساحات جديدة الى الدولة التي يسيطرون عليها ، ولكن تقدمهم لم يكن سريعاً أو سهلاً ، وكانوا يعهدون بإدارة الأراضي الخارجية (أى الإمارات) إلى الأقارب الذين لم يكن لهم إهتمام سوى عزل قريبهم في كييف من كرسى الإمارة وليس توطيد سلطانه . وظلت الدولة أقرب الى كيان مفكك . فضلاً عن المضايقة المستمرة من الأعداء الخارجيين خاصة الخزر Khazars والبنجناكية (البشناق) Bechenegs الذين كانوا يتنافسون معها على الطرق التجارية الجنوبية ، ومع ذلك إستمر أمراء كييف في تعزيز إمتيازاتهم . فقد نجحوا أن يبقوا أعداءهم على مسافة آمنه لعدة أعوام وفي كبح مطامح الأمراء الصغار . وفي نفس الوقت حافظوا على العلاقات التجارية مع الإمبراطورية البيزنطية ، وإستطاعوا بالتدريج ان يأمنوا شرها بتكرار إستعراض القوة العسكرية الكييفية ، والتي وصلت في بعض الأحيان الى مهاجمة القسطنطينية مثلما حدث في عام ٨٦٠ م . والواقع أن الهجوم الروسي لم يستهدف الغزو بل كان من أجل السلب والنهب ، لذلك عادت القوة الروسية بعد أن حققت أهدافها ، وقد ساعد على ذلك أن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث Micheal III (٨٤٢ - ٨٦٧م) كان قد خرج بجيشة لمحاربة المسلمين وبعدها فوتيوس photius بطريك القسطنطينية بجانب من المادة التاريخية حول هذه الأحداث .

وهاجم الروس الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى عندما هاجموها بقيادة أميرهم أوليج Oleg ووصلوا حتى أسوار العاصمة فى عام ٩٠٧ م . وقد نجح الروس فى إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية ، واضطر الإمبراطور ليو إلى التفاوض ، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بين الطرفين ، وجدد هذا الإتفاق مرة أخرى عام ٩١١ م ، ونصت بنوده على منح الروس تسهيلات وإمتيازات بحرية فى الأراضى البيزنطية - وإستمر السلام بين الطرفين حوالى ثلاثين عاماً إنتعشت خلالها التجارة بين الطرفين ، وإستمر البيزنطيون فى سياستهم التى ترمى الى كسب الروس إلى جانبهم عن طريق الهدايا . وفى عام ٩٤١ م تعكر صفو السلام بين الطرفين ، فقد قام الأمير الروسى إيجور بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ، ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور، ورسست القوات الروسية على الشاطئ الآسيوى للبسفور فى إقليم بثينا Bithynia ونهبوا وسلبوا . وفى ذلك الوقت كانت القوات البيزنطية تحارب فى الشرق عند مدينة ملطية ، فإستدارت القوات وعلى رأسها حنا كوركواس John Curcuas وتوجهت الى ميدان القتال وهزمت الروس شر هزيمة فى إقليم بثينا . وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحرى ثيوفانىس Theophanes قاد حملة بحرية ضدهم - وهم يعدون العدة للإنسحاب ، مستخدماً النار الأخرقية ونجح فى تدمير معظم سفنهم التى قدموا عليها.

وعاود الروس الإغارة على الأراضى البيزنطية فى خريف عام ٩٤٤ م ، وإستعدوا إستعداداً ضخماً هذه المرة وتحالفوا من البجناكية لضرب الإمبراطورية ، وحددوا ميدان المعركة فى هذه المرحلة لكى تكون على نهر الدانوب بدلاً من الشاطئ الآسيوى ، ليكونوا على مقربة من البجناكية

المتحالفين معهم ، والواضح أن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبجناكية لإنشغالها بحروبها فى الشرق خلال هذا العام ، وماتلى ذلك من الصراع على العرش بين ولدى رومانوس وقسطنطين السابع ، لذلك وجدت الدولة أن من الحكمة أن تريح نفسها من هذا الصراع فى الوقت الذى تعلم فيه ان الأموال والهدايا لها مفعول أقوى من مفعول السيوف مع مثل هذه الأقوام ، لذلك إنتهى الأمر بالصلح فى العام نفسه ، وكلل هذا الصلح بمعاهدة تجارية تتلاقى فى خطواتها الرئيسية مع صلح عام ٩١١ م ، ولكنها كانت لصالح الإمبراطورية البيزنطية أكثر منها لصالح روسيا .

ساد السلام بين بيزنطة والروس ، وتوطدت أركان الصداقة بينهما عندما زارت الأمباطورة أولجا Olga - أرملة إيجور والوصية على العرش الروسى - القسطنطينية عام ٩٥٧ م حيث تم إستقبالها إستقبالا حاراً وعمدها بوليكتوس polyeuctes بطريق القسطنطينية (٩٥٦ - ٩٧٠ م) وسميت باسم هيلينا ، وهو إسم زوجة الإمبراطور قسطنطين السابع ، وإن كان البعض يرى أنها إعتنقت المسيحية قبل ذلك بعدة سنوات ، والمهم أن هذا الحدث فتح عصراً جديداً فى العلاقات البيزنطية الروسية ، وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أرضاً صالحة للقيام بعملها التبشيري فى روسيا .

وعندما أصبح سفياتوسلاف Svyatoslav أميراً لكيف عام ٩٦٤ م ، وجد أن المدينة على درجة من القوة سياسياً وإقتصادياً وعسكرياً تبرر محاولة توسيع المملكة فى ظل سيطرتها . فباتجه أولاً الى الشرق وغزا بلاد الخزر وإستولى على أراضيهم الواقعة عند نهري الفولجا السفلى والدون ، ثم استدار بقوته بناء على طلب الإمبراطور البيزنطى الى الغرب ضد البلغار على الدانوب ، وهناك ضم إلى إمارة كييف مزيداً من

الأراضى - ولكن طموحه تجاوز الحد وشنت حملاته العسكرية القوة العسكرية لكييف .

وكان البجناكية والإمبراطورية البيزنطية على استعداد لإنتهاز الفرصة ، واستطاع البجناكية أن يحرزوا إنتصارات كبيرة ضد الروس حتى أصبحوا يهددون مدينة كييف ذاتها ، كما أجبروا الإمبراطور البيزنطى على التخلي عن الأراضى الواقعة على الدانوب ، وحاول سفياتوسلاف أن يعزز دفعاته ، ولكن قبل أن يصلح مافقدة كان قد قتل فى عام ٩٧٢ م فى مواجهة مع البجناكية .

تحويل روسيا الى المسيحية :

من أهم الأحداث خلال حكم فلاديمير تحول الروس الى ديانة كانت تشكل العنصر الرئيسى فى الثقافة البيزنطية - أى الديانة المسيحية - التى تؤديها الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - أو الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية . ولقد ولدت هذه الكنيسة نتيجة للإنشقات والإنقسامات العديدة التى دمرت الوحدة الأهلية للكنيسة المسيحية . وبسبب الإنقسام نشأ مركزان دينيان رئيسيان وهما روما . والقسطنطينية . ومع أن الإنقسام النهائى بين هذين المركزين لم يحدث إلا عام ١٠٥٤ . فقد ظهر تنظيميان دينيان مستقلان فى القرن التاسع وهما الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها روما ، والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ومركزها القسطنطينية .

وخلال القرن العاشر كان عدد كبير من أفراد الطبقات العليا قد تأثروا بالثقافة والديانة البيزنطية الأكثر تقدماً ، وكان من الطبيعى أن يميل الأمراء والحكام نحو العقيدة البيزنطية ، وحوالى عام ٩٨٨ م إستقبل فلاديمير فى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بالقسطنطينية ، وبعد سنتين أعلن أن المسيحية هى عقيدة مملكته ، وأمر بتعميد كل رعاياه . وكانت

هذه الأعمال سبباً فى ضمه الى القديسين فيما بعد . وأعقب ذلك إقامة أسقفية مركزها كيف لتكون فرعاً للكنيسة البيزنطية ، وكان مطرانها يعين بمعرفة بطريك القسطنطينية . وحتى عام ١٢٧٣م كان المطارنة والقسس من الأغريق أو البلغار .

وكان انتشار المسيحية فى روسيا تدريجياً وقد بدأ بالطبقات العليا وانتشرت ببطء فى الطبقات السفلى وعلى نحو أبطأ فى سكان المناطق الريفية ، واستمرت عبادة الآلهة الوثنية سراً لعدة قرون حتى وجدت بعض العناصر الوثنية طريقها للعقيدة الجديدة تدريجياً . ومع بناء دور العبادة وإقامة الأديرة وتدريب رجال الدين المحليين بدأ الروس فى النظر الى الكنيسة كمركز روحى لهم حتى أصبح القطر الروسى يعرف باسم « روسيا المقدسة » .

كانت لغة الكنيسة فى روسيا هى السلافية وليس اليونانية ، لقد اعتادت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية على إستخدام اللغات المحلية فى الصلاة للمناطق التى تدخلها المسيحية ، ولكن لما كانت الكنيسة السلافية قد نشأت وتطورت فى بلغاريا والتى كانت قريبة الصلة باللغة المتداولة فى روسيا فقد استخدمت فى الأخيرة كلغة دينية . ولقد تطورت أبجدية اللغة السلافية الكنيسة المبنية على الأبجدية الأغرريقية أساساً على يد المبشر سيريل ، Cyril وذلك فى الجزء الأخير من القرن التاسع ، حتى يمكن ترجمة الأدب الدينى الى اللغة المحلية للسلاف الجنوبيين والغربيين ، وبذلك يمكن تحويلهم إلى المسيحية . وقام شقيق سيريل ويدعى ميثوديوس Methodius بترجمة الكتاب المقدس (الإنجيل) للغة السلافية الكنسية وأعقب ذلك ترجمة النصوص الدينية الأخرى . كانت هذه الترجمات أول عمل أدبى مكتوب متاح للروس وأصبحت نموذجاً لأدبهم الدينى . كما أن أدبهم الدينى قد استخدم السلافية الكنيسة حتى القرن الثامن عشر تقريباً .

٤ - الحرب الأهلية ١٠١٥ - ١٠٣٦ م

تمزقت روسيا الكييفية نتيجة الصراع على العرش بين أبناء فلاديمير الخمسة لمدة عشرة أعوام بعد وفاته عام (١٠١٥ م) ، وقد بدأ أكبرهم سفياتوبولك Svyatopolk فى تبوأ العرش بعد قتل إثنين من إخوته ، ولكنه وجد منافساً له وهو أخ آخر يدعى ياروسلاف yaroslav أمير نوفجورد وقد هزم ياروسلاف الأمير سفياتوبولك عام ١٠١٩ م وأخضع كييف وسيطر عليها واعتبر نفسه الأمير الكبير ، وفى ذلك الوقت كان هذا هو اللقب المقبول للحكام الروس الكييفيين . ولكن أخاه الذى ظل على قيد الحياة ويدعى مستيلاف Mstilav نازعه هذا اللقب ، فإضطر الى أن يتقاسم معه المملكة حتى عام ١٠٣٦ وهو تاريخ وفاته ، وكان مستيلاف يحكم ذلك الجزء الواقع شرق الدنيبر بينما كان ياروسلاف يحكم باقى القطر .

٥ - السنوات المجيدة ١٠٣٦ - ١٠٥٤ م

وبعد عام ١٠٣٦ م إستطاع ياروسلاف المعروف باسم الحكيم باعتباره الأمير العظيم أن يصل بروسيا الكييفية إلى ذروة التقدم عن طريق الاستمرار فى المشاريع والخطط التقدمية التى بدأها فى سنواته الأولى . وهكذا أخذ يشجع ويحمى العلاقات الاقتصادية الروسية مع الأقطار الأوربية والاسيوية حتى أصبحت كييف ملتقى التجار البيزنطيين والعرب والهولنديين والبولنديين والمجريين والأسكندناوين . كما أصبحت كييف مركزاً للتقدم الثقافى الروسى . وتم تشييد كاتدرائية أيا صوفيا هناك بمساعدة بيزنطة ، كما أقيمت بها مدرس ومكتبات ، وحظى الدارسون والفنانون بالتشجيع واتجه الشعب إلى الأنشطة السلمية . ورغم أن روسيا الكييفية كانت مرتبطة على نحو أوثق بالامبراطورية البيزنطية إقتصادياً

وثقافياً إلا أنها بدأت تعقد صلات أسرية مع العائلات الحاكمة فى أجزاء أخرى من العالم وكانت مثل هذه الروابط هامة فى تلك الأيام . لقد إرتبط ياروسلاف نفسه بروابط المصاهرة مع ملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج وبولندا . ويتوجهات من ياروسلاف تم تجميع أول مجموعة للقوانين فى روسيا وهى القانون الروسى . ومن حيث الشكل كان هذا القانون على نمط القانون البيزنطى ، وفى المضمون كان عبارة عن ملخص لما إعتبره ياروسلاف الأفضل بين الحقوق والإجراءات التى إستقرت بالعرف بين السلافيين والسكندنافيين والألمان ، لقد اعترفت أحكامه بالرق كنظام وبالتجارة كنشاط أساسى ، كما إعتبرت هذه الأحكام فى صورة معدلة بالممارسة العرفية فى السماح بتسوية المسائل الجنائية بين أطراف الخصومة ، لقد سمح بالانتقام الشخصى فى ظل بعض الظروف ، وفى أحوال أخرى كانت تدفع أموال تتدرج حسب المركز الإجتماعى للشخص المضار ، وكان تنفيذ القانون العرفى فى ظل القانون الرسمى مشاركة بين الكنيسة والدولة .

٦ - السنوات المظلمة : ١٠٥٤ - ١٢٢٣ م :

عندما توفى ياروسلاف (١٠٥٤ م) إبتداء نور السنوات المشرقة فى الأقوال . وعلى أمل تلاقى الصراعات الداخلية فى المستقبل والإحتفاظ بوحدة المملكة ترك ياروسلاف لكل واحد من ورثته الست إدارة جزء من المملكة ، وأوصى الخمسة الصغار من الورثة بطاعة أخيهما الأكبر الذى سيكون أميراً لكيف . وبعد ذلك إنقسم القطر الى إمارات تختلف من حيث الأهمية وتتزايد من حيث العدد مع كل جيل من نسل الإمارة . فعند موت أمير كيف فإن أكبر الأمراء يقوم بإخلاء الإمارة التى كان يحكمها ويتولى حكم كيف حاملاً لقب أميرها ، بينما ينتقل الأمراء الأحداث سناً فى السلم الهرمى للإمارات .

وكان فى هذه الطريقة للخلافة بعض نقاط الضعف الرئيسية منها :
أنها تفرض فى بعض الأحيان على الرعايا فى الإمارة أميراً جديداً
لا يوافقون عليه ، وتستبعد أميراً كانوا يفضلونه لقد سمحت للإمراء
بتولى السيادة والملك بترتيب عمرى منتظم بصرف النظر عن قدرتهم ،
وكان نجاح العملية يتطلب درجة عالية من الوحدة السياسية والتماسك
الثقافى تفوق تلك التى كانت متاحة لروسيا الكيفية . وكانت قوة الأمير
العظيم فى كييف العامل الرئيسى فى تماسك القطر ووحدته .

وعندما يتولى السلطة فى كييف أمير ضعيف كان الأفراد الصغار فى
العائلة المالكة ، يميلون الى تأكيد طموحاتهم فى السلطة والاستقلال .
مكونين تحالفات عسكرية ضد الأمير الكبير أو شانين الحرب ضد
المنافسين الآخرين . وقد تطرف البعض إلى حد التحالف مع الأجانب ،
كالبولنديين والمجريين وقبائل القفجاق البدوية .

وأخيراً وفى عام ١١١٣ م ، حكم كييف أمير كان من القوة بحيث
إستطاع إيقاف هذا التمزق لوقت قصير - وهو الأمير فلاديمير مونماخ
monomakh حفيد ياروسلاف . لقد بذل جهداً لعقد السلام بين الإمراء
المتنافسين ، ونجح فى نشر السلام بينهما نسبياً لمدة اثنا عشر عاماً ، ولو
أنه أخفق فى إرساء نظام فعال لهم . وفى هذه الأثناء أمكنه أن يوقف
غارات القبائل البدوية على حدود روسيا ، وأتاح لكييف الفرصة فى
استعادة بعض رخائها السابق . ولكنه لم ينجح فى تحويل قوى
التحلل والتفكك إلى قوى بقاءه . وبعد وفاته أخذ الفساد ينخر فى بناء
الدولة على نحو أسرع من ذى قبل ، وبدأت كييف تفقد القوة سواء
كنقطة مركزية للسلطة السياسية أو كمدينة ، فالسلطة التى تركزت هناك
أصبحت مقسمة بحيث أصبحت سيطرة كييف قاصرة على الجنوب فى

حين سيطرت نوفجورود على الشمال ، وغالسيا galicia على الغرب
،سوزدال، Suzdal ، وفلاديمير Vladimir على الشمال الشرقي ،

٧ - نشأة موسكو فى Muscovy

من بين تلك المدن التى كانت تتنافس على الظهور ، لم تكن هناك
مدينة أحسن موقعا من موسكو، وهي مدينة أنشأت - حسب المصادر
القديمة - فى عام ١١٤٧م، فموقعها الجغرافى بالقرب من قلب الأراضى
الروسية بالاضافة إلى الأحداث التاريخية وشدة بأس حكامها الأمراء ،
كل هذه العوامل وفرت لها مزايا غير عادية للنمو .

وبسبب موقعها على نهر موسكوف (ويطلق على المدينة باللغة
الروسية مدينة موسكوف) فى نقطة مرور طريق التجارة الذى يصل ما بين
نهرى أوكا Oka وفولجا العليا، أمكن لأمرائها أن يطوروها كمركز تجارى
متين فيتحكمون منه على إمارة شاسعة تعرف باسم موسكو، وفى
الوقت المناسب استطاع أمراء موسكو فى أن يجعلوها مضفين عليها
شعارات ورموزا وطنية معينة وباسطين سلطتهم السياسية والعسكرية
على المناطق المجاورة .

وبعد هذا التقسيم أخذت كييف تتدهور بسرعة ، وفى عام ١١٦٩ م
إجتاحت المدينة قوات متحالفة لمجموعة من الأمراء ، وفى خلال ثلاث
أيام كانت قد خربت أو نهبت الكثير . كما أخذت كييف تعاني على
أيدى القبائل الرحل التى أخذت تهاجم شمال البحر الأسود مما أدى إلى
تقليل حجم التجارة مع بيزنطة وهددت المدينة ذاتها - وبعد أن وقعت
القسطنطينية فى يد الصليبيين عام ١٢٠٤ م وتدهورت بيزنطة نفسها
إقتصادياً وسياسياً أصبحت الحياة الاقتصادية لكييف بلاسند أو نصير .
وبعد أن أصبحت روسيا فقيرة وضعيفة لثالث مرة خلال مائتى عام
صارت فريسة سهلة نسبياً للقوى الأجنبية النهائية ، وكان على حدودها

الكثير من تلك القوى . وجاءت أولاً قبائل القفجاق البدوية التي أزعجت الإمارات في منطقة الأستبس حتى القرن الثالث عشر . عندما ماينتست من النجاح بدأت تتحالف مع مختلف الأمراء الروس .

وفي خلال هذه الفترة جاء اللتز Letts والليتوانيون من منطقة البلطيق الذين طردهم الفرسان التيوتون من ديارهم بهدف الإقامة في الإمارات الروسية الشمالية ، كذلك السويدون الذين أرادوا السيطرة على مصب نهر نانا Neva وقطع تجارة نوفجورود ، ومن الجنوب الغربي جاء المجرين الذين كانوا يندفعون نحو الشرق فاتحين ، خصوصاً في جاء المجرين الذين كانوا يندفعون نحو الشرق فاتحين ، خصوصاً في إمارة غالسيا . وأخيراً جاء المغول من الجنوب الشرقي وهم محاربون متوحشون ومدربون على القتال فإكتسحوا روسيا من منطقة القوقاز عام ١٢٢٣ م .

الغزو المغولي وأمراء روسيا

١ - طبيعة الحكم المغولي :

نجح المغول في محاولاتهم الأولى عام ١٢٢٣م في هزيمة الأمراء الروس الذي تحالفوا ضدهم وألحقوا بهم الهزيمة بالقرب من بحر أزوف . وعلى أي حال فاتهم لم يندفعوا في الغزو في ذلك الوقت ، وبدلاً من ذلك عادوا إلي آسيا . وبعد ثلاثة عشر عاماً أي في عام ١٢٣٦م جددوا هجومهم ، وفي هذه المرة أقموا غزوهم للروسيا في غزوتين رئيسيتين . فقد هاجموا أولاً الإمارات الوسطى والشمالية حيث إحتلوا بالقوة أو قبلوا خضوع مدن ريبازان ، وكولومنا ، وموسكو ، وفلاديمير ، وسوزدال ، وتفر Tevr ، وفي شتاء عام ١٢٣٨ كانوا على بعد ستين ميلاً من نوفجورد ، ولكنهم عادوا إلى جنوب روسيا هرباً من قسوة الشتاء في الشمال ، ومن قاعدتهم في

الجنوب جددوا غزوهم التالي الذي بدأ عام ١٢٣٩م. الذي أسفر عن سقوط كييف عام ١٢٤٠ م .

ومن كييف إستمروا فى الزحف غرباً إلى المجر وبولندا إلى أن اضطروا إلى إيقاف العمليات عام ١٢٤١ م بسبب حدوث تغييرات سياسية فى امبراطورية المغول . وخلال العام التالي أقاموا مراكز رئيسية لهم فى ساراي sarai التى تقع على نهر الفولجا بالقرب من ستالنجراد الحالية ، ووطدوا حكمهم وأصبحت الامارات الروسية التى غزوها ، وتلك التى وافقت على الخضوع ، تعترف بسيادة المغول كما إعترفت بها نوفجورود - ولو أنها لم تتعرض للغزو - وذلك لضعفها . ولكن المغول لم يستطيعوا أن يحتفظوا بكل مكاسبهم . ففى النصف الأول من القرن الرابع عشر ضمت دوقية ليتوانيا الكبرى الصاعدة معظم غرب روسيا (المعروفة الآن بروسيا البيضاء) ، وفيما بعد ضمت جزء من روسيا الصغيرة (المعروفة الآن بأوكرانيا) بما فيها مدينة كييف .

لقد خضعت روسيا فيما عدا مدينة نوفجورود والبلاد الشمالية الغربية للسيطرة المغولية، وقد مات خلال المعارك التى وقعت بين المغول والروس العديد من الأمراء كما فر الباقون، أما العامة فقد ماتوا بالآلاف خلال هذه الحروب، كما أن سيدات وأفراد الطبقات العليا قد أصابتهم المذلة ونزلوا إلى ميدان العمل بعد الحياة الرغدة التى عاشوها. وإذا بحثنا على الأسباب التى أدت إلى هزيمة الروس أمام المغول فنجدها كثيرة، ولعل أهمها النقاط التالية:

١ - أن المغول لم يكونوا أكثر تقدماً فى الجانب العسكري عن الروس الذين تعلموا بعض فنون القتال من أوروبا فى تلك المرحلة، ولكن المغول كان لديهم التفوق العددي فى كل المعارك التى خاضوها ضد الروس.

٢ - كان تحرك القوات المغولية بمثابة تحرك رجل واحد أمام القوات الروسية المتفرقة، لذلك نجحت في هزيمة قوات أمراء المدن.

٣ - لقد كانت القوات الروسية منقسمة وموزعة داخل روسيا، وإذا ما حاولت القوات الروسية الاتحاد لمواجهة المغول، كانت القوات المغولية تفاجئها قبل الاتحاد بقوات المغولية السريعة الحركة.

٤ - كانت جميع القوات المغولية موحدة عسكرياً تحت قيادة الأمير باطو وجميعها مسلحة، أما القوات الروسية فإن الأمراء ورجالهم هم الذين كانوا مسلحين فقط، وفيما يتعلق بالغالبية العظمى فقد كانت غير مسلحة، لذلك تعرضوا بسهولة للقتل أو الأسر.

وبعد سيطرة القوات المغولية على روسيا، شيد باطو مدينة أكتوبا Aktouboa التي أطلق عليها اسم ساراي Sarai أي القلعة، وهي التي أصبحت عاصمة لمغول القبيلة الذهبية التي إمتدت ممتلكاتها من جبال الأورال بحر قزوين شرقاً حتى مصب نهر الدانوب على البحر الأسود غرباً. ومن الملاحظ هنا أن القبيلة الذهبية قد ضمت إليها عناصر أخرى غير مغولية مثل البجاكية والكومان وقبائل تركية أخرى، وبدأت تتعلم معنى الاستقرار وظلت دولة باطو وخلفائه من بعده تحكم هذه المناطق حوالي قرنين من الزمان. ولقد بدأ إستقلال القبيلة الذهبية في عام ١٢٦٠م أي في العام الذي وقعت فيه معركة عين جالوت وهو العام الذي توفي فيه الخان الأعظم مونكو. وسوف تمر القبيلة الذهبية بمرحلة من الانقسام الداخلي حتى وحدها مرة أخرى الخان أوزيك في عام ١٣١٢م، وهو الذي أعاد إليها هيبتها ومجدها مرة أخرى.

لقد كان الأمير جورج الثاني يتولى أمر قيادة قوات مدينة سوزدال ولكنه فشل في مقاومة القوات المغولية ولقى مصرعه في إحدى المعارك،

ثم تولى أحد أبنائه قيادة قوات الإمارة ولكنه فشل في مقاومة الغزو المغولي وهزم في معركة أوكا Oka، كما أن الأمير ياروسلاف Yaroslaf أخ الأمير جورج الثاني قد هزم في معركة ليبوتسك Lipotsk، وتوجه بعد ذلك إلى مدينة سوزدال. والحقيقة أن الأمير ياروسلاف (١٢٣٨ - ١٢٤٦م) قد وجد إمارة أخيه في حالة سيئة للغاية، فقد وجد جثث الموتى تملأ المدن والقرى، أما الأحياء فقد فروا إلى الغابات، كما كانت الحرائق التي أشعلتها الحروب قد أتت على الأخضر واليابس. وكان على ياروسلاف إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فبدأ في تجميع فلول قوات الإمارة لإعادة بناء القوات المسلحة.

وكان على ياروسلاف أيضاً إن أراد البقاء في إمارته أن يذهب إلى الأمير باطو في عاصمته سراي ليقدّم له فروض الولاء والطاعة، وقد استقبل ياروسلاف في العاصمة بكل ترحاب، وأنعم عليه باطو بلقب أمير الأمراء، وطلب منه التوجه إلى العاصمة قراقورم ليقدّم فروض الولاء للخان الأعظم أوكيتاي، وقد ذهب ياروسلاف إلى قراقورم وقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم، وبرأ نفسه من الإتهامات التي وجهت إليه، ولكن ياروسلاف مات أثناء عودته إلى بلاده، وقد حمل رفاقه جسده إلى مدينة فلاديمير. وكان لياروسلاف ولدين هما أندرو الذي كان يحكم إمارة سوزدال (١٢٤٦ - ١٢٥٢) والكسندر الذي كان يحكم إمارة نوفجورد.

وكان الكسندر هذا قائداً شجاعاً وذكياً ولقب ببطل الشمال، لأنه نجح في شبابه في صد جميع محاولات الغزو الخارجي خاصة العناصر الفنلندية، وكافة العناصر الاسكندنافية والقوات التي حركها البابا في شكل حرب صليبية لنشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل

روسيا. وقد أدرك الكسندر الذي عرف باسم الكسندر نيفسكي Nevski أن مقاومة القوات المغولية يعتبر ضرباً من الجنون وأن ذلك يعني خراب كل روسيا، وكان عليه أن يتصرف بكل حكمة لمواجهة الموقف. كما أدرك أيضاً أن القوات المغولية بوسعها أن تتقدم حتى إمارته نوفجورد وإلى أبعد منها إذا لزم الأمر.

وقد بدأ خضوع الكسندر إلى المغول عندما أرسل إليه الخان باطور رسالة يقول فيها، إن الله قد أخضع لي الكثير من الشعوب، وإن كنت تريد أن تحافظ على إمارتك فعليك الحضور إلينا لترى عظمة ومجد المغول. ولم يكن أمام الكسندر إلا تنفيذ أوامر باطو، فاتجه إلى العاصمة سراي ومعه أخوه أندرو، ومنها إلى العاصمة قراقورم في عام ١٢٥٧م ليقدموا فروض الولاء والطاعة مثلما فعل ياروسلاف من قبل. وفي العاصمة المغولية أنعم الخان الأعظم كيوك على الكسندر بولاية نوفجورد بالإضافة إلى روسيا الجنوبية حتى مدينة كييف، وأنعم على أخيه أندرو بولاية فلاديمير.

وفي عام ١٢٦٠م تغيرت الأوضاع الداخلية لدولة المغول وأصبح بركة بن جوجي خان القبيلة الذهبية مستقلاً عن بقية الدولة المغولية في منغوليا وفي فارس وفي تركستان الشرقية. وكان على الخان بركة أن يعيد تنظيم دولته. ومن ضمن هذه التنظيمات إجراء إحصاء في ولاية نوفجورد يتم بموجبه تحديد قيمة الضرائب المطلوبة. وعند هذه المرحلة اعترض البعض ورأى الآخرون أنه يجب الخضوع للمغول ودفع الضرائب باعتبار العناصر المغولية دولة قوية. وكان بازيل بن الكسندر من المعترضين على دفع الضرائب، وبدأ التمرد داخل الولاية. ومن أحداثه إعادة السفراء المغول، ولم يكن أمام المغول سوى الاستعداد لمعركة عسكرية ضد الكسندر. وعند هذه المرحلة أحس الكسندر أو عليه أن يواجه التمرد أو المغول، فواجه التمرد وقبض على

ابنه بازيل وأعدمه وأعدم من ساندوه. ورغم هذا كله فقد كانت الثورة كامنة في شعب ولاية نوفجورد، فقد تجمع الأهالي في ميدان كنيسة سانت صوفيا وأعلنوا أنهم يفضلون الموت وهم أحرار عن الحياة وهم عبيد. وعند هذه المرحلة أعلن الكسندر أنه سوف يغادر المدينة ومعه قواته، ويتركها لمصيرها في مواجهة المغول. وبذلك تخلى شعب نوفجورد عن الثورة إلى حين.

بعد هذه الأحداث استطاع عمال المغول من جامعي الضرائب أن يدخلوا المدينة آمنين يعاونهم أنصار الكسندر في التنقل من منزل إلى آخر لحصر السكان وتدوين ذلك في سجلاتهم، وتكرر ذلك المنظر في المدن الأخرى التابعة لولاية نوفجورد، ورغم الهدوء الذي ساد المدن الروسية، إلا أنه كان هدوء نسبياً لم يلبث أن انفجر في الوقت المناسب.

ففي عام ١٢٦٢م ثار سكان مدن فلاديمير، وسوزدال وروستوف Ros-tofe، ضد جامعي الضرائب من المغول، وقمادت مدينة ياروسلاف Yaroslav وقامت بذبح أحد جامعي الضرائب من المغول، وكان راهباً مسيحياً اعتنق الإسلام. وبذلك حل عقاب المغول على المدينة، ولكن الكسندر أنقذ الموقف عندما خاطر بحياته وأسرع إلى مدينة سراي العاصمة المغولية محملاً بالهدايا، وقدم شديد إعتذاره إلى القيادة المغولية عن الحادث وفسر حدوثه إلى التعصب الديني، وليس إلى التمرد على السلطات المغولية. وقد استقبل بركة خان القبيلة الذهبية الأمير الكسندر وتقبل العذر الذي قدمه وأعفاه من دفع الغرامات المطلوبة، وبذلك نجح الكسندر في إنقاذ ولايته من انتقام المغول، واستعد للعودة إلى بلاده.

وأثناء وجود الكسندر في رحلة الوفاق هذه، هاجمت العناصر الشمالية أراضي الإمارة، فاتحدت قوات نوفجورد مع قوات سرزدال تحت قيادة ديمتري ابن الكسندر في صد القوات المغيرة، ومع عودة الكسندر إلى

عاصمته فلاديمير تدهورت صحته ومات في هذا الوقت العصيب الذي تتعرض فيه ولايته للسيطرة المغولية وأخطار العناصر الشمالية، فنعتته الكنيسة وأنصاره ومحبيه واعتبر البعض أن الشمس التي كانت تضيء روسيا قد غربت.

والحقيقة أن الكسندر استطاع بسياسته السليمة مع المغول أن يعيد الهدء إلى بلاده، وأن يمنع العناصر الشمالية من إجتياح أراضيه بقواته العسكرية، وبهذه السياسة المرنة نجح الكسندر في الحفاظ على مجد وهيبة ولاية نوفجورد في هذا الوقت العصيب الذي لم تتعرض له من قبل.

بعد أن سيطر المغول على روسيا لم يقوموا بأي تغيير في الأوضاع الداخلية للبلاد بصورة مباشرة، فلم يغيروا الدساتير أو القوانين أو الأعراف التي سادت المناطق الروسية، كما أنهم لم يغيروا حكام الولايات طالما قدموا للمغول فروض الولاء والطاعة. يضاف إلى ذلك أن أصحاب الأراضي ظلوا يمتلكونها لأن المغول كشعب بدوي فضلوا التمرکز في السهول الشرقية والجنوبية الواسعة. ولعل ذلك يفسر لنا بقاء العناصر المغولية متماسكة لفترة طويلة قبل أن تذوب مع العناصر الروسية. أما عن العلاقة بين المنتصر وهم المغول والمغلوب وهم الروس فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أولاً : كان على الأمراء الروس الذهاب إلى العاصمة سراي لتقديم فروض الولاء والطاعة أو يتم استدعاء هؤلاء الأمراء لتلقي الأوامر، يضاف إلى ذلك أنه كان على الأمراء الروس الذهاب إلى الخان الأعظم في قراقورم إذا ما طلب منهم خان القبيلة الذهبية التي تحكم روسيا ذلك، وليس ذلك فحسب بل كان عليهم أن يقدموا الهدايا المناسبة متحملين مخاطر الطريق ذهاباً وإياباً، كما كان على هؤلاء الأمراء إتباع الطقوس التي يقوم بها

المغول مثل السجود أمام خيمة الخان قبل دخولها. وكان الأمير لا يتولى أمر إمارته إلا بعد صدور قرار من الخان بذلك.

ثانياً: كان على الروس تقديم ما يسمى بضريبة الرؤوس، وهي ضريبة يدفعها كل فرد، وكانت تمثل عبئاً على الفقراء والأغنياء أيضاً. وكانت الضريبة تسدد نقداً أو عيناً مثل الفراء، ومن يعجز عند سدادها ينضم إلى طائفة العبيد. وكان لتعسف جامعي هذه الضريبة دوراً هاماً في قيام العديد من الثورات مثلما حدث عام ١٢٦٢م كما أوضحنا وكما حدث عام ١٢٨٤م في مدينة كورسك Koursk وفي عام ١٣١٨ في مدينة كولومنا، عام ١٣٢٧ في مدينة نفر، وفي الحادثة الأخيرة ذبح الأهالي أحد جامعي الضرائب فتعرضوا للانتقام الشديد.

ثالثاً: وكان هناك أيضاً ضريبة تعرف باسم ضريبة الدم وهي الخدمة العسكرية مع القوات المغولية، وكان على الأمراء الروس تقديم جماعات من الجنود الأشداء وتكون مهمتهم السير أمام الجيش المغولي لتلقي الصدمة الأولى، ومن ذلك أنه في عام ١٢٧٦م قدم الأمراء الروس قوات كبيرة إلى خان القبيلة الذهبية منكوتسيور (١٢٦٧ - ١٢٨٠م) لمحاربة شعوب القوقاز، وكان من عادة المغول تسليم هؤلاء الأمراء نصيبهم من الغنائم مثل ما حدث في مدينة ديدياكوف Dediakof.

رابعاً: كان الأمراء الروس مكلفين بالقبض على الثائرين والخارجين على القانون إلى السلطات المغولية، ومن ذلك ما حدث مع المغامر لاخاناس Lachanas، وهو راعي للدخازير قام بالثورة عند منطقة الدانوب.

خامساً: إتبع المغول سياسة فرق تسد. ومن ذلك أنه في عام ١٢٨١م تنازع أندرو بن السكندر مع أخيه ديمتري، وساند المغول أندرو وساعده على نهب مدينة فلاديمير، وسوزدال، وموسكو وغيرها، ولم يفرق هذا

العمل بين المنازل أو الكنائس أو الأديرة. وفي عام ١٢٣٧م قام أمراء موسكو وسوزدال بحملة عسكرية ضد مدينة نير بناء على تعليمات صادرة من خان القبيلة الذهبية. وعندما تصارع أولج مع سفياتوسلاف على حكم مدينة كورسك ساند الخان الأمير أولج ودفعه لقتل غريمه، ولعل هناك بعض الصواب من الوجهة السياسية لأن سيفاتوسلاف قد أثار غضب الخان بسبب تصرفاته غير الحكيمة.

سادساً : لم يكن من حق الأمراء الروس إعلان الحرب على بعضهم أو خارج روسيا إلا بعد موافقة الخان، ومن ذلك إن أمير نوفجورد حصل على موافقة الخان لإعلان الحرب على ريثل Revel. وعندما اختلف بعض الأمراء في عام ١٣٠٣م، وصل مرسوم من الخان يطالبهم بوضع حد لخلافاتهم وأن يكتفي كل منهم بالأقطاعية المخصصة له.

سابعاً : عندما كان الأمراء الروس يستقبلون سفراء الخان كان عليهم السجود أمامهم، وأن يفرشوا لهم السجاجيد الفاخرة، وأن يقدموا لهم الكؤوس المملوءة بقطع الذهب، وعليهم الاستماع بكل اهتمام إلى أوامر الخان وتنفيذها بكل دقة.

ثامناً : لقد قدر المغول الروس خاصة الشجعان منهم، ولذلك نرى قيام مصاهرات بين المغول والأمراء الروس، ومن ذلك ما حدث عام ١٢٧٢م عندما تزوج الأمير الروسي جليب Glebe أمير بيلوزرسك Bielozersk من إحدى الأميرات المغوليات، وعندما تزوج فيودور Feodor أمير ريازان من عائلة القائد المغولي نوجاي، وقد خصص للأمير قيودور قصرًا في مدينة سراي. كما تزوج في عام ١٣١٨م كبير الأمراء جورج من أخت خان القبيلة الذهبية أوزيك ١٣١٢ - ١٣٤١م، وكان عليها أن تعتنق المسيحية وأصبح أسمها أجات Agathe، ولعل ذلك يوضح لنا موقف المغول من الديانات الأخرى.

وتفاوتت درجة التأثير والتأثر بين المغول والروس، فواقع الحال أنه مع نهاية القرن الرابع عشر لم يعد المغول هم الرعاة الأشداء، فقد تأثر المغول بسكان المدن الأكثر تحضراً منهم، ولذلك شيد المغول بعض المدن مثل العاصمة سراي، وقازان، واسترخان. ومع إقامة هذه المدن عرف المغول حياة الدعة والرفاهية، وأقاموا الحفلات للشعراء الذين كانوا يمدحونهم ويفخرون بفروسيتهم وشهامتهم. ولم يكن الدين حائلاً في وجه المغول فقد تعاملوا مع جميع الأديان بسماحة متوازنة.

وقد اختلف المؤرخون حول درجة تأثير المغول على الروس، فيرى البعض أن الروس اكتسبوا بعض العادات من المغول ظل أثرها حتى أيامنا هذه. بينما يرى آخرون أن الروس تأثروا بعناصر البيجناكية أكثر من تأثرهم بالعناصر المغولية. وفي اتجاه آخر يرى البعض أن المغول الروس كانوا قوة عسكرية واحدة اختلفت عن التي كانت سائدة في غرب أوربا. وقد أصبح هذا النظام نموذجاً حتى عدة قرون. كما يلاحظ أن الزي العسكري للأمرء الروس في القرن الخامس عشر كان يتمثل في المعطف الطويل والقلنسوات العالية، مع وضع السيوف أو الخناجر في أحزمتهم.

ويرى بعض المؤرخين أن بعض العادات التي يعتقد أنها من أثر الحكم المغولي لروسيا ربما تكون من أصل سلافي أو بيزنطي، ويتجلى ذلك في النزعة الاستبدادية التي ترجع إلى النمو الطبيعي للأفكار الاستبدادية القادمة من الامبراطورية البيزنطية، فقد كان الامبراطور البيزنطي هو النموذج للحكم المطلق.

وقد استخدم الروس عقوبة الموت أو التعذيب الجسدي، ويرى البعض إن ذلك يرجع إلى التأثير بالقوانين البيزنطية التي تسلت تدريجياً إلى

روسيا، ومن هذه القوانين الإعدام وبتتر أحد أعضاء الجسم والجلد والحرق. أما عادة السجود أمام الحاكم فهي عادات شرقية ترجع إلى أصول بيزنطية.

وإذا كان الروس قد ظلوا لفترة طويلة بالملابس الطويلة والطرز الشرقية فعلينا أن نتذكر أن الفرنسيين والايطاليين ظلوا حتى القرن الخامس عشر يرتدون الأزياء نفسها، ولكن التغيير الذي حدث في أوربا لم يحدث في روسيا وظلت على حالها بسبب عزلتها عن أوربا.

وعن إمتزاج الدماء المغولية بالدماء الروسية فيرى البعض أنه كان ضعيفاً، وأن التقارب لم يحدث إلا بين الطبقة الارستقراطية في كلا الجانبين، وإن كلا الشعبين قد ظل غريباً عن الآخر. ولعل هذا الرأي يكون مقبولاً في أوائل الحكم المغولي لروسيا، أما مع مرور الزمن فقد إنصهر الجميع في بوتقة واحدة وضمت الأمة الروسية جميع العناصر التي عاشت على أرضها بغض النظر عن الأديان التي اعتنقتها تلك العناصر، فقد نما الإسلام خاصة في المناطق الجنوبية كما نمت المسيحية على المذهب الارثوذكسي في الشمال وهو مذهب الامبراطورية البيزنطية، ومنح الخانات الامتيازات العديدة للكنائس والأديرة والمساجد على السواء.

إيفان الأول وخلفاؤه :

إن الأمير ايفان الأول Ivan 1 (المعروف بكاليتا أو صندوق الأموال Money page) الذي حكم موسكو (١٣٢٥ الى ١٣٤١م) زاد من نفوذه بإتخاذ خطوتين هامتين : الأولى أنه أغرى المطران بنقل مقر الكنيسة إلى موسكو ، وبذلك كسب لمدينته هيبة ونفوذاً باعتبارها المركز الروحي لروسيا ، والثانية انه برشوة زعماء المغول ، وإستخدام القوة ضد جيرانه حصل

على تأييد بمنحه لقب الأمير الكبير لإمارة فلاديمير وكل روسيا ، واحتفظ الأميران اللذان خلفاه وهما سيمون Simeon وإيفان الثانى (الأحمر) بمكاسبه . وجاء الأمير الأعظم ديمتري Dmitri بعدهم وعزز مركز موسكو أكثر عندما هزم المغول فى منطقة نهر الدون الأعلى عام ١٣٨٠ م ، ومع ان المغول فاقوا من الهزيمة ، فإن جهده ونجاحه الأول كانا سبباً فى إيقاظ المشاعر القومية للروس حول حكام موسكو كرموز لتحدى المعتدين الأجانب . وانهمك خلفاؤه باسيل الأول وباسيل الثانى فى المحافظة على ممتلكاتهما ضد تدخل الليتوانيين والمغول ومحاولات المتنافسين على العرش ، ومع ذلك استطاع باسيل الأول أن يضم أراضى قليله إلى إمارة موسكو ، كما عزز باسيل الثانى إستقلال مطرانية موسكو بمعارضة الترتيبات التى إتخذت بمجلس فلورنسا عام ١٤٣٨ م لتوحيد الكنيسة الشرقية والغربية . وفى منتصف القرن الرابع عشر قطع أمراء موسكو شوطاً بعيداً فى إرساء زعامتهم بين الروس وأخذت قوتهم تكتسب مزيداً من الاحترام والتقدير .

تطور الامبراطورية الروسية (١٤٦٢ - ١٦٨٢)

خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بلغت إمارة موسكو فى القوية مرتبه الامبراطورية عن طريق التقدم المتسم بالتوسع الجغرافى السريع ، وإقامة حكومة أوتوقراطية الشكل واستعباد السكان الزراعيين . تلك التطورات المرتبطه ببعضها يمكن أن يرجع الفضل فيها الى ثلاثة حكام أقوياء من أسرة روريك Rurik ، هم إيفان الثالث (العظيم) وباسيل الثالث وإيفان الرابع (إيفان الرهيب) .

فى بداية حكم ايفان الثالث (١٤٦٢ - ١٥٠٥ م) ، كانت البلاد الروسية مقسمة الى اجزاء عديدة ، بعضها تحت الحكم الوطنى والبعض الآخر تحت الحكم الأجنبى . وكانت موسكو تسيطر على الجزء الذى أصبح فيما بعد قلب روسيا الكبرى . وحولها كانت تقع الامارات الأخرى تحت

حكم أمراء يتمتعون بالاستقلال على نحو ما . أما المناطق الأخرى التي كان يسكنها الروس - روسيا الغربية وروسيا الصغرى - فقد كانت خاضعة للبولنديين والليتوانيين . ولكن إيفان الثالث كان ينظر الى نفسه ليس كأمبر لموسكو وإنما كوريث لروسيا ، لأن إمارته أصبحت تملك في ذلك الوقت الرموز القومية لروسيا . وفي عام ١٤٨٠ رفض الحكم المغولي وامتنع عن دفع الجزية ، وأطلق على نفسه لقب ملك كل روسيا ، وأكد طموحه بتوحيد كل الأراضي التي كانت تخضع لروسيا الكيفية في ذروة قوتها ، وذلك بوضعها تحت السيطرة الموسكوفية . وقد عرف هذا المشروع باسم « تجميع الاراضى الروسية معاً » ولتحقيق ذلك الطموح إشتراك هو وحلفاؤه من الأمراء الروس في حروب طويلة مع بولندا التي كانت تضم ليتوانيا وتخضعان لحاكم واحد في معظم الوقت منذ عام ١٣٨٦ م ، وقد أعلن إيفان الثالث أنه لن تكون هناك بين إمارته وبولندا أى سلام طالما ظلت أجزاء من ممتلكاته تحت سيطرة البولنديين ، وقد حافظ خلفاؤه على هذا المبدأ واتخذوا نفس السياسة المتشددة إزاء ليتوانيا ، وكان نتيجة ذلك أن ظلت موسكو في حرب مع ذلك القطر طوال أربعين عام متقطعة في الفترة الواقعة ما بين ١٤٩٢ - ١٥٨٢ م . والقول بأن تلك الجهود لتجميع الاراضى الروسية كانت إنعكاساً لروح قومية بالمعنى المفهوم في وقتنا الحالى ينطوى على أخطاء ، فقد كانت إنعكاساً للطموحات الشخصية لإيفان الثالث وخلفائه الذين كانوا ينظرون الى الدولة الروسية كضيعة خاصة بهم ، واعتقدوا أن لهم الحق في محاولة إخضاعها لإرادتهم وتوجهاتهم ، ولم يتم إنجاز التجميع بالفعل إلا عام ١٦٤٧ م ، ولكن إيفان والحاكمين اللذين أعقباه وهما باسيل الثالث (١٥٠٥ - ١٥٣٣) وإيفان الرابع (١٥٣٣ - ١٥٨٤) استطاعا أن يستعيدا الكثير لتوسيع إمارتهم وجعلها امبراطورية . وكان أحد أهداف الحملة العسكرية لإيفان الثالث إمتلاك مدينة

نوفجورود التي كانت تعتبر حين ذاك أقوى مركز تجارى فى الأراضى الروسية ، إذا كانت تسيطر على المناطق التي تحيط بها مباشرة فى نصف قطر يبلغ مائة وخمسين ميلاً من المراكز ، وكذلك على طرق واسعة فى شمال روسيا تمتد شرقاً فى جبال الأورال - ومع أن نوفجورود كانت تفوق موسكو إقتصادياً إلا أنها كانت دون موسكو من حيث القوة العسكرية ، وبذلك وجد إيفان الثالث مبرراً للهجوم على نوفجورود ، واستطاع أن يحولها عام ١٤٧١ م إلى إمارة تدفع له الجزية . وبعد سبع سنوات جعلها تستسلم ، وضم أراضيتها اليه ورحل المشتبه فيهم من الطبقات العليا إلى داخل مملكته . وكان هذا كسباً كبيراً للإمارة . ورغم هذا لم يكن إيفان فى مرحلة تطمئنه على مستقبله السياسى لوجود نفوذ أجنبى على ممتلكاته الجديدة ، وفى حماسة قام بطرد معظم التجار الأجانب من نوفجورود ، مما عطل وأعاق التجارة الاجنبية عن المدينة فإحتكرت موسكو تجارتها . كما تغلب إيفان على الأمير ميخائيل أمير نهر ، وضم إمارته فى عام ١٤٨٥ م ، وبعد أن ضم نوفجورود ونهر الى مملكته بالاضافة الى إمارات أخرى أقل أهمية استطاع ضمها بدون جهد يذكر ، بدأ حرباً من أجل استعادة الأراضى الروسية التي كانت تخضع لدولة بولندا- ليتوانيا . لقد استمر فى هذه الحرب بصفه متقطعة منذ عام ١٤٩٢ وحتى عام ١٥٠٣ ، حين أصبح يسيطر على بعض الأراضى الحدودية فى غرب روسيا وفى روسيا الصغرى . وقد واصل باسيل الثالث ابن إيفان عمل أبيه ولكن فى نطاق أضيق . وكانت المكاسب الرئيسية لإمارة موسكو فى النصف الأول من حكمه عندما أنهى استقلال مدينة بسكوف Bskov ، وضم أرضها فى عام ١٥١٠م . وفى عام ١٥١٤ م على أثر حرب إستمرت عامين ضد بولندا استولى على مدينة سمولنسك التي كانت تسيطر على المداخل الغربية لموسكو ، وفى عام ١٥١٧ ضم مدينة وإقليم ريازان .

والحاكم الثالث فى الأسرة وهو إيفان الرابع الذى نجح فى بسط سيطرة حكومة موسكو الى ماوراء الحدود الروسية. ، وكان أول من حقق مكاسب أرضية ضد المغول . فلقد إنهارت امبراطورية القبيلة الذهبية فى النصف الأول من القرن السادس عشر وقسمت الى خانيات Khanates وهى وحدات سياسية صغيرة ، وصارت بعضها ، وهى خانيات إسطراخان ، وقازان ، والقرم ، وغرب سيبيريا ، تشكل تهديداً مباشراً لموسكو .

ولقد إستمرت هذه الخانيات فى حروب حدودية وأخذت تشن الغارات وتقوم بعمليات النهب والخطف ، وعلى سبيل المثال كانت خانبة قازان تحتفظ بما يزيد عن ستين ألف أسير روسى فى عام ١٥٥١م . وعجزت الدبلوماسية الروسية أو القوة العسكرية لروسيا عن كبح جماح هذه الإمارات المغولية - ولكن إيفان الرابع أخذ يحاربهم حتى إستطاع أن يستولى على قازان ١٥٥٢م ، وأسطرخان عام ١٥٥٦م وبذلك أخضع حوض نهر الفولجا كله لسيطرة موسكو وفتح باب السيطرة الروسية لهذه المنطقة . كما أن سقوط قازان فتح الطريق أمام التوسع الروسى فى سيبيريا . وفى سنة ١٥٥٥م إضطر خانها الى قبول سيادة موسكو حفاظاً على سلطته وثروته . وكان إخضاع اسطرخان فى العام التالى سبباً فى مد السلطة الروسية الى بحر الخزر وفتح الطريق لإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مع فارس ودول وسط آسيا .

إن ضم موسكو لمنطقة الفولجا السفلى أدى إلى مشاكل حدودية جديدة ، فقد كان يقع على شرقها إحدى بقايا القبيلة الذهبية ، وهى دولة نوجاي Nogay والتي كان مقاتلوها المشاغبون يشكلون تهديداً مستمراً لموسكو ، وفى غربها كان قوزاق الدون Don Cossucks والذين إستمدوا إسمهم من إسم نهر الدون الذى كان يجرى فى بلادهم . وهؤلاء الآخرون كانوا يشكلون تنظيماً ديمقراطياً مستقلاً عن أهالى الحدود الروس ، ولهم قوه

مقاتله تضم عشرة آلاف مقاتل ، سرعان ما وافقوا على إنهاء المقاومة وأن يصبحوا خلفاء لموسكو ضد مغول القرم لقاء مساعدات من السلاح والدقيق . وكانت مساعدتهم مطلوبة فى ذلك المكان لأن خان مغول القرم ، والذي كان يعد منذ عام ١٤٧٥ من ولاية الامبراطورية العثمانية كان لايهيمن على شعب جزيرة القرم فقط وإنما على كل ساحل بحرآزوف Azov ، وكان يعتدى باستمرار على الأراضى المجاورة . ولكن إيفان الرابع تحول عن هجومه المخطط ضد مغول القرم الى ما إعتبره أكبر وأهم ، وهو التقدم إلى البلطيق. لقد كان الحصول على موطأ قدم على بحر البلطيق كفيل بإتخاذ منفذ إلى سوق أوربا الغربية ، حيث تستطيع موسكو أن تشتري ماتحتاج اليه من أسلحة ومستلزمات . وفى ذلك الوقت كانت الطرق على البلطيق مسدودة بقوى معادية - بولندا وليتوانيا وليفونيا - Livonia ، ولم يستطيع الروس أن يصلوا الى أسواقهم السابقة فى أوربا الا بالطريق البحرى الدائرى من أرشانجل Arshangel . ذلك الطريق الذى رسمه الإنجليز عام ١٥٥٣ م ، كان بالغ الطول ولم يكن صالحاً للملاحة سوى فى أشهر الصيف ، ومع ذلك كانت هناك موانى على ساحل البلطيق وخليج فنلندا ، ومن أهمها ميناء ريجا Riga عند مصب نهر دفينا - Dvina الغربى ، والذي قال إيفان الرابع عن ضفاه أنها تستحق وزنها فضه وأن مياهاه تستحق وزنها ذهباً . ولم يكن ميناء ريجا يبعد سوى مائة وخمسة وعشرين ميلا من حدود أراضى موسكو . ولكن كانت تقع بينهما الطائفة الليفونية للفرسان الجرمان وهى منظمة رهبانية عسكرية تسيطر على كورلاند Courland وليفونيا واستونيا Estonia .

وفى عام ١٥٥٨ م بدأ إيفان الرابع هجومه على تلك الطائفة الليفونية

بادئا بذلك صراعاً إستمر متقطعاً لمدة أربعة وعشرين عاماً وسجل فى التاريخ باسم الحرب الليفونية - وقد قامت الطائفة بحل نفسها وأصبح رئيسها والياً لبولندا باسم دوق كورلاند ، وأصبح تابعاً لبولندا ، واتحدت لينونيا مع بولندا وليتوانيا وإستونيا ووضعت نفسها تحت حماية السويد وتولت بولندا وليتوانيا الدفاع ضد إيفان وإنضمت اليها فيما بعد السويد واستمرت الحرب بنجاح متباين عام ١٥٧١ ، قد إنتهز مغول القرم فرصة انشغال ايفان وأغاروا على موسكو ، فإستدار إيفان للدفاع عن المدينة وطرده المغول إلى مسافة إعتبرها مأمونه مؤقتاً ، ثم عاد وركز إهتمامه على الحرب الليفونية والتي استمرت عشرة سنوات أخرى . وأخيراً إتفقا الطرفان اللذان أرهاقهما الحرب دون تحقيق إنتصاراً حاسم - إتفقا فى عام ١٥٨٢ م على وقف الأعمال العدائية بشروط كفلت إبقاء ساحل البلطيق فى ايدي ليتوانيا وبولندا والسويد . ومع أن قوة موسكو قد أثبتت قصوراً فى تحقيق كل أحلام إيفان فى توسيع حدوده ، إلا أن مكاسبه كانت كفيله بتكوين إمبراطورية .

١- إقامة الحكومة الملكية المستبدية

وبإتحاد روسيا وتوسعها ، أخذت مكانة حكامها تتحول الى مكانه ملك أوتوقراطى شأن كل حكام الاقطار الاوربية الأخرى التى خضعت لعملية التوحيد فى ذلك العصر ، وبدأ التحول فى نفس الوقت التى اتسعت فيه سيطرة موسكو على الإمارات المجاورة ، وقد سمح للأمرء والنبلاء (الذين عرفوا باسم البويارات Boyars) الذين كانوا يحكمون الإمارات التى ضمت اليهم بالاحتفاظ بضياعهم على شرط أن يقوموا بالخدمة العسكرية والادارية ، ويزودوا موسكو بالجند ، ولكن هذا النظام ثبت أنه غير فعال ، لأن معظم الأمرء الذين تم إخضاعهم لم تطاوعهم

أنفسهم على الاعتراف بسيادة أمراء موسكو عليهم . كما أن معظم البويات ماكانوا ليتخلوا طواعية عن الحق السياسى الذى إكتسبوه فى السنوات السابقة ، أى الحق فى إسداء المشورة لإمرائهم . وفى كثير من الإمارات كان البويات ممثلين فى تنظيم المجلس الخاص (دوما النبلاء Boyars Duma) الذى كان يقدم المشورة للأمراء ، وفى بعض الأحيان يصدر الأوامر لهؤلاء الأمراء ، وعندما خضع أمراء ونبلاء الإمارات الخارجية لسيطرة موسكو ، أدمجوا فى المجلس الخاص لموسكو ، وكانوا يأملون أن يستطيعوا بذلك أن يتمكنوا من المشاركة فى سلطة موسكو ، ولكنهم سرعان ماتبينوا أن فرص تحقيق أملهم أصبحت ضعيفة ، ومن ثم لجأوا الى المكائد والتآمر حيث أخذوا يتآمرون فيما بينهم أو مع أعداء موسكو لإضعاف سلطة الأمير الحاكم أو التخلص منها . ولكن الأمراء الذين حكموا موسكو لم يستهينوا بتلك الأعمال الهدامة ، ففى أثناء حكم إيفان الثالث وباسيل الثالث وإيفان الرابع ضعفت سلطة النبلاء والأمراء بدرجة ملموسة ، عن طريق مباشر بتقليص حقوقهم ومصادرة ممتلكاتهم فى بعض الأحيان ، وبطريق غير مباشر بخلق طبقة إدارية عسكرية جديدة تعرف باسم نبلاء الخدمة . وقد بدأ هذه الإجراءات إيفان الثالث وطورها باسيل الثالث الذى قام بإبعاد عدد كبير من البويات والامراء الذين أدينوا بالتآمر ، ولكن إيفان الرابع هو الذى حقق مكاسب حاسمة على حساب النبلاء القدامى .

لقد كان إيفان الرابع يخاف ويرتاب فى الأسر الأرستقراطية نتيجة مالمسه فى طفولته من مؤمرات البويات ، وكانت الطريقة التى إتبعها معهم تتسم بالوحشية مما جعله أهلاً للقب الذى عرف به وهو " إيفان الرهيب " . ولم يهدأ ولم يسترح حتى تخلص من التهديد الذى تشكله

قوتهم ، فقد كون طبقة جديدة من النبلاء من الموظفين ، وهذه الطبقة كانت تختلف عن القديمة من حيث الأصل والمكانه والحقوق . وبينما كانت البوياتر والأمرء يتمتعون بحق وراثى فى أراضىهم ومكانة متميزة وإمتيازاتهم ، فإن النبلاء الجدد كانوا يستمدون مكانتهم وإمتيازاتهم وإستخدام الأرض كشرط للخدمة ، وكانوا يحتفظون بها بشرط القيام بواجباتهم على خير وجه ، وكان عدد قليل من هؤلاء الجدد مختارين من زمرة قدامى النبلاء ، ولكن معظمهم كانوا يرقون من المراتب الصغرى أو يختارون من العسكرىين الأجانب ، وقد قام إيفان بإضعاف النفوذ السياسى لباقى الأمرء والبوياتر الى حد كبير بإنشاء جهاز إستشارى ثان وهو جمىعة الأرض (Zemsky suber) لموازنة تأثير المجلس الخاص . وقد دعا الى الجمعىة الجديدة ممثلى الأمرء والبوياتر وكبار موظفى الحكومة ورجال الدين والتجار ، ولكنه لم يعط لهؤلاء آىة سلطة جماعىة . وكانت جمعىة الأرض تجمع مرة واحدة وقتما يريد هو ولناقشة ماكان يريد هو أن يناقش . وكان من اختصاصها إن تسدى المشورة والنصىحة ، إذا كانت فى عبارات مهذبة ولا تتسم بالهجوم ، ولكنها ماكانت تستطيع أن تقرر شىئاً . وقد أدى هذا الى تقليل أهمية المجلس الخاص وتزويد الحاكم بمسانده شعبىة وهمىة لحكمه ، ونتىجة لأعماله المباشرة ومناوراته المحسوبة إستطاع إيفان الرابع إن يورث خلفائه عرشاً قوياً مدعوماً بطبقة من النبلاء ضعيفة سياسياً ، وليس عرشاً ضعيفاً كعرش بولندا يعتمد على أرستقراطىة قوىة من نبلاء الأرض .

وبينما كان أمرء موسكو الطموحين يوسعون سلطانهم إلا أنهم فى ذات الوقت يضيقون على أنفسهم خصائص إمبراطورىة معىنة ، كانت فى ذلك الوقت من السمات الخاصة لأباطرة بىزنطة . ولقد سهل من ذلك الأحداث الدينىة والسىاسىة التى وقعت فى الإمبراطورىة البىزنطىة،

عندما لجأت الامبراطورية تحت وطأة هجمات الاتراك الى أوربا الغربية
تطلب العون ، ولتقوية طلبها وافقت فى عام ١٤٣٩ م على توحيد
الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية الكاثوليكية ، ومن هذا الضعف
والوهن إستفاد الحكام الروس . ومع أن فكرة التوحيد بين الكنيستين لم
يترتب عليها تلقى أى مساعدة هامة بالنسبة للقسطنطينية أو وحدة
الكنيسة ، الا أنه أقنع رئاسة الكنيسة الارثوذكسية فى روسيا أن
القسطنطينية قد سقطت أدبياً . ولم يتطلب جهداً يذكر إثبات أن روسيا
كانت القلعة الوحيدة الصامدة للأرثوذكسية وأن حكام روسيا يجب أن
يرثوا أباطرة القسطنطينية حماة العقيدة الأرثوذكسية . وعلى حد يعتبر
أحد رجال الدين فى أول القرن السادس عشر ، إن موسكو هى وريثة
أعظم عواصم العالم . روما القديمة وروما الثانية والقسطنطينية . أن
موسكو هى روما الثالثة ولن توجد روما رابعة . كان سقوط
القسطنطينية فى ايدى الاتراك عام ١٤٥٣ م علامة على نهاية
الامبراطورية البيزنطية ، وأعطى فرصة جديدة لأيفان الثالث بادر
بإنتهازها ، فعندما تزوج ابنه شقيق آخر أباطرة بيزنطة عام ١٤٧٢ م ،
أعلن حقه فى كثير من صفات ورموز الامبراطورية . وفى الحال أطلق
على نفسه لقب Tsar - Autocrat أى القيصر السيد المختار من الرب «
وملك كل روسيا » كما اتخذ لنفسه شعار الصقر ذى الرأسين الذى كان
يستخدم فى اختتام بيزنطة ، وبعد هذا أصبح امراء موسكو الكبار يعترف
بهم قياصرة ، ولو أن إيفان الرابع أول من توج رسمياً بهذا اللقب عام
١٥٤٧ م .

وكإضافة نهائية لأسس النظرية القيصرية حاول إيفان الرابع جعل
الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تقوم كبطريكية مستقلة مقرها موسكو ،
ولم يتم هذا أثناء حكمه ، وإنما فى عام ١٥٥٩ وذلك بناء على قرار من
بطريك القسطنطينية - وافق عليه فيما بعد كل البطاركة .

عندما إكتملت الصورة الروسية للبابوية القيصرية ، لقي القياصرة بعد ذلك مساندة رسمية للإفتراضات التي كانوا يتصرفون على أساسها لسنوات طويلة ، وانهم سياسياً ظل الله في أرضه فيتلون السلطة بمشيئة الرب ويعملون حراساً للعقيدة الحقّة .

٢ - نشأة رقيق الأرض

إن قيام حكم استبدادى فى روسيا لم يؤثر فقط على الطبقات العليا وإنما أيضاً على الطبقات الدنيا ، وهم الفلاحون ، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة الغالبة ، وكان عملهم ركيزة إقتصاد البلاد ، وكان يقوم فى ذلك الحين على صورة بسيطة من الزراعة . وفى بداية القرن الخامس عشر ، كان معظمهم أحراراً يفلحون قطعاً من الأرض يخصصها لهم الملاك ، سواء الكنيسة أو الأمراء أو البويات لفترات محددة تبلغ حوالى ثلاث الى خمس سنوات ، وأحياناً كان الملاك يقبلون العمل مقابل إستخدام الأرض أو البذور أو الأدوات التى تعار للفلاحين ، ولكن المقابل بصفة عامة كان فى صورة مقابل عينى يصل الى خمس المحصولات . وحتى منتصف القرن السادس عشر كان الفلاحون أحراراً فى الانتقال من ضيعة إلى اخرى بعد موسم المحصول مالم يكونوا مدينين . وبعد هذا أخذت إلتزاماتهم المتعاقبة المحدودة تتحول بالتدريج الى التزمات لا يمكن الفكك منها تربطهم وتربط إطفالهم بالأرض كرقيق للأرض Sefdom . وكانت أسباب التغيير متعددة ، ومعظمها ترتبط بحقيقه أن طبقة ملاك الأراضى تغيرت وأن معظم الأمراء والبويات قد حل محلهم طبقة نبلاء الخدمة والموظفين .

وفى معظم الأحوال كانت الضياع التى يخصصها القياصرة لنبلء الخدمة بالوظيفة شاسعة جداً فى زراعة مكثفة وكافية لتلبية حاجاتهم . ولما كان هناك نقص فى الأيدى العاملة المحلية لهجرة الفلاحين وإستقرارهم فى أراضى جديدة ، بدأ الملاك فى التنافس المحموم على العمال وغالباً ماكانوا يغرونهم بترك الأراضى التى يعملون فيها بصرف النظر عن التزاماتهم للغير واعتماداً على الخدمات العسكرية والادارية للنبلء . ورغبة فى أن يصبحوا مكتفين ذاتياً على الأراضى التى منحت لهم ، بدأ ايفان الرابع فى اتخاذ اجراءات تصحيح الموقف ، لذلك فرض حظراً قانونياً على حركة الفلاحين أثناء بعض السنوات الحرجه من الموجهة الاقتصادية ، وأعطى أصحاب وملاك الأراضى الحق فى البحث عن الفلاحين الذين يغادرون الأرض دون الوفاء بالتزاماتهم واعادتهم مرة أخرى .

وبخلاف مساعدة النبلء كان لدية سببا آخر لإتخاذ تلك الإجراءات ، لقد كان يفرض الضرائب على الفلاحين لمواجهة الإحتياجات المالية للدولة ، ووضع الفلاحين فى أماكن محددة لا يبرحونها حتى يضمن الحصول على الضرائب . وقد أضاف خلفاء إيفان قيوداً أخرى ، وفى النهاية حددوا أماكن معظم الفلاحين بصفة دائمة فى مناطق محددة ، والقليلون منهم ظلوا أحراراً ومعهم الذين اختاروا ان يعيشوا فى المناطق الفقيرة والقليلة السكان من الإمبراطورية . وهكذا ،فى الوقت الذى كان نظام رقيق الأرض يتراجع فى غرب أوروبا ، كان هذا النظام يتوطد ويرسخ فى روسيا ، وأصبح جزء من التقدم الكاسح للحكم الأتوقراطى . وفى الوقت نفسه كانت الطبقات العليا المستقلة نسبياً ، قد أخذت تضعف وأخذت طبقة جديدة خادمة للدولة فى الظهور . وأخيراً إرتبطت الطبقة الدنيا بالأرض ، التى أصبحت الدولة تمتلك معظمها .

٣ - أزمة القيصرية

كان الحكام الذين جاءوا مباشرة بعد إيفان الرابع عاجزين عن أن يحتفظوا بإرثهم سليماً لأنهم لم يكونوا على درجة كافية من القوة لتوطيد الأمن في امبراطورية مترابطة بفعل القوة . فبعد وفاة إيفان انتقل التاج الى ابنه فيودور الأول Feodor I (١٥٨٤ - ١٥٩٨) وهو رجل ضعيف سمح عن طواعية لصهرة وشقيق زوجته بوريس جودونوف Boris godunov بأن يصرف شئون الدولة بدلاً منه ، وكان جودونوف رجلاً قديراً ولكنه عجز عن تهدئة القلق الذي كان يزداد داخل البلاد نتيجة لإقامة الحكم القيصرى وإرهاب البويارات ، وإستعباد واسترقاق الفلاحين ، وفرض أعباء اقتصادية للانفاق على الحروب التى تدخلها الامبراطورية المتوسعة . ولم يمضى وقت طويل حتى أصبح هو نفسه موضع المؤامرات والمكايد التى قادها البويارات المتضررون . وعندما توفى ديمترى الشقيق الوحيد الباقى لفيودور عام ١٥٩١ م انتشرت شائعة ردها البعض وصدقها الكثيرون بأن جودونوف قد أمر بقتله حتى لا يخلفه فيودور على العرش ، وسارت المملكة دون أية متاعب خطيرة حتى وفاة فيودور فى يناير عام ١٥٩٨ م ، فتطورت الأمور بعد ذلك الى أزمة . خاصة أن فيودور لم يعقب أى ذكر فانتتهت أسرة بوريك ، وثارَت مسألة الخلافة على العرش . وكان بوريس جودونوف لا يزال الحاكم الفعلى والواقعى ولكنه لم يبادر بتتويج نفسه ، وبدلاً من ذلك أعاد جمعية الأرض (التى أهملت منذ أيام إيفان الرابع) وحرص على اختيار أعضائها من انصاره ، وأعلن إنه سيقبل التاج فقط إذا قدم اليه من تلك الجمعية . وفى فبراير طلبت منه الجمعية أن يصبح قيصرأ لروسيا ، وعلى الرغم من إختياره وأن البويارات كانوا لا يزالون يتآمرون ضده علانية ، فقد بدأ القيصر بوريس حكمه بسنوات ثلاثة خالية نسبياً من أية متاعب ، ولكن فى سنة ١٦٠١ م مع بدء ثلاث سنوات من المجاعة ، بدأت القلاقل العامة تظهر من جديد .

٤ - زمن القلاقل

وفى عام ١٦٠٤ بعد ثلاث سنوات من المجاعة والكوارث المتزايدة أصبح البويارات المتضررون، والفلاحون اليائسون فى حالة نفسية خطيرة ، وبدأ بويارات موسكو العمل ضد القيصر بوريس بمناسبة مطالب بالعرش هو أحد البويارات المغمورين الذى إدعى بأن ديمترى ابن إيفان لم يمت فى عام ١٥٩١ م ، وأنه هو نفسه ديمترى الوريث الشرعى للعرش ، وبادر ملك بولندا الذى تاقت نفسه الى الصيد فى مياه روسيا العكرة بالاعتراف بديمترى الزائف . وساعد فى إعداد جيش من البولنديين والروس الساخطين لمساعدة المدعى للحصول على العرش . وعندما سار هذا الجيش الى روسيا دخل فى سلسلة من الحروب الأهلية إستمرت زهاء تسع سنوات ، وهذه الفترة تسمى بحق فترة القلاقل .

وكانت قوات القيصر أقوى بكثير من ذلك المدعى وقضت على الهجمات الأولى . ولكن موت بوريس سنة ١٦٠٥ م قلب الاوضاع داخل روسيا ، فقد أعلن ابنه فيودور المعروف بالثانى قيصرأ على روسيا ولكنه لم يحصل على تأييد كل الجماعات الساخطة . فقام بالتأمر ضده مجموعة من البويارات الذين لم يعجبهم إنحيازه للبولنديين ، وفى عام ١٦٠٦ قتلوه وولوا مكانه أحدهم وهو باسيل شويسكى (Basil Shuisry) ١٦٠٧ م - ١٦١٠ م) وخلال حكمه الذى إستمر أربع سنوات بذل البويارات جهداً بائساً لإسترداد الوضع الاقتصادى والسياسى الذى فقدوه فى القرن والنصف المنصرم ، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم أمام حقيقة أن الجماعات الأخرى تريد تعديلات أيضاً . ففى جنوب روسيا هب الفلاحون القوزاق وبعض ملاك الأراضى الأفقر ضد الطبقة الحاكمة مطالبين بتحسين أحوالهم ، ومع أن الثورة إنتشرت بسرعة إلا انه لم يكن لها أى برنامج

منسق أو أى زعماء كبار ، وما إن حلت نهاية عام ١٦٠٧ م حتى كانت
المراكز الرئيسية للتمرد قد هدأت .

واجه القيصر باسيل المتاعب من اتجاه آخر فقد ظهر ديمترى آخر زائف
ينتمى هذه المرة الى الطبقات الدنيا مطالباً بالعرش ، وتقدم ديمترى
الثانى ، كما أصبح يطلق على نفسه داخل روسيا على رأس قوة جهزتها
بولندا وتساندها قوات من القوزاق . ولمواجهة هذا المدعى إستدار القيصر
إلى السويد طالباً المساندة العسكرية ، وقد حصل عليها مقابل التنازل
عن كاريليا Karelia والتخلى عن المطالب الروسية فى ليفونيا ، وكان
الصراع الذى أعقبت ذلك متسماً بالخداع من كلا الطرفين . ولقد تبادل
البوبرات والقادة الروس المواقع فى كلا الجانبين متنقلين من طريق إلى
آخر حتى أطلق على الكثيرين منهم (الطيور المتنقلة أو العابرة birds
of Passage) ، وهجرت القوات السويدية باسيل وأسقط البولنديون
ديمترى الثانى الزائف وبدأوا حملة مستقلة ، وأخيراً وفى عام ١٦١٠ خلع
باسيل من العرش على يد أنصاره ومؤيديه وتقدم البولنديون نحو
موسكو .

وهنا تفجرت المشاعر القومية على غير إنتظار . وقد استعرت بنداء
من البطريرك هرموجن Hermogen ، الذى إستطاع رغم وجوده فى السجن
الذى وضعه فيه البولنديون أن يرسل نداءته داعياً الشعب الى طرد
الأجانب وتشكل جيش شعبى ، ولكنه أخفق فى محاولاته الأولى لتحرير
موسكو . ثم ظهر قائدان قديران إستطاعا أن يعطيا الجيش توجيهاً
ملهماً وفعالاً أحدهما كوزما منين Kuzma Minin وهو تاجر ، الذى
عزز بخطبة وأحاديثه المشجعة وقدرته الإدارية المهارة
العسكرية للقائد الثانى النبيل ديمترى بوزهارسكى Dmitri
Pozharsky ، وتحت قيادة هذين القائدين تحرك الجيش الشعبى الى

موسكو . وفى أكتوبر عام ١٦١٢ إستطاع أن يحطم مقاومة القوات البولندية وأن يستعيد الروس المدينة .

روسيا تحت حكم أسرة رومانوف الأول

وفى عام ١٦١٣ م قامت جمعية مؤلفة من ممثلى رجال الدين والبويات ونبلاء الخدمة ، وبعض ممثلى القرى والمدن بإنتخاب ميخائيل رومانوف Michael Romanov (١٦١٣ - ١٦٤٥ م) قيصراً للروس . وكان ينتمى الى البويات الروس ويمث بصلة القرابة للزوجة الأولى لايفان الرابع ، ويتولى العرش تبدأ أسرة حاكمة جديدة وهى أسرة رومانوف التى قدرلها أن تحكم روسيا من ١٦١٣ حتى ١٩١٧ .

١ - إستعادة الاستقرار والسلطة

وخلال حكم الأباطرة الثلاثة الأوائل من أسرة رومانوف إستعادت روسيا قدراً من الاستقرار السياسى الداخلى والاقتصادى ، فقد أخذ النظام يستتب بالتدرج فى الحكومة ، وعادت موسكو تسيطر على المناطق الخارجية . وحدث بعث واحياء للتجارة الداخلية والخارجية . وكان الأمل ألا يحكم قياصرة رومانوف بالسلطة المطلقة التى كان يمارسها أسلافهم . وقد إضطر القيصر ميخائيل لأن يشرك جمعية الأرض ، التى قامت بإنتخابه فى السلطة لبعض الوقت ، ولم يكن على درجة كافية من القوة فى البداية ليحكم دون مؤازرة من تلك الجمعية ، كما أنه لم يكن ليستطيع بدون موافقة الجزء الأكبر من المحكومين على الأقل أن يفرض الضرائب اللازمة لإعادة بناء الحكومة وإستمرار الجهود من أجل طرد السويديين والبولنديين الذين لم يكفوا عن التدخل بعد إنقضاء عهد القلائل . وفى الفترة من ١٦١٣ حتى عام ١٦٢٢ جعل الجمعية فى حالة إنعقاد دائم ، وخلال هذه الفترة خفف أعباءة بتوقيع معاهدة صلح مع

السويد فى عام ١٦١٣ م ، وبعد هذا لم يكن يطلب عقد المجلس إلا نادراً لأنه أصبح قادراً على الاحتفاظ بقوة عسكرية كبيرة ، والاحتفاظ بسلطانه بأقل قدر من المساعدة والعون . وفى عام ١٦٣٤ أبرم معاهدة مع بولندا متنازلاً عن المدينة الحصينة سمولنسك Smolensk مقابل عدم التدخل فى الشؤون الداخلية . وعند وفاته فى عام ١٦٤٥ م كانت سلطة القيصر قد توطدت تماماً الى درجة أن ابنه ألكسيس Alexis (١٦٤٥ - ١٦٧٦م) إستطاع أن يتولى العرش كأمر مفروغ منه بدون تصديق جمعية الأرض . ولم تكن فى نية آل رومانوف أن تصبح الملكية الروسية إنتخابية ، ولذلك هذا القيصر الكسيس حذو والده فى عدم الأكتراث بالجمعية . وكان أهم انجاز للجمعية خلال حكمه هو التصديق على مجموعة القوانين المنقحة التى صدرت عام ١٦٤٩ م . وكان آخر إجتماع كامل لها خلال تلك الفترة فى عام ١٦٥٣ م . ولم يقاسم المجلس الخاص مصير جمعية الأرض ، فقد إستمر فى الاجتماع دون أن تكون له سلطة منفصلة عن القيصر ، والخلاصة أنه بعد فترة وجيزة من التكيف إستعاد الرومانوفيون كامل السلطة الاستبدادية للعرش .

٢ - ثورة فلاحى الفولجا

كما أن أباطرة أسرة رومانوف الأوائل قد خيبوا ظن الكثيرين الذين كانوا يتوقعون تخفيف الأتوقراطية ، كذلك خيبوا أمل الفلاحين الذين كانوا يتوقعون تحسين أحوالهم . ومع أن القياصرة لم يشركوا النبلاء فى سلطتهم السياسية إلا انهم إنحازوا الى مصالح النبلاء الاقتصادية على حساب الفلاحين ، وبهذا أحكموا أغلال رق الأرض . وخلال القرن السابع عشر أصبحت قلاقل الفلاحين أمراضاً متوطنه فى مناطق كثيرة خصوصاً على طول نهر الفولجا .

ولما كانت هذه المنطقة لاتزال منطقة حدودية فى طابعها ، فقد هرب اليها عدد كبير من الفلاحين الساخطين فراراً من الظروف السيئة فى الأراضى الزراعية فى أجزاء أخرى من البلاد . وهاجر اليها عدد هائل من القوزاق من جراء السخط على التقسيمات الطبقيّة المتزايدة فى بلادهم ومواطنهم الأصلية . وهؤلاء القوزاق الذين تمتعوا بتقاليد إستقلالية ليست لدى الفلاحين ، كثيراً ما تولوا الزعامة فى ثورات الفلاحين فى ذلك الأقليم . وقد نجحت إحدى هذه الثورات فى عام ١٦٧٦ م تحت قيادة وزعامة ستنكا رازين Stenka Razin القوزاقى الى درجة أنه خلال ثلاث سنوات استطاع الفلاحون والقوزاق أن يسيطروا على كل منطقة فولجا السفلى . ولكن القيصر ألكسيس إستطاع فى النهاية قمع الثورة وإعدام رازين ، ومع هذا فالثورة لم تُنس بسرعة لأنها دلت على الغضب والقوة اللذين يمكن توقعهما من فلاحين متحدين تحت قيادة سليمة وقادرة . وترتب على هذه الهزيمة بأس الفلاحين من الإصلاح ، فلم تحدث ثورات واسعة النطاق لما يقرب من أربعين عاماً . وخلال هذه الفترة خضع الفلاحون للسلطة أكثر من ذى قبل .

٣ - ضم أوكرانيا الشرقية

وبينما كانت ثورة الفلاحين والقوزاق فى اقليم الفولجا تعتبر فى نظر القيصر الكسيس عامل تهديد ، فإن ثورة الفلاحين والقوزاق فى أوكرانيا تعد فى نظره خير وبركة . لقد كانت معظم أوكرانيا قد سقطت فى أيدي الليتوانيين والبولنديين خلال القرن الثالث عشر والرابع والخامس عشر ، وعندما خضعت ليتوانيا لبولندا عام ١٥٦٩ م عندما إتحد البلدان تحت تشريع واحد ، إنتقلت الأقاليم الأوكرانية من ليتوانيا إلى بولندا . وفى تلك الأقاليم كان معظم النبلاء ملاك الأرض بولنديين كاثوليك مع

أقلية من الأوكرانيين الأرثوذكس ، وكانت الطبقة الوسطى تتألف من اليهود . أما الفلاحون فكانو من الأوكرانيين أتباع المذهب الأرثوذكسى . لقد كان هذا التجمع مؤهلاً للقتال حيث إعتبر المواطنون الأوكرانيون كل من البولنديين اليهود أغراباً دخلاء ، وكان الفلاحون يكرهون الملاك البولنديين وخدمهم ووكلائهم وموظفيهم اليهود ، ومما زاد من اشتعال نار العداوة الأختلافات الدينية . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتقل عدد كبير من المواطنين الأوكرانيين إلى إقليم الدنيبر السفلى الواقع على الحدود ، وهذه الأرض المتنازع عليها طالب بها وسعى إلى ضمها كل من بولندا والأترار وحلفائهم المغول فى شبه جزيرة القرم . ولم تعترض الحكومة البولندية على تحرك الأوكرانيين ، وفى الحقيقة فإنها سمحت لهم وقدمت لهم حصانات كثيرة مقابل قيامهم بصد الأترار والمغول ، ولهذا أصبحوا يشكلون الوحدات الحارسة للحدود والتابعة إسمياً لبولندا ، ولكن هؤلاء الأوكرانيين أخذوا بالفعل يقاتلون سادتهم البولنديين كما كانوا يخدمونهم .

وفى تلك الأثناء أخذ الدين يشكل موضوعاً بارزاً للشقاق بين شعوب أوكرانيا المتمردة . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وفى ذروة الحركة المضادة للإصلاح الدينى حاول الجزويت البولنديون الذين كانوا على رأس حركة قوية لسحق البروتوستانتية ، تحويل الأوكرانيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية إلى الكاثوليكية . وفى عام ١٥٩٦ م نجحوا فى أغراء بعض كبار رجال الدين الأرثوذكس فى المنطقة وبعض كبار ملاك الأراضى الأوكرانية وقليل من الفلاحين الأوكرانيين بالاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بشرط خاص ، وهو تكوين وحدة دينية تستخدم طقوس الأرثوذكسية الشرقية ، ولكنها تعترف

برئاسة البابا . غير أن معظم الأوكرانيين رفضوا اعتناق هذا الشكل التوفيقى ، واستمرت الخلافات الدينية .

وأخيراً ما لبث أن تفجر السخط المتراكم فى سلسلة من الثورات التى قام بها الفلاحون الأوكرانيون وتزعمها القوزاق بحوض الدينبر السفلى ، وكانت أهم هذه الثورات هى الثورة التى نشبت فى عام ١٦٤٨م بزعامة القوزاقى الأوكرانى بوجدان Bogdan وهو من كبار ملاك الأرض . وزهاء ست سنوات أمسك المتمردون بزمام الأمور بلا منازع وأخذوا يذبحون البولنديين واليهود المقيمين فى المنطقة . وعندما وجد الثوار أنفسهم تحت ضغط القوات البولندية المنظمة على نحو أفضل منهم لجئوا الى القيصر الكسيس ملتجئين المساعدة والعون . واستجاب لهم وبعث بالقوات الروسية لمحاربة البولنديين فى عام ١٦٥٤ م والتزمت بولندا الدفاع حتى عام ١٦٧٦ م رغم أنها كانت حينذاك فى حرب مع السويد لبعض الوقت ، وعندما انتهت الحرب وقعت بولندا معاهدة أندروسوفو Androssovo متنازلة للروسيا عن سيمولنسك وكيف والجزء الواقع شرق الدينبر ، وقد حقق الأستيلاء على أوكرانيا الشرقية نتائج بعيدة المدى بالنسبة للروسيا ، إذ كان الخطوة الناجحة الأولى نحو الأستيلاء على كل أوكرانيا ووضع روسيا على حدود الإمبراطورية العثمانية التى كانت تهيمن بطريقة غير مباشرة على معظم سواحل البحر الاسود . ولكن ذلك خلق مشكلة إدارية صعبة لأن المتمردين الأوكرانيين الذين حاربوا بولندا للحصول على الحرية لم يكونوا راغبين فى قبول سيد جديد مقرة موسكو ، وحاولت روسيا حل هذه المشكلة بشكل توفيقى يسمح للبلاد التى ضمت حديثاً بإستقلال ذاتى تحت حكم طبقة حاكمة محلية ولكن هذا الحل أثار المتاعب فيما بعد.

٤ - الانقسام الدينى

فى الوقت الذى كانت تهتم فيه روسيا إهتماماً سياسياً بأوكرانيا ، بدأ بعض رجال الدين الأوكرانيين الأرثوذكس الذين استقر كثير منهم فى موسكو أثناء النصف الأول من القرن السابع عشر ، يحققون نتائج إهتمامهم بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية .

لقد بقيت الكنيسة الأرثوذكسية فى أوكرانيا البولندية تابعة لبطريك القسطنطينية ، وظلت أقرب الى روح وحماسة الكنيسة الرئيسية بالمقارنة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وكان رجالها بصفة عامة أفضل وأكثر تعليماً من رجال الكنيسة الإرتوذكسية الروسية وقد اكتسب رجال الدين الأوكرانيين الذين قدموا الى موسكو ، نفوذاً واسعاً فى الدوائر الكنسية ، وكثيراً ما كانوا يوضحون الأخطاء فى النصوص والطقوس الدينية التى تطلب التصويب والتصحيح .

وكان نيكون Nikon الذى إستقر على كرسى البطريركية بموسكو فى عام ١٦٥٢ يعتبر إنتقادات هؤلاء الأوكرانيين لها ما يبررها . وسرعان ما إستبعد من الكنيسة الروسية المستحدثات والبدع التى تسربت الى الطقوس على مر القرون . وعرض رجال الدين الأوكرانيين المساعدة فى إجراء التصويبات المطلوبة، قد وقبلها منهم نيكون . وربما كان الدافع على اقدامة على ذلك سياسياً ودينياً فى ذات الوقت ، إذ كانت موسكو تأمل فى ضم أوكرانيا ، وإذا أمكن إزالة الاختلاف بين الكنيستين الأوكرانية والروسية فإن فرصة إخضاع الكنيسة الأوكرانية للروسية ستكون أفضل . وبدأ إصلاح الطقوس والشعائر فى عام ١٦٥٣م وعلى مدى ثلاث قرون قد بدت التغييرات التى حدثت تافهة ، ولكن بالنسبة للكثيرين من الأرثوذكس الروس كان أتفه وأدنى تغيير فى الممارسات الدينية التى تعلموا أن يعتبرونها مقدسة وغير قابلة للتعديل يعتبر من عمل الشيطان . وسرعان ما قاطعوا الإصلاح بإعتباره من وحى الأجانب الذين يحاولون

إفساد « روسيا المقدسة » . وإزدادت معارضة الإصلاح بين أفراد رجال الكنيسة والمدنيين على حد سواء ، وفى عام ١٦٦٧م ندد البطريرك بالمعارضة وأدان كل الذين ساندوها وحكم بإحراق القادة والزعماء المعارضين . ولم يقبل الكثير هذه التعديلات ، وانتحر آلاف من رجال الدين والمدنيين الأتقياء مفضلين الموت على الحياة فى ظل ما أسموه بالمسيح الدجال الذى توقعوا ظهوره قريباً ، كما ابتعد الآلاف عن الكنيسة التى تعرضت للإصلاح فأطلق عليهم إسم المنشقين ، وقد عاقبتهم الحكومة بضراوة . وبعد الإصلاح أقامت الكنيسة الأرثوذكسية علاقات وثيقة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، ولكنها رفضت أن تكون تابعة لبطريك موسكو حتى عام ١٦٨٧م .

٥ - عوامل الضعف المهددة للعرش

عندما توفى الكسيس فى عام ١٦٧٦م تولى ابنه فيودور الثالث Feodor III (١٦٧٦ - ١٦٨٢ م) البالغ من العمر أربعة عشر عاماً ، وكان فتى معتل الصحة غير كفء عاجزاً عن ادارة شئون المملكة ، ونتيجة لهذا بدأت أحزاب وشيع مختلفة فى البلاط تتقاتل من أجل السلطة التى عجز عن ممارستها القيصر ، وأخيراً تقدمت اسرة ميلوسلافسكى Miloslavskys لحماية العرش ، واستطاعت بمساعدة نبلاء آخرين ذوى خبرة وتجربة تعزيز مكانه فيودور . وكان أهم إجراء داخلى مثير إتخذ فى عهده هو إجراء تعديلات بالجيش ، وهو إلغاء النظام القديم القائم على إسناد القيادة العسكرية للنبلاء على أساس مكانه العائلات التى ينتسبون إليها ، وليس على أساس المقدرة والبراعة . أما النشاط السياسى الخارجى فقد كان يتركز أساساً على الصراع مع قوى الإمبراطورية العثمانية للسيطرة على أوكرانيا الغربية وهذا الصراع وهو الأول فى سلسلة المعارك ضد الاتراك إنتهى بلاحسم عام ١٦٨١م ، وكان على خليفة فيودور إستئناف الصراع .

الفصل الرابع
السفارات بين المغول وأوروبا
قبل عين جالوت

- مقدمة
- المغول وأسطورة الكاهن يوحنا
- سفراء البابا انوسنت الرابع ١٢٤٥ م
 - أ - سفارة أسكلين
 - ب - سفارة أندرو
 - ج - سفارة يوحنا أف بيان دل كارين
- لويس التاسع والمغول
- الأرمن والمغول
- القبيلة الذهبية وبيزنطة

الفصل الرابع السفارات بين المغول وأوروبا قبل عين جالوت

مقدمة:

لعبت القوة العسكرية المغولية دوراً كبيراً فى تاريخ آسيا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان لهذه القوة أثراً كبيراً على الصراع الذى دار بين المسلمين والصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى. وفى تلك الفترة لم يكن هناك على وجه الأرض من قوة سواء فى الشرق أو الغرب تستطيع مواجهة الهجمات المغولية، ويمكن القول إنه كان بالامكان مقاومة جزء مستقل من المغول لاتساند القوى المغولية الكبرى، وكان الخان المغولى الكبير فى منغوليا قوبيلاي Kubulai (١٢٦٠-١٢٩٣م) يدرك ذلك تماماً . وكان معروفاً أن جزءاً من الجيش المغولى بإمكانه غزو الصين وأن يتقدم إلى الجنوب حيث أندونيسيا حالياً، وأن بإمكانه أيضاً أن يتقدم إلى بلاد الشرق الأدنى الاسلامى وينتصر على الدويلات القائمة به ، كما كان بإمكانه كذلك الانتصار على الإمبراطورية البيزنطية .

أما فيما يتعلق بالغرب الأوروبى فيجب علينا أن نضع فى الاعتبار إنه منذ بداية التوسع العسكرى المغولى لم يكن للغرب الأوروبى إعتباراً كبيراً فى نظر القادة المغول، ولعل ذلك كان حقيقياً فى بداية العمليات العسكرية ضد الدولة العباسية ثم بعد ذلك ضد دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى. وعندما كان القائد المغولى، جيب Jebe وزميله سوبوتاي Subotei يطاردان فلول القوات الخوارزمية، فإنهم لم يتجهوا الى الدولة العباسية فى بغداد بعد وفاة محمود خوارزم شاه فى عام ١٢٢٠ م ، ولكنهما اتجها بقواتهما إلى إقليم جورجيا Georgia وضد إقليم القفجاق.

وقد إنزعج الخليفة العباسى أبو العباسى أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) من أخطار تقدم المغول بهذه الصورة من جانب ، وإلى الوجود الصليبي فى بلاد الشام من جانب آخر ، خاصة أن الحملة الصليبية الخامسة كانت تهاجم مصر فى تلك المرحلة ، وقد طلب الخليفة العباسى المساعدة من البيت الأيوبى فى مصر والشام ولكن إنتصارات الحملة الخامسة فى مصر حالت دون إرسال هذه النجدة . ومن حسن حظ العالم الاسلامى أن القوات المغولية قد اتجهت الى الشمال بدلاً من بغداد فى تلك المرحلة ، لأن سقوط بغداد فى تلك المرحلة المبكرة من التاريخ قد ينزل أفدح الخسائر بالعالم الاسلامى ، ويضع العالم الاسلامى بين القوات المغولية فى الشرق والصليبيين فى مصر والشام من الغرب .

لقد كان نجاح المغول الساحق على جنوب روسيا وانتصاراتهم فى معركة كالكا Kalka فى عام ١٢٢٣ م أمراً خطيراً ، وإن هذه القوات التى تمكنت من الحصول على هذه الإنجازات فى مثل هذه البلاد البعيدة يوضح الى حد كبير قدرة هذه القوات على اجتياح بغداد والسيطرة على الدولة العباسية . وإذا كان المغول قد تأخروا فى إجتياح أراضى العالم الاسلامى فى تلك المرحلة ، فإن ذلك يرجع الى سياسة المغول لا إلى قصر نظر حكام المغول أو ضعف قواتهم ، فقد أولى حكام المغول إهتمامهم الى غزو بلاد الصين فى تلك المرحلة ، أما الشرق الاسلامى فقد وضع أمره فى المرتبة التالية .

لقد إعتقد المغول أنه ليس بوسع القوات الاسلامية أو الصليبية أن تقف فى طريق تقدمهم الى الشرق ، وأن ذلك سوف يأتى فى الوقت المناسب ، لذلك أعد المغول حملة لإجتياح هنغاريا ، وقد قاد هذه الحملة القائد المغولى باطو Batu ، وهو الرجل الثانى صاحب السطوة الكبيرة فى الامبراطورية ، وقد نجح باطو فى مهمة فيما بين عامى ١٢٤١ -

١٢٤٢م ، كما نجحت قوة مغولية أخرى فى تولى أمر العمليات فى بلاد سلاجقة الروم حيث وقعت معركة كوس داغ Kosedagh عام ١٢٤٣ م . وكان لهذه الحملة الأخيرة أثراً على انهيار سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى . وهناك مظهر هام لظهور المغول على الساحة الآسيوية ، وهو علاقة المغول بالصلبيين فقد تزامن ظهور المغول كقوة عسكرية خلال فترة الصراع بين المسلمين والصلبيين . وعندما تقدم المغول الى بلاد الأناضول كان لكل من المسلمين والصلبيين ميزة تجعل إحدى القوتين تتفوق على الأخرى ، وإن امكانية التحالف مع القوى الخارجية هو الأمل الكبير فى تفوق إحدى القوى على الأخرى ، وإذا كانت الدبلوماسية تعنى فن الحصول على الممكن لأعلى المستحيل ، فإن النفاق والخيانة وعدم الوفاء يكونون فى بعض الأوقات طريقاً للحصول على ذلك الممكن . وكان ذلك كله من خصال الصليبيين . وأحداث معركة عين جالوت التى وقعت فى الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م ، الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ ، توضح أن الصليبيين فى عكا قد سمحوا للقوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز أن تمر عبر الأراضى الصليبية ومهاجمة القوات المغولية من الخلف ، عندما كان القائد المغولي كتبغا يتولى أمر قيادة القوات المغولية .

وهنا يتضح مدى خيانه الصليبيين للمسيحية التى تستروا فيها لمحاربة المسلمين . وهنا يجب القول أنه كان من الممكن أن يتحالف الصليبيين مع المغول فى تلك المرحلة بالذات ويغيروا وجه المعركة ، وهناك تفسير عملى لتصرف الصليبيين على هذا النحو ، لقد ظل العداء بين المسلمين والصلبيين فى بلاد الشام مايزيد عن مائة وخمسين عاماً ، وانهم قد اعتادوا الحياة على نحو من القسوة ، بما فيها من القتال ، وكانت هناك الحرب التقليدية بين الطرفين ، أما تدخل المغول فى المنطقة وما عرف عنهم من أساليب الحرب والدمار فهو أمر غير مرغوب فيه من الطرفين .

ويمكن القول أن تصرف الصليبيين على هذا النحو يرجع الى فكرة لعلها تكون مقبولة من الناحية العسكرية ، وخلاصة هذه الفكرة أن يترك الصليبيون القوات المغولية لتقاتل القوات الاسلامية ، وفي نهاية الأمر سيكون هناك غالب ومغلوب ، ومن المعروف أن المنتصر يخرج من المعركة ضعيفاً ، وبذلك تكون هناك فرصة للصليبيين وهي إما مواجهة المغول إذا أحسوا بقدرتهم على ذلك ، أو التقرب منهم بصورة أو بأخرى إذا أدركوا أن القوة لاتفسد في المواجهة ، ويجب أن يكون من المعروف أن فكرة محالفة الصليبيين مع المغول لاتعود الى أمراء الصليبيين في الإمارات الصليبية بل إلى أمراء وملوك الغرب الأوربي مثل ملوك فرنسا وإنجلترا وكذلك الباباوية .

المغول وأطورة الكاهن يوحنا Prester John

منذ منتصف القرن الثاني عشر ساد الاعتقاد في أوروبا أنه في الشرق المسيحي البعيد أمير خرافي غني وقوى بإمكانه مساعدة الصليبيين ومهاجمة المسلمين من الخلف ، وقد إنتشرت هذه الخرافة بمعرفة رجل الدين المؤرخ أوتو أف فرايزنج Otto of Freising الذي جعل من نفسه متحدثاً باسم هيو Hugh أسقف جبله . وذلك في غمرة من اليأس الذي ساد الصليبيين من عدم تقديم المساعدات الأوربية لهم في بلاد الشام ، وطبقاً لما رواه أوتو ، فقد ذكر هيو أن شخصاً يدعى يوحنا ملك وقسيس يقطن في بلاد ساوراء أرمينيا وبلاد الفرس في الشرق البعيد مع المسيحيين النساطرة ، وقد حارب يوحنا هذا إخوته ملوك الفرس وميديا واجتاح بلادهم . وعندما تقابل يوحنا مع إخوته الملوك بجيشه المكون من الفرس والميديين والسريان في معركة إستمرت لمدة ثلاثة أيام ، حرص كل فريق على القتال حتى الموت ، وكان يوحنا .. على قول الأسطورة ، يطالب رجاله بإجبار الفرس على الفرار وإحراز النصر ، وتستطرد الأسطورة القول أنه بعد إنتصار يوحنا تحرك بجيشه ليقدم المساعدة إلى

كنيسة القيامة في القدس ، ولكن يوحنا وقواته عجزوا عن عبور نهر دجلة ، لذلك إتجهوا إلى الشمال . وقد علم يوحنا أن النهر يتحول إلى ثلج مع فصل الشتاء ، ورغم هذا حاول يوحنا العبور لعدة سنوات ولكنه فقد العديد من رجاله بسبب الطقس غير العادى بالنسبة لهم ، لذلك عاد يوحنا ورجاله الى بلادهم .

ويقال أن أصل يوحنا يرجع الى المجوس الذين ورد إشارة عنهم فى إنجيل متى الأصحاح الثانى الآية الأولى ومابعدھا فقد ورد « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذ مجوس من الشرق قد جاء إلى اورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمة فى المشرق وأتينا لنسجد له » . وسواء كان انتصار بعض قبائل المغول على السلاجقة فى سنجار فى عام ١٢٤١م كان قوة دافعة تاريخية لإحياء أسطورة الكاهن يوحنا أم لا ، فإن ماحدث قد حرك مشاعر البابا اسكندر الثالث ليكتب الى الكاهن يوحنا والبحث عنه .

ولم تتحقق مساعدة الكاهن يوحنا فى منتصف القرن الثانى عشر، ولكن بوادر هذه المساعدة بدأت تظهر بعد حوالى ثمانين عاماً عندما ظهرت الأسطورة من جديد بعد سقوط دمياط فى أيدي الصليبيين فى نوفمبر عام ١٢١٩م ، فقد ذكر المؤرخ جاك أف فترى James of Vitry أن الملك داود ملك دولة الهند ، سوف يسارع لمساعدة المسيحيين وسوف يأتى ومعه قوات كثيرة ، وسوف ينقضون كالوحوش على المسلمين ، وقد اعتمدت كتابات جاك أف فترى على تقرير كتب باللغة العربية ثم ترجم لللاتينية فى المرحلة من ١٢١٨ - ١٢٢١ م ، وفيه خلط بين إسم جنكيز خان واسم داود الذى يسمى الكاهن يوحنا .

لقد عرفت إنتصارات المغول على مدى واسع فى أوربا عن طريق ماكتبه جاك أف فترى والمندوب البابوى للحملة الصليبية الخامسة وكان

يدعى بلاجيوس Pelagius ، وبذلك لاح الأمل فى مساعدة نصليبيين .
ولذلك أرسل البابا هونوريوس الثالث خطابات يعلن فيها الى رؤساء
أساقفة فرنسا وانجلترا فى نبرة حارة ، أن الملك داود هو الكاهن يوحنا
وأنه إنتصر على شاه بلاد فارس ، وإستولى على بلاده ، وأنه أصبح
على بعد مسيرة عشرة أيام من بغداد . وقد انتشرت هذه الشائعة على
نطاق واسع منذ عام ١٢١٩ م وكان لهذه الشائعة أكبر الأثر على القوات
الصليبية فى دمياط حتى أن المندوب البابوى بلاجيوس قد رفض العرض
السخى الذى قدمه الكامل ملك مصر الى الصليبيين ، والذى يقضى بتنازل
الملك الكامل وأخوه الملك المعظم ملك دمشق عن جميع الأراضى التى
فتحتها صلاح الدين ، عدا قلعتى الكرك والشوبك مقابل الجلاء عن
دمياط .

وفى عام ١٢٢١م ساد الاعتقاد بأن هناك تطابقاً بين الملك داود وبين
الكاهن يوحنا وبين رجاله وبين المغول ، والحقيقة أنه خلال عام ١٢٢٠ -
١٢٢١ م إجتاح المغول إقليم جورجيا وهذا ما لم يكن يعرفه
المندوب بلاجيوس فى دمياط ، لذلك أرسل إلى ملك جورجيا لاشين الرابع
Lashen IV يطلب منه إرسال النجدات الى الصليبيين فى دمياط .

سفراء البايا انوسنت الرابع ١٢٤٥م

والحقيقة أن تهديدات المغول بدأت تظهر فى شرق أوروبا فى عام
١٢٣٦م ، عندما بدأت بعض القوات المغولية تغيير على الجزء
الأوروبى من بلاد روسيا ، وفى خريف عام ١٢٣٧ م إجتاح المغول
دولة بلغار ، الى جانب بعض المدن الروسية ورغم بُعد هذه الأماكن
عن أوروبا الغربية إلا أن ما حدث من تدمير وتخريب على يد المغول قد
وصل الى مسامع أوروبا الغربية فتغيرت الصورة المشرقة للمغول عند
الأوروبيين .

وتأكد هذا الحال عندما إجتاح المغول هنغاريا فى عامى ١٢٤١ - ١٢٤٢م وأنزلوا بها الدمار ، وأن إنهيار القوة الهنغارية أمام المغول قد أذهل حكام غرب أوربا ، وقد لام فريدريك الثانى إمبراطور ألمانيا الهنغارين على ما لحق بهم من هزيمة ، وعرض أن يقدم لهم المساعدات على نفقته الخاصة ، وإستغل فرصة ظهور الخطر المغولى وحث حكام أوربا على الاتحاد تحت قيادته .

لقد انزعج البابا جريجورى التاسع لهذه الأخبار وعجز عن تقديم المساعدة للملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠ م) ، وكان إنسحاب المغول المفاجئ من هنغاريا فى ربيع عام ١٢٤٢ م ، مشار دهشة وفرحة فى الأوساط الأوربية ، واعتقدت أن الخطر قد زال عن أوربا ولو إلى حين ، ولكن المهم فى تلك المرحلة أن احتمال قيام تحالف أوربى مغولى ضد المسلمين قد زال تماماً ، وإن ما كان يشغل بال أوربا فى تلك المرحلة هو تجديد الخطر المغولى على هنغاريا مرة أخرى وأن يصبح قريباً من أوربا الغربية . وبعد أسابيع قليلة من إعتلاء البابا أنوسنت الرابع عرش البابوية فى روما دعا البابا بطيرك مدينة أكويليا Aquileia عاصمة هنغاريا ليجند الرجال وأن يعلن عن حملة صليبية ضد المغول .

كما دعا البابا أيضاً الى مجلس دينى فى مدينة ليون Lyons للنظر فى أمر الخطر المغولى وأمور أخرى ، على أن يبدأ المجلس أعماله فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٢٤٥م. ولكن البابا لم ينتظر اجتماع المجلس فيما يتعلق بأمر المغول ، فقد أعد البابا ثلاث سفارات لارسالها إلى المغول .

سفارة لورانس البرتغالي :

وكان على رأس السفارة الأولى البرتغالي Lawrence of Portugal ، وهو من الرهبان الفرنسيسكان. وقد حمل لورانس خطاباً من البابا مؤرخاً فى الخامس من مارس ١٢٤٥م، وفي هذا الخطاب دعا البابا خان المغول

إلى إعتناق الديانة المسيحية. وقد إتخذ لورانس طريقه إلى الشرق عبر
أرمينيا الصغرى ولكنه لم يتقدم أبعد من ذلك حيث انتهت رحلته عند
مدينة آياس (Lajazzo (Ayas). وقد عاد لورانس من حيث أتى ثم قام في
العام التالي بزيارة لبعض مناطق شرق البحر المتوسط ومنها بلاد اليونان.

ويبدو أنه كان في صحبة لورانس البرتغالي أحد الرهبان الفرنسيسكان
ويدعى دومنيك أف أرجوان Dominic of Argon، وقد عهد لورانس إليه
للقيام بزيارة بعض المدن الإسلامية، وقد زار دومنيك منطقة أرمينية وربما
بعض المدن الإسلامية في الشام ومصر ومكث فترة طويلة في
القسطنطينية قبل عودته إلى روما في صيف عام ١٢٤٧م. والحقيقة
الواضحة أن السفارة الأولى التي أرسلها البابا إنوسنت الرابع لم تصل إلى
بلاد المغول، وبالتالي لم تسلم رسالته إلى أي حاكم من حكام المغول.
وعلى ذلك يمكن القول أن هذه البعثة لم تحقق أهدافها السياسية.

ويرى البعض أن لورانس البرتغالي قد نجح في نشر الديانة المسيحية
على المذهب الكاثوليكي في بلاد المغول. والحقيقة أن في هذا الرأي مغالاة
كبيرة، فالمقدمات لا تتفق مع النتائج، كما أن لورانس نفسه لم يترك لنا
وصفاً أو نصاً عن رحلته حتى يمكن مناقشته وأن ما سجل هذا الرأي هم
رجال الدين الكاثوليك الذين كتبوا في أواخر القرن الماضي عن بعثات
جماعة الفرنسيسكان إلى المغول.

٢ - سفارة يوحنا أف بيان دل كارين :

وتولى أمر السفارة الثانية أحد الرهبان الفرنسيسكان أيضاً ويدعى
يوحنا أف بيان دل كارين John of Pian del Carpine، وقد حمل هذا
السفير الخطاب الثاني الموجه من البابا الذي يرجع تاريخه إلى الثالث عشر
من مارس في العام نفسة (١٢٤٥م) أي بعد حوالي أسبوع من تاريخ
لخطاب الأول الذي حمله السفير لورانس البرتغالي، ويتضح من ذلك أن

البابا إنوسنت الرابع كان يتعجل إرسال السفراء إلى المغول دون إنتظار وصول نتائج البعثة الأولى.

ومعلوماتنا عن يوحنا أكثر من لورانس، فقد ولد يوحنا في بيروز-Perouse بالقرب من مدينة أسيس Assise الواقعة على الساحل الايطالي الشرقي المواجه للبحر الادرياتيكي، ولعل ذلك جعله من رفاق القديس فرانسيس أف أسيس مؤسس طائفة الفرنشيسكان (١٢١٥م)، وقد لعب يوحنا دوراً كبيراً في نشر أفكار هذه الطائفة في ألمانيا، وبوهيميا، والمجر، والنرويج، والدانمرك، واللورين وأسبانيا. ولعل في هذا الرصيد الهائل من الرهبانية والتبشير بالمذهب الكاثوليكي ما جعل البابا يختاره ليكون سفيراً له وللمسيحية بأكملها لدى خانات المغول في تلك المرحلة من التاريخ الوسيط.

والحقيقة أن بعثة يوحنا اختلفت عن بعثة سلفه لورانس التي كانت مهمته التبشير بالمسيحية داخل قبائل المغول، فقد كانت مهمة يوحنا هي محاولة كبح جماح المغول وإيقاف توسعاتهم، وربطهم بفكرة السلام التي كانت تسعى إليها الباباوية للتفرغ لمحاربة المسلمين، ويتضح ذلك من بعض نصوص خطاب البابا إلى خان المغول. فقد ورد به أن البابا يرسل إليكم ابنه العزيز يوحنا ورفاقه لتوقعوا مع أوربا معاهدة سلام، ومن خلال هذه المعاهدة يمكن التعرف على نواياكم والتخطيط معكم للغزوات المقبلة.

وعلى أية حال فقد رحل يوحنا ورفاقه بينهم الراهب بنوا دي بولوني-be-noit de Pologne كمترجم لهم، وبدأت رحلة السفارة من مدينة ليون في فرنسا إلى مقاطعة بوهيميا، ومنها اتجهت إلى بولندا. وعندما دخلت البعثة الأراضي الروسية استضافها أحد الحكام الروس ويدعى بازيل حيث قضوا بعض الوقت حاولت فيه البعثة الدعوة للمسيحية على المذهب الكاثوليكي، ولكنها لم توفق في مهمتها.

أخذت البعثة طريقها إلى مدينة كييف،، وقد تعرضت البعثة لسوء الأحوال الجوية بالإضافة إلى أخطار غارات اللتوانيين على المناطق الروسية، وفي النهاية وصلت البعثة إلى كييف في الثالث من فبراير عام ١٢٤٦م، ومنها خططت لإتخاذ طريقها إلى العاصمة المغولية قراقورم، فوصلت في البداية إلى معسكر المغولي في سيرا - أوردو Sira - Orda الذي يبعد عن العاصمة المغولية بمسيرة نصف اليوم في الثاني والعشرين من يونية.

وعندما وصلت البعثة كان الخان الأعظم أوكيتاي قد مات، وكان يتولى الوصاية توراكيينا خاتون، وطبقاً لقوانين المغول كان لابد من الانتظار حتى يتم انتخاب الخان الجديد. ولذلك ظلت البعثة حوالي ستة أسابيع حتى تم انتخاب كيوك، ولكن الاحتفال بالتتويج تأخر لبعض الوقت بسبب سوء الأحوال الجوية. وفي الرابع والعشرين من أغسطس ١٢٤٦م تم تتويج الخان الجديد حيث ركع الجميع أمامه.

كان يحيط بالخان كيوك مجموعة من المسيحيين النساطرة، فاعتقدت البعثة أنه سيعتنق المسيحية بعد وقت قريب، ولعل ما شجع رجال البعثة على هذا الاعتقاد ما تردد حول قيام الخان الجديد ببناء كنيسة صغيرة من ماله الخاص تقام فيها الشعائر المسيحية.

وفي نهاية الأمر استدعى الخان كيوك السفارة الباباوية وعلى رأسها يوحنا دي بيان كارين، وقد سأل الخان رئيس البعثة عن أسباب قدومه، فأبلغه بها، وكان من ردود الخان أن الله أمر المغول بمعاينة الأمم العاصية التي لا تدخل في طاعته، وعلى البابا إذا أراد أن يعرف ديانة المغول فعليه الحضور إليهم بنفسه، وأضاف أن المغول يرفعون سيوفهم في وجه كل الشعوب التي لم تخضع لهم بعد، وأن سبيلهم في ذلك استخدام الحديد والنار.

وبعد طول بقاء البعثة طلب الخان كيوك منها أن تكتب له اقتراحاتها، ولكن البعثة أحست بعدم جدوى ذلك. كما أنها كانت غير مفوضة بمثل هذه الأمور، وكل ما يهمها هو تقديم رسائل البابا التي وجدت فيها الكفاية، أو أنها خشيت الدخول في تفاصيل الحديث عن المسيحية الكاثوليكية، في حين يعلم المغول الكثير عن المسيحية النسطورية الارثوذكسية، فيعلم المغول الكثير عن الشقاق الديني الذي يسود الطوائف المسيحية، وبذلك يظهر ضعف الدول المسيحية أمام المغول.

أحس يوحنا أنه أدى واجبه المكلف به، وأنه لا جدوى من بقائه واستأذنت البعثة في الرحيل، فعادت من نفس الطريق التي أتت منه، وفي حوالي شهر مايو من عام ١٢٤٧م كانت قد وصلت إلى معسكر الخان باطو على نهر الفولجا ومنه إلى مدينة كييف ومنها إلى المقر البابوي في روما حيث استقبلها البابا انوست الرابع بحفاوة بالغة، وبعد أن ظل يوحنا إلى جوار البابا حوالي شهر عينه رئيساً لاساقفة مدينة أنتفاري Antivari الواقعة على ساحل دلماشيا. والحقيقة أن يوحنا قد فشل في رحلته تماماً وأنه لم يقدّم بعمل شئ سوى أنه سلم خطابات البابا إلى خان المغول، ولكنه على الجانب الآخر ترك لنا وصفاً طيباً عن الأماكن التي مر بها وما لحق بها من خراب، وكثيراً من التفاصيل عن عادات المغول وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية المتعلقة بالزواج والوفاة وطعامهم وشرابهم وحياتهم الأخرى بعد الموت. وهي أمور يطول شرحها ولا داعي لذكرها في هذا المقام. والخلاصة أن المغول لم يسلموا برغبات البابا، كما أن الخان كيوك لم يشرف في رده إلى أي ارتباط مع الباباوية بروابط الصداقة، وأن الرد الذي قدمه خان المغول لا يعدو أن يكون بعض عبارات المجاملة إلى البابا.

٣ - بعثة أسكلين Ascelin

وهو أحد رجال الدين الدومنيكان، وكان من ضمن حاشيته رجل يدعى سيمون أف سانت كونتين Simon of saint Quentin صاحب كتاب تاريخ التتار الذى فقد والذي قدم لنا بعض المعلومات التى بقيت لنا فى بعض المصادر. وعلى أية حال فقد سار أسكلين فى الطريق الجنوبى الى المغول عبر قبرص وبلاد الإسلام ثم الى مدينة تفليس Tiflis فى الشمال حيث لحق بالبعثة راهب دومنيكانى آخر يدعى جيوسكارد أف كريمونا Guiscard of Cremona ، ومن تفليس بدأت الرحلة التى إستمرت حوالى سته أسابيع حتى وصلوا الى معسكر المغول الذى كان يتولى أمره القائد بياجو Baigu فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٢٤٧ م وكان اللقاء بين بياجو وإسكلين بعيداً عن الصداقة ، فقد كان كلاهما عنيداً ، وقد سجل لنا سيمون أحد رجال البعثة مادار من اقتراحات قدمت من رجال حاشية بياجو وفيها : قتل إثنين من رجل البعثة ، وإقتراح آخر يقضى باعادة أسكلين إلى البابا وعلى جسده أثر الضرب بالسياط .

لم يكن بياجو راغباً فى نقل رسالة البابا إلى خان المغول ، بل طلب من رجال البعثة أن يواصلوا مسيرتهم الى منغوليا ، وقد رفض أسكلين بشدة ، ولكن حب الاستطلاع دفعه إلى السير إلى منغوليا بمساعدة بعض البيزنطيين والأتراك من الرهبان ، تم ترجمة الرسالة من اللاتينية إلى الفارسية ثم إلى اللغة المغولية . وقد أرسل بياجو أصل الرسالة ومعه الترجمة المغولية إلى عاصمة المغول قراقورم Karakourm حيث أعدت رسالة مغولية رداً على رسالة البابا . وقد تضمنت الرسالة رداً عنيفاً يقضى بإخضاع البابا وشعبه للمغول . وبهذه الرسالة الحزينه عاد أسكلين ورفاقه إلى البابا فى صيف عام ١٢٤٨م، وعاد مع البعثة أيضاً

مبعوثان مغوليان هما ايبيك Aybeg وسرجيس أو سرگيس Sargis ، لعل الأول مسلم تركى والثانى مسيحي ، وكان قدومها يعنى أول إتصال سلمى بين المغول وبين أحد حكام أوربا .

٤ - بعثة أندرو

أما البعثة الثانية التى تستحق الذكر فقد تولى أمرها الراهب الدومنيكانى أندرو أف لونججومو Andrew of longjumeau ، وأثناء ذهابه فى رحلته الى المغول زار الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ثم المنصور صاحب حمص ، وكان كلاهما على علاقات طيبة فى تلك المرحلة مع الصليبيين . وفى خطاب مؤرخ فى الثلاثين من ديسمبر عام ١٢٤٥ م موجه الى البابا ورد به على لسان المنصور إنه ومن أجل الأسباب العديدة الذى قدمتها فاننى قد نصحت الراهب أندرو ورفاقه ألا يكملوا رحلتهم الى المغول ، ويتضح من الخطاب أنه أثناء جدال المنصور مع أندرو انه لم يشر الى الأسباب التى من أجلها يرى عدم إكمال الرحلة . وأنه كان يرى أن التحالف بين المغول والصليبيين سوف يؤثر كثيراً على المنصور وسوف يضعه فى موقف حرج .

ورغم عدم تشجيع المنصور للراهب أندرو فإن الأخير واصل رحلته الى المغول ، وفى ضواحي مدينة تبريز تقابل مع جيش مغولى . كما تقابل مع الراهب النسطورى سيمون الذى يعرف باسم ريان عطا . وكان ريان هذا معروفاً عند الخان العظيم أوكيتاى . وقد ذهب ريان عطا إلى الارمن فى إقليم قيليقية عدة مرات بين سنتى ١٢٣٥ - ١٢٤٠ م ، ولعب دوراً هاماً فى رعاية شئون المسيحيين الذين يعيشون فى ظل الحكم المغولى . وقد تجادل أندرو وريان عطا لمدة عشرين يوماً ، وعندما حان وقت الرحيل فإن الراهب النسطورى ريان عطا ودع الآخر وحمله بعض الهدايا منها عصا من الخشب الأبنوس ليقدمها للبابا ، وحمل أندرو أيضاً خطاباً من ريان

عطا يحث فيه البابا على أن يعقد سلاماً مع الامبراطور فريد يدرك الثانى حتى يعم السلام أوروبا وتتوحد لمواجهة المغول ، وبدون هذه الوحدة الأوربية لا يمكن مواجهة القوات الاسلامية ، والحقيقة الماثلة أمامنا الآن أن أندرو وريان عطا قد إستطاعا إقامة جسر دينى قوى بين المسيحيين فى الغرب الأوربى والمسيحيين فى أقصى الشرق ، هذا الجسر الذى قام فوق القوات المغولية والقوات الإسلامية . وعاد اندرو الى أوروبا فى النصف الأول من عام ١٢٤٧م ومعه كل هذه التقارير . وكان أندرو أول الذين أرسلهم البابا وعادوا الى أوروبا ، وتعتبر التقارير التى أحضرها معه والنتائج التى توصل اليها أفضل من النتائج التى توصل اليها المبعوثان الآخزان وهما أسكلين ويوحنا أف بيان دل كارين ، والمعروف أن الأخير قد قابل كيوك خان منغوليا العظيم ، وعاد ومعه أخبار مزعجة تفيد أن هذا الخان الذى يفترض فيه من أنصار المسيحية قد رفع راية العصيان ضد كنيسة الله ، وضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد كل الممالك المسيحية ودول الغرب الأوربى .

لقد أيد ماورد فى الخطاب الذى حمله يوحنا للبابا من قبل المغول ماورد فى تقارير الراهب أندرو، فقد كان ماورد فى هذين الخطابين قاسياً على البابا وأوروبا بأسرها ، فقد كان على البابا أن يقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم ، وكان فى ذلك إهانة للباباوية وضياع هيبتها فى العالم المسيحى ، والأهم من ذلك كله أن هذه المعلومات قد أصبحت معروفة للجميع . والخلاصة أن هذه البعثات البابوية قد وضعت البابا أمام حقيقة هامة جداً ، وهو أن الخطر المغولى أصبح العدو الأول للباباوية وأوروبا ، وكانت إجابة البابا الى الخان بياجو فى خطاب أرخ فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٢٤٨ م ، وقد حمل رسالة البابا المبعوثان المغوليان اللذان قدما مع السفارة وهما أيبك وسركيس ، وفى هذه الرسالة شرح البابا للمغول العقيدة المسيحية ، وطالبهم بوقف تهديدهم . لقد

فقد البابا الثقه فى المغول وفى إقامة تحالف معهم أو الإرتباط معهم برباط الصداقة على الأقل ، وقد تبنى هذه الفكرة لويس التاسع ملك فرنسا . ورغم الصورة القائمة التى قدمها المبعوث البابوى يوحنا أف بيان دل كارين إلى البابا ، فقد قام الأخير بالاتصال بالملك لويس بصفة خاصة ينصحه بالاتصال بالمغول ، وقد قرر الملك الفرنسى أن يواصل المساعى التى بدأها البابا أنوسنت الرابع ، ولقد سعى لويس فى هذا الجانب ولكنه لم يوفق فى مسعاه . ولعل ذلك مرجعة إلى أن لويس كان يسعى من جانب المغامرات السياسية ، وإنه كان يسعى لإقامه الصداقة مع القوى المغولية بإعتبارها تقع الى الشرق من العالم الاسلامى ، وكان من المهم فى البداية تحويل المغول من الوثنية إلى الديانه المسيحية .

٥ - سفارات لويس التاسع إلى المغول

وفى غمرة هذه الأحداث تحرك الملك لويس التاسع بحملته المعروفة فى التاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة لمهاجمة مصر ، وقد رسا بسفنه على جزيرة قبرص وهو فى الطريق إلى مصر ، وقد رسا بسفنه على جزيرة قبرص وهو فى الطريق إلى مصر، وإذا كان البابا إنوست الرابع هو الذى بدأ بمرسلة حكام المغول ، فإن العكس هو الذى حدث مع الملك لويس ، ففى أثناء وجود الملك فى جزيرة قبرص وقبل أن يرحل إلى مصر، وصل إليه مبعوثان مغوليان هما مرقص وداود من قبل القائد المغولى الجيهداى الذى كان يشغل منصب نائب الخان الأعظم فى الموصل ، ومن الواضح أن هذين المبعوثين كانا من المسيحيين النساطره .

وقد قدما هذان المبعوثان رسالة مكتوبة إلى الملك لويس التاسع بالاضافة إلى رسالة شفوية وكان فى كلاهما مايشير الدهشة ، فقد كان ماورد فيها أن كيوك وبعض رجال المغول البارزين ومنهم الجيهداى نفسه قد اعتنقوا الديانة المسيحية ، وأن الخان الأعظم قد أرسل الجيهداى إلى الغرب لعله يستطيع أن يساعد الصليبيين لإستعادة الأراضى المقدسة ،

وأن المغول متحمسين إلى الدخول في حلف مع ملك فرنسا ، كما كان من خطط المغول أن يتجهوا إلى بغداد في الوقت الذي يهاجم فيه لويس سلطان مصر حتى لا تساعد القوات الايوبية الخليفة العباسي ، وبذلك يصبح الحلم القديم حقيقة وهو الحلم الذي ساد إعتقاد الغرب بظهور الكاهن يوحنا ملك المسيحيين في الشرق ويضرب المسلمين من الخلف .

كان في كل هذا تحول كبير لموقف المغول الذي أبلغ للبابا أنوسنت الرابع ، ولكن الأحداث سوف تسفر عن غير ذلك ، وأن الحديث والاتفاق شيء والواقع شيء آخر لأن كل ما دار بين داود ومرقص والملك لويس التاسع لم يكن سوى هراء بعد أن تصور الطرفان أن بالأمكان تنفيذ ماتم الاتفاق عليه .

لقد كانت السفارة التي أرسلها المغول إلى الملك لويس عملا كبيرا من الوجهة الرسمية ، كما إعتبرت السفارة عملا دبلوماسيا قام به المغول واستجاب له الملك لويس ، وقد حاول كلا من الجانبين المغولي والفرنسي إستغلال الآخر لمصلحته . ومن ذلك يتضح انه حدث تطابق مرحلي لأهداف كل منهما ، وهذا الهدف هو القضاء على القوة الايوبية في مصر . وبالنسبة للملك لويس فهو أمر يسهل عليه تحقيق هدفه الرئيسي وهو استعادة الأراضي المقدسة ، أما بالنسبة للمغول فان القضاء على القوات الأيوبية في مصر يسهل عليهم القضاء على الخلافة العباسية في بغداد إعتقادا منهم أن مصر لن تقف مكتوفة الأيدي اذا ما تعرضت الخلافة العباسية للخطر . وربما يكون في السفارة المغولية إلى قبرص نوع من التجسس على نوايا وتحركات الغرب الأوروبي ممثلة في تصرفات الملك الفرنسي لويس .

وعلى أية حال لم يكن أمام الملك لويس سوى الترحيب بالسفارة المغولية التي يرى فيها نية تحالف المغول مع الغرب الأوربي ضد المسلمين

بعمامة وفي مصر والشام وبغداد بخاصة ، ومن جانب آخر كان الملك الفرنسى يعلق آمالا كبيرة على دخول العناصر المغولية فى الديانة المسيحية خاصة بعدما صور اليه البعض ميول الخان العظيم كيوك إلى بعض المسيحيين النساطرة ، وتعين عدد منهم فى بعض الوظائف القيادية الهامة فى دولة المغول، وتخيل الملك الفرنسى أن الوحدة الدينية بين المغول وأوربا ستكون المدخل الطبيعى إلى التحالف العسكرى بين أوربا والمغول للقضاء على المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى الاسلامى خاصة الدولة الأيوبية .

والحقيقة أن الملك لويس قد أكرم وفاده السفارة المغولية وأبدى إستعداداه تماما للتحالف مع المغول ، لأنه لم يكن بوسعهم أن يفعل غير ذلك . وإلى جانب ذلك أعد الملك سفارة من لدنه لمرافقه البعثة المغولية عند عودتها إلى القيادة المغولية . وكانت البعثة الفرنسية مكونة من ثلاثة رهبان من جماعة الدومنيكان وهم أندرو أف لونجومو Andrew of Longjumeau وأخوة جى Guy ويوحنا كاركاسون Catrasonne ، وقد تولى أندرو رئاسة هذه السفارة نظر لخبرته بأمور الشرق . وسوف يطول غياب هذه السفارة حوالى عامين .

والمهم هنا أن الملك لويس أرسل مع سفارته خيمة من قماش بلون قرمذى فى شكل كنيسة صغيرة وذلك بقصد جذب أنظار المغول إلى الديانة المسيحية، بالاضافة إلى بعض التماثيل التى صنعت من الحجارة ، ومن هذه التماثيل تمثال للملاك جبريل وهو يحمل البشارة للسيدة مريم العذراء ، وبعض الصور الأخرى المتعلقة بالديانة المسيحية. ويلاحظ أن عضوين من سفارة الملك لويس كانا يعرفان اللغة المغولية ، وكان بوسعهما أن يعلموا المغول القواعد الاساسية للديانة المسيحية وأن يقنعوهم بقبولها .

غادرت السفارة الفرنسية والمغولية جزيرة قبرص واتجهت إلى مدينة أنطاكية الصليبية كما ذكر المؤرخ جوانفيل. ومن أنطاكية اتجهت إلى الموصل حيث معسكر الجهادى . وعند هذه المرحلة كان الموقف السياسى

المغولى قد تغير تماماً ، فقد مات الخان الأعظم كيوك ، لذلك وجد الجهيدي أن من الحكمة ألا يتصرف من نفسه مع السفارة الفرنسية ، ورأى أنه من الأفضل أن يوجه السفارة إلى الوصية على العرش المغولى فى العاصمة قراقورم وهى أوغول قاميش - أرمله الخان كيوك - لأن الصراع على السلطة لاختيار خليفة للخان الأعظم كان على أشده . وكان على السفارة الفرنسية أن تواصل الرحلة من الموصل إلى العاصمة المغولية .

ظلت أغول قاميش وصية فى الفترة ١٢٤٩ - ١٢٥١ م ، ورغم وضعها المشكوك فيه ، إلا أنها فعلت ما فى وسعها لإرضاء السفارة الفرنسية. وفى نهاية الأمر غادرت السفارة الفرنسية ومعها سفارة من قبل المغول من العاصمة قراقورم فى طريقها إلى بلاد الشام حيث كان الملك لويس موجوداً فى مدينة قيسارية . وكانت حملة لويس التاسع قد هزمت فى مصر كما أسر الملك لويس فى المنصورة ، وبعد فشل الحملة وفك أسر لويس غادر مدينة دمياط إلى بلاد الشام حتى وصل إلى مدينة قيساريه .

والمهم هنا أن السفارة المغولية المصاحبة للسفارة الفرنسية قد تقابلت مع الملك لويس فى ابريل عام ١٢٥١م ، وقد قدمت السفارة المغولية ، وقد قدمت السفارة المغولية رسالة إلى الملك لويس ، وقد ورد فى هذه الرسالة أن الوصية على العرش المغول أوغول قاميش قد إعتبرت الهدايا التى أرسلها الملك لويس بمثابة جزية من الملك كتابع لأسيادة المغول ، وأن المشاكل التى تمر بها دولة المغول بسبب وفاة الخان العظيم تمنعها من إرسال حملة عسكرية إلى البلاد الإسلامية فى تلك المرحلة . وقد ذكر المؤرخ جوفانفيل أن ما ورد برسالة المغول لا يعدو أن يكون إنذاراً من المغول إلى الملك لويس الذى إعتبره المغول تابعاً لهم ، وإن الهدايا التى أرسلها الملك إلى الخان المغول

تعتبر جزية، وعلى الملك أن يتابع إرسال هذه الجزية سنويا لحكومة المغول حتى لا يتعرض الملك والشعب الفرنسى للغزو كما تعرضت له شعوبا أخرى من قبل .

لقد خاب أمل الملك لويس فى السفارة التى أرسلها للمغول، خاصة أنه كان يتمنى أن تعود السفارة بمساندة ايجابية للملك يعوض بها خسارته وهزيمته فى حملته على مصر، خاصة انها لم تكن هزيمة عادية ، بل هزيمة مهينة أعقبها وقوع الملك أسيرا فى أيدي المسلمين . والواقع أن الملك لويس لم يكن قد تفهم حتى هذه المرحلة سياسية المغول الخضوع إما سلما أم حرباً لدولة المغول .

ورغم هذا كله فان الملك لويس لم ييأس ، والواقع أن الملك لويس كان يسعى من جانبه إلى أمرين أولهما محاولة جذب المغول إلى الديانة المسيحية ويعتبر ذلك إن تم نصرا للملك لويس المعروف باسم القديس لويس ، ومن جانب آأرفهو يريد تحالفا عسكريا مع المغول لضرب الدولة الأيوبية التى تسيطر على مصر والشام وأنزلت به هزيمة قاسية على ضفاف النيل . ولعل ما شجع الملك لويس على معاودة إرسال سفارة أخرى للمغول هو ما شاع فى تلك المرحلة عن تحول الأمير المغولى سارتاق بن باطو إلى الديانة المسيحية.

ولما كان سارتاق من أمراء القبيلة الذهبية التى تحكم بلاد القفجاق الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود ، إنصب تفكير الملك لويس على إرسال بعثة ثانية إلى القفجاق . وقد تكونت البعثة من راهب فرنسيسكانى هو وليم أف روبرك William of Robruck وآخر دومنيكانى هو بارثليميو أف كريمونا Bartholomew of Cremona فى محاولة من الملك لمساعدة المغول للصليبيين فى بلاد الشام . وقد رحلت السفارة الفرنسية من مدينة قيسارية

مقر إقامة الملك لويس فى بداية ربيع عام ١٢٥٢م واتخذت طريقها إلى القسطنطينية . وقد استقرت البعثة هناك لبعض الوقت لتقضى أخبار مغول القفجاق ، ومنها إبحرت البعثة فى البحر الأسود حتى شبه جزيرة القرم Crima ، وهى مركز تجارى عام ، ولعل أفراد البعثة قد استفادوا الكثير من المعلومات التى تلقوها من التجار عن المغول، وقد لاحظت البعثة تعدد الديانات الى يعتنقها أهل هذه المناطق ومنها الديانة الاسلامية .

لقد قاست البعثة الكثير من السير بالعربات بعد مغادرتها شبه جزيرة القرم لأن البعثة كانت تسير فى أراضى خالية من المدن أو القرى وكانوا ينامون تحت عرباتهم حتى وصلوا إلى مقر إقامة سارتاق الواقع على نهر الفولجا .

تم اللقاء بين البعثة الفرنسية وبين الأمير المغولى سارتاق بعد إتمام المراسم الواجب على البعثة القيام بها ، وقد قدم روبروك خطاب الملك لويس إلى سارتاق، وبعد أن علم بمضمون رسالة الملك ومنها بقاء البعثة فى الاراضى التى يسيطر عليها المغول للتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي والتحالف مع الملك لويس لمحاربة المسلمين ، أحس سارتاق أنه لا يملك الموافقة على أمور خطيرة كهذه ، لذلك طلب سارتاق من البعثة التوجه إلى والده الخان باطو المقيم فى مدينة سراى للموافقة على ذلك ، وكان فى هذا التصرف ردا كافيا من الأمير سارتاق بانه لم يعتنق المسيحية.

واصلت البعثة السير مع مرشدين إلى مقر إقامة باطو ، ويتضح من النصوص أن الخان باطو قد احيط علما بأمر هذه البعثة، فأعد اللزم لاستقبالها فى خيمة كبيرة أعدت لهذا الغرض . وعندما التقى روبروك بالخان باطو، بدأ روبروك بالحديث عن الهدف من قدومه وأبلغه أن الملك لويس قد أرسله إلى الأمير سارتاق عندما علم بأنه اعتنق الديانة المسيحية، كما أبلغه أيضا أن الملك لويس قد أعد العدة لمحاربة المسلمين وأنه يأمل فى

التحالف مع المغول لتنفيذ ذلك والاستيلاء على الأراضى المقدسة. ولم يكن بوسع الخان باطو الموافقة على طلب البعثة أو على جزء منها، فطلب من البعثة التوجه إلى العاصمة قراقورم لمقابلة الخان الأعظم مونكو لعرض الأمر عليه، لأنه الوحيد الذى يملك هذه السلطة، وقد وافق روبروك على ذلك.

وقد زود الخان باطو البعثة الفرنسية بالأدلاء اللازمين حتى تصل إلى مقر الخان عند قراقورم، وقد بدأت البعثة رحلتها حوالى منتصف سبتمبر ١٢٥٣م حتى وصلت فى أواخر ديسمبر من العام نفسه، أى أن الرحلة استغرقت حوالى ثلاثة أشهر ونصف. وفى نهاية الأمر تقابل روبروك وزميله مع الخان مونكو، ولكن هذه المقابلة لم تسفر عن موافقة صريحة من الخان الأعظم لطلب الملك لويس. والخلاصة أن فكرة البعثة قد بدأت بشائعة أن الأمير سارتاق قد اعتنق المسيحية وانتهت إلى لا شيء بعد رحلة طويلة بدأت من قيسارية إلى القسطنطينية ثم إلى شبه جزيرة القرم فإلى مدينة سراى على نهر الفولجا ثم إلى قراقورم. والحقيقة أن المغول كانوا يتعاملون بسياسة التسامح مع كل الأديان، كما أن المغول قد وثقوا فى بعض المسيحيين النساطرة وانهم أسندوا إليهم بعض المناصب الهامة، كما أن حكام المغول كانوا يحضرون بعض الاحتفالات الدينية للنساطرة وللمسلمين أيضا. ولعل البعض قد توهم فى ذلك، تحول بعض المغول إلى المسيحية وأشاعوا ذلك، وتحولت الشائعة إلى حقيقة صدقها باباوات وحكام أوربا فى تلك المرحلة.

الأرمن والمغول

وفى عام ١٢٥٣م قام الملك هيشوم Hetoum بنفسه لزيارة الخان الأعظم مونكو فى العاصمة قراقورم، وكان أول ملك يصل الى البلاط المغولى من تلقاء نفسه، وقد تم إستقباله بكل ترحاب، ولقد وعد المغول بعدم فرض ضرائب على الكنائس والاديرة الأرمينية التى تقع فى الأراضى المغولية،

ولم تكن زيارة هيتوم قاصرة على حماية المسيحية الذين يعيشون على أرض المغول ، ولكنه كان يريد الحصول على مساعدة المغول للسيطرة على الأراضي المقدسة وانتزاعها من أيدي المسلمين .

وقد عاد هيثوم فى عام ١٢٥٦م متشجعاً بالوعود التى بذلها المغول محملاً بالهدايا ، وكان هيثوم قد سار فى رحلته الى المغول عبر أرمينيا الكبرى ومر بها عند عودته أيضاً ، وفى هذه المرة الأخيرة ظل فترة طويلة إستقبل خلالها العديد من الأمراء المحليين والأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكان الملك الأرمن ليوالثانى Leo II (١١٨٧ - ١٢١٩م) يعتبر نفسه ملكاً على كل الأرمن ، وقد سجل ذلك على بعض عملاته ، ولكن زيارة الملك هيثوم تعتبر أول زيارة يقوم حاكم قبليقة بإتصال مباشر مع السكان فى أرمينيا الكبرى .

وحاول هيثوم أن يكسب الأمراء الصليبيين إلى جانبه ليؤيدوا فكرة التحالف مع المغول ، ولكنه لم يوفق إلا مع أمير أنطاكية بوهمند السادس Bohemond VI (١٢٥١ - ١٢٦٨م) ، ولقد ظل هيثوم متفهماً ومخلصاً لهذه الفكرة ، وقام من جانبه بزيارات متعددة إلى بلاط المغول ، ، وقد قدم مساعداته العسكرية للمغول عندما طلب منه ذلك. ولقد حاربت الفرق الأرمينية إلى جانب القوات المغولية فى آسيا الصغرى وبلاد الشام . وقد أدت هذه المساعد الى تقدم هيثوم واستعادة بعض القلاع التى كان سلاجقة الروم قد إستولوا عليها ، وهى القلاع التى كانت تابعة للأمير الأرمينى كوخ باسيل Kogh Vasil ،

لقد كان فى عودة هذه القلاع الى أرمينيا بداية المنافع التى حصل عليها الأرمن من جراء تحالفهم مع المغول ، ولقد نجح هيثوم أيضاً فى حروبه مع سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى قلع أرسلان الرابع (١٢٥٧ - ١٢٦٧م) وانتصر عليه ، وعلى التركمان الذين إستقروا على حدود قبليقية

فى عام ١٢٥٩م . و لقد أخترق صفوفهم وجرح قائدهم قرامان Karaman جرحاً مميتاً ، ودافع عن منطقة سليوقية Seleucia ضد هجماتهم فى عام ١٢٦٣م . وكان على الأرمن أن يتحملوا نتيجة تحالفهم مع المغول خاصة بعد هزيمه كتبغا فى معركة عين جالوت ، وبعد إسترداد المسلمين لمدينة دمشق وحلب وضعف النفوذ المغولى فى بلاد الشام ، ولقد دفعت أرمينيا ثمن تحالفها مع المغول عندما وقفت قواتها ضد المسلمين أعداء الصليبيين والمغول .

وحاول هيشوم ملك أرمينيا التفاوض مع بيبرس ، وتم تبادل السفراء بينهما ، لكن طلبات السلطان كان مبالغ فيها ، وأحس هيشوم أن الحرب مع الممالك واقعة لامحالة ، فذهب الى تبريز يطلب معونة المغول ، وفى تلك المرحلة عاجل السلطان بيبرس بدفع أمرائه وقواته مع قوات المنصور الثانى صاحب حماه لغزو قيليقية . وقد مرت هذه القوات عبر ممرات الأمانوس Amanus بدلاً من المرور عبر ممرات سوريا وذلك فى عام ١٢٦٦م . وقد حاولت القوات الأرمينية بقيادة الكندستيل سمباد والأميران الصغيران ثوروس وليون Toros and leon مقاومة القوات الإسلامية بكل مألديها من قوة . ولكن القوات الأرمينية هُزمت فى هذه المعركة ، وقد قتل ثوروس كما أسر كل من ليون وسمباد ، وقد دام إجتياح القوات الإسلامية البلاد الأرمينية مدة عشرين يوماً دون أن تبدى القوات الأرمينية أية مقاومة ، وقد إجتاحت مدن المصيصة وأدرنه وأياس وطرسوس وبعض البلاد الأخرى . وفى مدينة سيس أضرمت القوات الإسلامية النار فى كاتدرائيتها وأخذت كنوزها وكل ما تجمع من مجوهرات بداخلها ، كما ذبحت القوات الإسلامية الآلاف من السكان وحملت العديد منهم أسرى الى مصر ، وعندما عاد هيشوم من رحلته الى المغول فى تبريز وجد بلاده خراباً ، وقد أثر ذلك عليه كثيراً ، وظل ينتظر عودة ابنه ليون Leon من الأسر حتى يتخلى عن العرش والتماس السلوى فى أحد الأديرة .

وبعد هزيمة القوات الأرمينية فرض بيبرس على مملكة أرمينيا شروطاً قاسية ، فقد طلب تسليم كل القلاع الموجودة في منطقة الأمانوس وكل القلاع المقامة على الحدود مع بلاد الشام بإستثناء مدينة بهنسي . كما تم إطلاق سراح الأمير ليون بعد إتصالات عديدة مقابل إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر - المقرب الى بيبرس وهو الذى أسره المغول فى حلب .

لقد أستسلمت قبليقية للقوات الإسلامية ، وتخلى فرسان الدواية عن قلعة بغراس والقلاع المجاورة لها ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام القوات المملوكية ، ولم يعد هناك سوى المغول الذى أصبح بإمكانهم تقديم المساعدة للأرمن ضد القوات المملوكية . ورغم هذا كله فإن وضع الأرمن أصبح ضعيفاً عما كان عليه فى عهد هولاکو ، وعندما أطلق سراح ليون إصطحبه والده هيثوم إلى إبغا ليصبح ليون تحت حمايته ، وأن يصبح أبغا وريثاً لمملكته من بعده ، وبعد أن إعتزل هيثوم فى عام ١٢٦٩م عاد ليون من بلاط المغول ليصبح ملكاً على أرمينية . واعتقد ليون المعروف بالثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٩م) فى التحالف مع المغول وهو الأمل الذى رآه ليون لإنقاذ الأراضى المقدسة.

وقد إتمس ليون المساعدة من الغرب الأوربى أيضاً ، كما أن القائد المغولى أبغا قد أرسل السفراء بدوره إلى البابا فى روما والى إدوارد الأول إنجلترا من أجل التحالف ضد المماليك ، ولكن ذلك لم يسفر عن عمل ملموس ، لقد أصبح من المؤكد أن مثل هذا التحالف ، أصبح غير ممكن ولن يصاحبه أى نجاح . وفى غياب أى عمل عسكري أوربى أو مغولى نجح المماليك فى إستكمال إنتصاراتهم العسكرية وتمكنوا خلال سنوات قليلة أن يستولوا على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام وأن يحطموا فى الجزء الأول من القرن الرابع عشر مملكة أرمينية ،

لقد أعطت أعمال بيبرس العسكرية ضد الصليبيين الفرصة للملك

الأرمني ليون فى بداية عهده أن يصلح مادمرته القوات الإسلامية فى أرمينية ، فبادر بإعطاء إمتيازات أجنبية للبنادقة فى بلاده عام ١٢٧١م ، وقد تم إعادة بناء مدينة إياس وأصبحت مركزاً تجارياً كبيراً. ولقد ذكر الرحاله ماركوپولو الذى زار المدينة عام ١٢٧١م بقوله « وهى مكان تدور فيه تجارة ضخمة ، ويكثر التجار من التردد على مينائها قادمين من البندقية وجنوه ومن أماكن أخرى كثيرة ، وهم يتاجرون فى التوابل والعقاقير والبضائع المختلفة كالمنسوجات والحرير والصوف وغير ذلك من السلع الثمينة ، ومن المتبع أن من يريدون السفر الى البلاد الداخلية فى الشرق أن يقصدون هذا الشجر » وعندما إستعاد المسلمون المدن الساحلية الصليبية ، تحولت التجارة إلى مدينة إياس وأصبحت ميناء هام وزاد نموها ، وأصبحت الميناء الرئيسى فى حوض البحر المتوسط للبضائع التى تأتى من أواسط آسيا ، ولكن أهميتها وثرواتها قد جعلها هدفاً رئيسياً لغارات القوات المملوكية .

لقد بدأت الغارات المملوكية على الأرمن فى عام ١٢٧٥م ، وكانت سريعة ومخرية وتقدمت حتى حصن كريكوس Carycus . وفى الوقت نفسه تقدمت عناصر التركمان ودخلت قيليقية من الغرب . ورغم مقاومتها فإنها تقدمت داخل الأراضى الأرمينية سنة بعد أخرى . وقد زاد قيام بعض الثورات داخل البلاد من صعوبة التعامل مع القوات المملوكية خاصة أنه فى تلك المرحلة لم يكن هناك مساعدات مغولية للمملكة أرمينية ، ولكن تقدم القوات المغولية الى سوريا فى عام ١٢٨١م كانت عاملاً خطيراً فى موازين القوى فى تلك النواحي منذ موت هولاكو ، لقد حارب الأرمن إلى جانب المغول . ولكن السلطان قلاوون نجح فى هزيمة القوات المغولية والأرمينية بعد أن نجح فى إيقاف الصليبيين موقف الحيات .

ووقعت أرمينية فريسة للسلب والنهب من قبل القوات المغولية

والمصرية والتركمانية فضلاً عن الأكراد ، وإشتعلت النار في مدينة أياس ، وسلبت المنازل وهجرها سكانها الكثيرون الذين هربوا إلى القلاع التي بنوها حديثاً بعيداً عن البحر ، ولم يكن أمام الملك ليون سوى إرسال السفراء إلى مصر لطلب السلام ، ولكن هؤلاء السفراء ظلوا سجناء حتى تدخل مقدم جماعة الداوية في هذا الأمر . وهناك عامل آخر ظهر في تلك المرحلة هو أن الخان المغولي أرغون كان متعاطفاً مع الصليبيين ، لذلك ذهب الملك الأرميني ليون إلى بلاط المغول ليقدّم فروض الولاء والطاعة ، وقد خشى قلاوون من تدخل المغول ، لذلك عقد هدنة مدتها عشر سنوات مع الصليبيين بدأت من شهر يونيو في ١٢٨٥ م ، وذلك مقابل جزية سنوية قيمتها مليون دينار مع منح مزايا كثيرة للمصريين . ولكن هذا السلام الذي عاد على المصريين بالفوائد المادية الكثيرة لم يستمر طويلاً .

وبعد سقوط عكا وطرابلس وتولى هيثوم الثاني حكم أرمينية (١٢٨٩ - ١٢٩٣ م) كانت القوات المملوكية في حمص ، وحاول هيثوم إبعاد خطر القوات المملوكية عن بلاده ، فقدم إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م مبلغاً كبيراً من المال ، وقد قبله السلطان حتى يستكمل غزو الأراضى التي كانت في حوزة الصليبيين . وفى ربيع عام ١٢٩٢م سارت القوات المملوكية حتى وصلت إلى مدينة هرومغلا (قلعة الروم) ، وقد قاومت القلعة لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً ، وفى النهاية تم إجتياعها بقوة السلاح .

فى الحادى عشر من مايو من العام نفسه ، وقد وقعت مذبحه رهيبه قتل فيها العديد ، كما أخذ الكثير أسرى ومنهم الجاثليق ستيفن الرابع Stephen IV نفسه ، وقد نهبت القوات المملوكية الكنائس ومقر إقامة الجاثليق وخربت وسلبت المخلفات المقدسة وكنوز الكنيسة ، واعتبر سقوط هرومغلا نصراً كبيراً ، وقد إستقبل السلطان فى دمشق إستقبالاً مشرفاً . وظلت الطبول تدق طوال الليل على أنوار الشموع .

ولم تدخل القوات المملوكية بلاد الأرمن على الفور ، وفى عام ١٢٩٣م تلقت القوات المملوكية الموجودة فى دمشق الأوامر للتقدم الى مدينة سيس sis . وعلى أثر ذلك تحرك الملك الأرمينى وأرسل السفراء ، وفى النهاية أجبر الأرمن على التخلي عن ماتبقى من قلاع على الحدود وهى بهسنى وتل حمدون وأن يضاعفوا الضريبة التى كان يدفعها الأرمن من قبل . مات الاشراف فى أواخر عام ١٢٩٣م ، واغتصب العرش السلطان كتبغا ، كما إجتاحت المجاعة والطاعون مصر والشام .

وقد أدى هذا كله إلى راحة الأرمن من الخطر المملوكى ، وان الملك هيثوم الذى كان قد تنازل عن العرش لأخيه ثوروس الثالث فى عام ١٢٩٢م قد عاد الى العرش مرة أخرى ولمدة عامين ، وقد وطد الروابط مع مملكة قبرص وهى المملكة الوحيدة المسيحية التى ظلت باقية بعد سقوط الإمارات الصليبية فى بلاد الشام ، وقد زوج أخته إيزابيلا الى عمورى أخ الملك هنرى الثانى ملك قبرص ، وحاول هيثوم أيضاً إحياء التحالف مع المغول ، وذهب لزيارة حفيد هولوكو الخان بايدو Baidn فى فارس (١٢٩٥م) ، وبينما كان هيثوم موجوداً فى مراغة إستطاع أن ينقذ من التخريب الكنيسة السريانية التى شيدها ريان سوما Rabban Souma وأن يحمى البطريرق النسطورى ماريا ياهبالاها Mar yabba hala الثالث .

وعندما إستولى غازان على السلطة من بايدو ذهب هيثوم إلى غازان وتلقى منه وعداً بحماية الكنائس المسيحية ، ويحتمل أنه تلقى منه وعداً بتحالف عسكري ، وعند عودة هيثوم الى مدينة سيس فى عام ١٢٩٥م رتب زواج أخته رستا Rita وميخائيل التاسع Mi-chaél IX (١٢٩٤ - ١٣٠٢م) ابن وشريك اندرونيق الثانى باليولوج Andronicus II Palalologus (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) فى العرش .

ومن أجل إقامة تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية ، إتجه الملك هيثوم بنفسه الى العاصمة البيزنطية وإصطحب معه ابنه ثوروس ، وخلال غيابة عن أرمينية قام أخية سمباد واستولى على السلطة عام ١٢٩٦م . وسانده فى ذلك الجاثليق جريجورى السابع والبابا بونيفاس الثامن فى روما .

تأثرت قبليقية كثيراً بالصراع الداخلى ، ولما عاد هيثوم الى بلاد سعى للحصول على تأييد المغول ، ولكنه لقى مقاومة من أخيه سمباد عند مدينه قيصرية وتم القبض عليه وسجنه مع أخيه ثوروس ، ثم شنقه بعد ذلك ، أما أخيه هيثوم فقد أصيب بضرر كبير فى بصره ، ولكن الاخ الاصغر قسطنطين نجح فى طرد سمباد من المملكة وأطلق سراح أخيه هيثوم ، ثم استولى قسطنطين على السلطة عام ١٢٩٨ م ، وبعد عام شفى هيثوم واستعاد السلطة للمرة الثالثة ونفى أخواه سمباد وقسطنطين إلى القسطنطينية حيث عاشا هناك .

كان ماحدث عاملاً مشجعاً للمماليك على غزو مملكة أرمينيا ، وساعد على ذلك ماأصاب الجانب المغولى من إنشغال بالأمر الداخلى . وفى عام ١٢٩٨ إجتاح المماليك مدينة أذنه والمصيصة واستولوا على احدى عشر قلعة من بينهم مرعش وتل حمدون ، وهى المدن التى سبق أن تخلى عنها الأرمن من قبل ثم إستعادوها . ورغم هذا كله كان هيثوم لايزال يطمع فى مساعدة المغول ، وقد بدا لبعض الوقت أنه يمكن إتمام هذا التحالف وهزيمة المماليك ، فلقد قاد الخان المغولى غازان حملة على الشام إشتراك فيها هيثوم بحوالى خمسة آلاف من رجاله ، وكان اللقاء عن مدينة حمص فى ديسمبر عام ١٢٩٩م ، ولكن غازان مالبت أن عاد بسرعة بعد أن دخلت القوات المملوكية بلاد الشام ، وكانت الحملة الثانية عام ١٣٠١م وكان للأحوال المناخية عاملاً كبيراً فى فشل هذه الحملة ، أما الحملة الثالثة فقد كانت فى عام ١٣٠٢ م وقد انتهت

بكارثة ، فقد غرق الكثير من القوات المغولية فى فيضان نهر الفرات
فإنسحب هيثوم مع القوات المغولية وذهب الى بلاط الخان غازان قبل أن
يعود الى بلاده .

أصبح الطريق مفتوحاً الى أرمينية مرة أمام القوات المملوكية ، وفى
عام ١٣٠٢ م قام أمير حلب بحملة سريعة فأحرق المحاصيل وإستولى على
الكثير من الأسلاب ، وفى عام ١٣٠٤م إستولى المماليك على مدينة تل
حمدون التى إستعسدها هيثوم بعد إنتصار المغول عام ١٢٩٩ . وعادت
القوات المملوكية فى عام ١٣٠٥ ، رغم مساعدة بعض القوات المغولية
التى كانت تقوم بجمع الجزية السنوية للقوات الأرمينية فقد تكبد الأرمن
خسائر فادحة ، وقد وقعت الهزيمة بعد وصول بعض القوات من مصر .
وقد عبر الرحالة مارينو سانودو Marino Sanudo عن الحالة السيئة التى
وصلت اليها بلاد الأرمن فى تلك الرحلة ، وكتب يقول لقد وقعت بلاد
الأرمن بين أنياب أربع وحوش وهم الأسد أو المغول الذين دفع لهم الأرمن
جزية كبيرة ، والنمر أو السلطان المملوكى الذى قام بعملية غزو يومية
للبلاد ، والذئب أو الترك الذى قضى على قوة الأرمن ، والرابع وهو الحية
أو القراصنة الذين نخرؤا فى عظام المسيحية فى أرمينيا ، وزادت هذه
المشاكل عندما تحول المغول الى الاسلام وبذلك فقد الأرمن الأمل فى أية
مساعدات مغولية .

وتنازل هيثوم عن العرش لابن عمه ليون الرابع (١٣٠١ - ١٣٠٧ م)
وسلك الرهبانية وتميز عهد ليون لاضطراب الداخلى . وكان لسياسة هيثوم
السابقة مع الباباوية دوراً كبيراً فى ذلك ، وكانت النهاية غير متوقعة
ووقعت فى ١٧ / ١١ / ١٣٠٧ م . فقد قام الأمير المغولى بلارغو Bilarghu
بقتل هيثوم والملك ليون ومعهم أربعين من الأرمن الذين كانوا معهم فى
مذبحة أعتبرت خيانه للأمن .

القبيلة الذهبية قوبيزنطة

تعتبر القبيلة الذهبية Golden horde الجزء الغربى من إمبراطورية المغول ، وقد تمتعت منذ قيامها بطابع إستقلالى اكثر من أى جزء آخر بين أقسام امبراطورية المغول . ويرجع ذلك الى الوضع الاستثنائى الذى تمتع به الزعيم باطو . وكان للحاكم الأول وهو باطو والحاكم الثانى وهو سارتاق وضع خاص فى امبراطورية المغول . ويتضح ذلك مما ذكره وليم روبروك سفير الملك الفرنسى لويس التاسع الى المغول ، فقد وضع وليم روبروك كلا من الخان مونكو وهو خان المغول الأعظم فى منغوليا على قدم المساواة مع باطوخان القبيلة الزرقاء (فرع من القبيلة الذهبية) ، وذكر أنهما عينان فى رأس واحد ، ورغم أنهما اثنان ، إلا ان لهما رؤية واحدة .

وتحت قيادة برکه (١٢٥٧ - ١٢٦٦ م) أصبحت القبيلة الذهبية أكثر استقلالاً ، ولعل ذلك مرجعه الى ان قو بيلاي الخان الاعظم فى منغوليا لم يكن له إتصال كبير مع القبيلة الذهبية البعيده الاقليم .

أما الاتصالات بين الخان الأعظم قوبيلاي وخانات فارس فقد كانت أكثر اتصلاً . ولم يكن ذلك لقرب المسافة بين منغوليا وايران ولكن بفضل الاتصال البحرى بين الصين وفارس ايضاً ، رغم ان هذا الطريق بطئ ومشحون بالمخاطر . ولقد كان هذا الطريق مناسباً تماماً للاميرة المغولية كوكاشين Kokachin الذى اتخذته فى طريقها للزواج من الخان أرغون فى فارس (ت ١٢٨٤ م) ولكن قدرها جعلها تتزوج من ابنه غازان (ت ١٢٩٥ م) وهى الاميرة التى صاحبت الرحالة ماركوبولو فى رحلته .

وإذا كان هناك اتصال قوى بين المغول فى فارس وبين منغوليا فان المغول الروس تحت قيادة الخان برکه ، لم يتمكنوا من العمل على زيادة

استقلالهم . ، ولكنهم قد تمكنوا من التقدم الى المناطق الحضرية التى فصلتهم عن جنسهم الاصلى ، وكان السكان الذين عاشوا تحت قيادة القبيلة الذهبية خليطاً اجتماعياً ولغوياً ودينياً .

لقد كان هناك ما يعرف بسكان الغابات وهم عناصر - Finno Ugrians ، كما اسس المغول المنتصرون ما يعرف جغرافياً بأسم اوراسيا . وغالبيتهم من عناصر سلجوقية تركية ، وكانت مسيحية ثم إسلامية .

وفى الجنوب تقابل المغول مع الاتراك الذين عرفو باسم القفجاق (كومان بولفرتى) (Kumans,Polovtsy) أما فى الشمال البعيد فإن المغول قد وضعو نهاية للامبراطورية البلغارية على نهر الفولجا ، وهى دولة تركية كان لها صلات تجارية مع بغداد ومصر منذ مائة عام . وقد ظلت هذه المناطق وطوال ضم المغول لها الاقاليم التى امدت الامبراطورية البيزنطية والدولة الايوبية بالرجال ، ولقد كان للماليك القفجاق أهمية فى عهد السلطان الصالح أيوب خاصة عندما عهد اليهم ليكونوا حرسه الخاص . لقد استخدم كثير من الاتراك القفجاق إصطلاحات جديدة بتأثير الغزو المغولى .

لقد تفهم القفجاق المغول رغم انهم اعداء ، وبعد عام ١٢٥٠ م وبعد قيام الدولة المملوكية ، فإن بعض الاتراك القفجاق هم الذين تولوا السلطة فى مصر والشام وفى جنوب روسيا ، وقد كانوا يفوقون المغول عدداً . وهناك حقيقه هامه وهى أن الممالك فى مصر ومغول القبيلة الذهبية كانوا حلفاء طبيعيين وذلك بسبب التقاليد التاريخيه التى تعود إلى أيام إمبراطورية بلغار الفولجا ، وبسبب الارتباط العرقى بين القبيلة الذهبية وبين حكام مصر من سلاطين الممالك .

ان اللهجه التى تكلم بها الممالك كانت نفس اللهجه التى تكلم بها معظم الاتراك الذين كانوا يتبعون الخان بركة ، وحتى هذا الوقت فإن الاتراك الذين يسكنون فى منتصف منطقه الفولجا يتكلمون اللغة

التركية القفجاقية . إن كراهية المماليك للمغول لم تنعكس على القبيلة الذهبية ولكن هذه الكراهية إنصبحت على مغول فارس ، وفى الوقت نفسه كان التوتر قد ساد بين المغول فى ايران والمغول فى روسيا . لقد كان للعداء الذى ساد بين القبيلة الذهبية والمغول فى فارس أثراً كبيراً على الاحداث التى وقعت فى آسيا الصغرى وعلى الامارات الصليبية ، ولعله ليس من الضرورى أن ندرس على هذه الصفحات أسبابها بل نكتفى بنتائجها .

ان تحويل بركة خان المغول فى جنوب روسيا وغرب سيبيريا وهم مغول القبيلة الزرقاء للإسلام كان بدافع شخصى منه . وظلت مواقفه واضحة ضد المغول الآخرين لانزالهم الاضطهاد باصحاب الديانات الاخرى غير المغولية . كما أن بركة خان لم يمارس أى ضغط على اتباعه لاعتناق الديانة الاسلامية . ولقد كان مخلصاً للإسلام . كارهاً للحملات التى تولى قيادتها ابن عمه هولاكو ضد المسلمين والتى اجتاحتها فيها بغداد وقضوا على الخلافة العباسية ١٢٥٨ م . لقد اعترض بركة على هذه التصرفات المغولية وطلب من قواته أن ينضموا الى الجيش المملوكى . وربما يكون ذلك سليماً ومقبولاً رغم صمت الوثائق التاريخية ، وأن بعض الكتابات المغولية التابعة للخان بركة قد أتت بموافقة لتحارب فى معركة عين جالوت قوات الخان المغولى كتيبغا . إن الصراع بين خلفاء باطو زعيم القبيلة الذهبية (١٢٢٧ - ١٢٥٥ م) واليخانات فارس لم يكن بسبب الخلاف الدينى ، لأن هذا الصراع ظل فى تزايد مستمر فى عهد مانكو تيمور Mangu Timur (توفى ١٢٨٠ م) الذى خلف الخان بركة على عرش القبيلة الزرقاء ، ولم يكن مانكو تيمور هذا مسلماً ، وواقع الأمر أن الاعتناق النهائى للإسلام من خانات القبيلة الذهبية كان أيام حكم جاني بك Jani Beg (١٣٤٢ - ١٣٥٧ م) ، وذلك بعد أن تحول خانات فارس إلى الاسلام .

ومن المعروف فى التاريخ أن الذاتيه والشخصيه تلعب دوراً كبيراً ، لقد كان هولاكو أول خانات فارس ، وكان الإثنان من خلفاء المغول على منغوليا هما مونكو (ت ١٢٦٠م) وقويلاى (ت ١٢٩٣م) وكان بركه ابن عمها ، لقد كانت العلاقة بين هولاكو ومونكو حميمة للغاية . ولقد سجل المؤرخ رشيد الدين حزن هولاكو الشديد على مانكو عند وفاته ، فى الوقت الذى كانت فيه العلاقات سيئة مع بركة ولعل الترابط بين هولاكو ومونكو كان يرجع إلى عوامل شخصية ، ويوضح ذلك أن العامل الرئيسى فى القرار الخاص بتخلي مونكو عن منطقة القوقاز إلى هولاكو يرجع الى هذا العامل .

وإن محاولات هولاكو للقضاء على بركه كان يرجع الى حقوق هولاكو الاقطاعية فى الحكم ومحاولاته ليدفع به الى جنوب القوقاز قد باءت بالفشل . وأن التباين الذى فصل القبيلة الذهبية عن عالم المغول قد زاد بعد موت مونكو .

ولم يتوقف الصراع بعد موت هولاكو فى عام ١٢٦٥ م أو بعد موت بركه فى عام ١٢٦٦ م ، فلقد ظل الصراع قائماً بين أبغا Abagha خان فارس وبين مانكو تيمور (قبيلة زرقاء) ، وكان الذى بدأ هذا الصراع حكام القبيلة الذهبية ، لأنه من أجل حماية حدود القوقاز ، اضطر أبغا لاقامة نظام تحصينات تتكون من سور وخنق على طول كورا Kura ، وفى ذلك إدماج لمنطقة إستبس موغان Mughan ، وهو المكان المفضل لإستراحة الطيور المهاجرة التى لعبت دوراً كبيراً فى الوضع الدفاعى - كانذار - لخانات منغوليا لأنه بتحرك العدو فى أرض الأستبس فإن تحليق هذه الطيور فى السماء يقدم التحذير الكافى لهذه التحركات . لقد كانت الاهتمامات السياسية للقبيلة الذهبية من جانب والخانات الآخرين من جانب آخر ، كانت متعارضة. ولقد بحث كل طرف منها على حليف يفوق الجانب الآخر ، ولذلك تطلع مغول منغوليا الى التحالف مع خانات

فارس ، والشئ ذاته فعله بركة خان القبيلة الذهبية كما فعله مانكو تيمور وذلك بتحالف بركة وابنه مانكو تيمور مع كيوك خان منغوليا (١٢٤٦ - ١٢٤٩ م) ابن أوكيتاي ، لقد أسرع كيوك الى القائد المغولى إريك بوجى Arig Boge لنجدته أو للتفاهم معه أو للقيام بعمل مشترك ، ولكنه بعد موافقة قوبيلاي ، فقد وقف بجانبه وتولى أمر الاراضى التى تتوسط وادى إيتي وشو Iti and chu وأدمجها فى الجزء الشمالى الذى يعرف حالياً باسم أفغانستان .

وهكذا أصبح مغول فارس محاطين بسلسلة من الحلفاء تفصل بين الممالك والقبيلة الذهبية ومغول منغوليا . وكانت السفارات المتبادلة بين الممالك والقبيلة الذهبية متعددة ، وكانت العوامل الجغرافية مثل العوامل السياسية فقد كان هناك محوراً بين سكان ضفاف نهر النيل وسكان نهر الفولجا .

ولم يكن من الطبيعى أن تتجنب بيزنطة الارتباط بمثلث العلاقة بين الممالك ودولتى المغول الأخرتين ولقد لفت هذا نظر الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجس الذى تولى أمر العرش البيزنطى ويادر بالاتصال بالمغول . وقد إستغل ميخائيل العداوة القائمة بين الفروع المغولية ، حتى أن كل طرف من أطراف المغول سارع بمساعدة الإمبراطورية، فقد كان كل طرف يود أن يرى نفوذه يزداد داخل الإمبراطورية البيزنطية ، وبالنسبة للعلاقات مع مغول فارس فإن ميخائيل باليولوج قد اضطر لمصاهرتهم ليأمن جانبهم ، وحتى قبل أن يستعيد ميخائيل الإمبراطورية وأثناء إقامته فى المنفى فى مدينة نيقية ، فقد عقد حلفاً مع هولاكو أقوى شخصية بعد جنكيز خان ، وخطبت ابنة غير شرعية للإمبراطور الى هولاكو ، وبعد موت هولاكو تزوجت من إبغا ابنه وخليفته .

إن زيادة الصراع بين بيزنطة والقبيلة الذهبية كان نتيجة طبيعية لعلاقات الصداقة مع خانات منغوليا . وفى عام ١٢٥٦ تقدم الخان بركة وحلفاؤه البلغار وهاجموا الحدود الشمالية البيزنطية ، وكانت القوات المغولية تحت قيادة الامير المغولى نوجاي Noghay (ت حوالى ١٢٩٩) ، وقد ظل نوجاي لعدة سنوات الحاكم الفعلى للأقاليم الروسية الجنوبية ومنطقة الحدود مع بيزنطة . وفى حوالى ١٢٧٣ م تزوج من يوفروسين Euphrosyne وهى ابنة غير شرعية للإمبراطور ميخائيل باليولوجس ، وعلى ذلك يكون الامبراطور البيزنطى قد ارتبط بالمصاهرة مع ايلخانات فارس ، ومع خانات القبيلة الذهبية ، وبهذه المهارة الدبلوماسية أمنت الامبراطورية البيزنطية شر خطر المناقسة المغولية . ومع ذلك فإنه فى نهاية عهد الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس ، فإنه نجح فى اقرار العلاقات الودية مع السلطان المملوكى قلاوون . وإن الطريق البحرى عبر البسفور قد ربط بين القبيلة الذهبية ومصر ، كان نتيجة ذلك تدفق التجارة عبر الاراضى البيزنطية ، ومزیداً من الاتصالات الدبلوماسية بين المماليك والقبيلة الذهبية .

الفصل الخامس المغول وأوربا بعد عين جالوت

- سفارات أرغون إلى أوربا

أ - سفارة رابان سوما ١٢٨٧م

ب - سفارة بوسكال أف جيزولف ١٢٨٩م

ج - سفارة اندرو وسهادين ١٢٩٠م

- سفارات عازان إلى أوربا

أ - سفارة جيوسكارد باستارى ١٣٠٠م

- سفارات اولجايتو إلى أوربا

- نشاط البعثات التبشيرية .

- فكرة الحصار الاقتصادي لدولة المماليك .

كان موقف الصليبيين فى بلاد الشام بعد عام ١٢٦٠ فى غاية
السوء خاصة بعد هزيمة المغول فى عين جالوت ، لذلك بدأ الغرب الأوربى
يبحث مرة أخرى عن مساعدات خارجية ، وكان إيفغا خان المغول فى فارس
١٢٦٥ - ١٩٨٢ م ، صهر الامبراطور ميخائيل ، معروف بميوله
للمسيحية وبذلك أصبح ابغا هدفاً واضحاً للإقتراحات السياسية . وقد
شارك البابا كلمنت الرابع أفكار الملك الأراغونى جيمس الأول James I
(١٢١٣ - ١٢٦٧ م) فى الاعداد لحملة صليبية ومحالفة المغول .
وقد ذهب سفيرهما جيمس أالريك أف بريجنان James Alaric of perpig-
nan الى الخان المغولى فى فارس وقد إستقبل استقبالاً رائعاً فى البلاط
المغولى عند أبغا ، لعل ذلك حدث عام ١٢٦٧ ، وقد عاد الى الغرب
يصاحبه إثنان من سفراء المغول . ودام الاتصال بين البابا كلمنت الرابع
وأبغا بصورة مستمرة ، وفى احدى الخطابات التى أرسلها البابا الى الخان
المغولى ، إشتكى البابا من أنه تسلم خطاباً من أبغا يصعب على أى
فرد أن يقرأه ، وقد أبدى البابا أسفه إن الخان أيضاً لم يكتب له باللغة
اللاتينية كما سبق فى مناسبات أخرى ، وهناك رسالة ودية أرسلها
إبغا فى ١٢٦٧ م ، أو ربما عام ١٢٧٩ خاصة بالسفراء الذين قدموا إلى
البابا وهذه الرسالة محفوظة فى إرشيف الفاتيكان .

وظل ابغا على الاتصال بعدد من القادة الأوربيين ، وقد اسفرت هذه
الاتصالات عن مشروع تعاون عسكري بين المغول وأوربا ، ولكن هذا كله
لم يصل الى نتائج ملموسة . ففى أول سبتمبر من عام ١٢٦٩م أبحر من
مدينة برشلونه جيمس الأول ملك إراغون بأسطول قوى لإتقاذ الممتلكات
الصليبية فى بلاد الشام ، ولكن عاصفة قوية منعت الأسطول من مواصلة

الرحلة ، واضطر الملك والجزء الأكبر من الاسطول إلى العودة إلى بلاده ، ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير يقوده ولدان غير شرعيين للملك ، وقد وصل الأسطول إلى عكا في نهاية ديسمبر من العام نفسه ، وقد فشلت الحملة في إنجاز تحالف مع أبغا الذي كان مشغولاً في تلك المرحلة بالدفاع عن اقليم خراسان ضد الأمير بركه .

وفي الوقت الذي خطط فيه لويس التاسع للقيام بحملة على تونس عام ١٢٧٠م كان أبغا راغباً ومستعداً لمهاجمة السلطان المملوكي بيبرس ، وكان مثل هذا التعاون بين المشرق والغرب قد خطط له البابا كلمنت الرابع ، وبدا من ذلك أنه يمكن إصلاح موازين القوى التي بدت لصالح المماليك ، ولكن فشل حملة لويس التاسع عوقت الامكانيات التي بدت من التحالف مع المغول في فارس ، لأن لويس فضل القيام بحملته على تونس حيث مات هناك .

وكان إدوارد ملك إنجلترا أكثر وضوحاً في تعامله مع المغول ، وبعد أن رسا بحملته في التاسع من مايو ١٢٧١م في ميناء ، عكا ، عمل على الحصول على مساعدة أبغا ، وأرسل سفارة من ثلاثة أعضاء لمناقشة شروط التعاون ، وكان نتيجة هذه المناقشات قيام جيش مغولي بلغ عدده حوالي عشرة آلاف فارس وعسكروا في آسيا الصغرى وغزا سوريا . وقد أحرزت هذه القوات بعض النجاح ، ولكن القوات المغولية انسحبت قبل أن تشتبك مع الجيش المملوكي الرئيسي .

ورغم هذه الأهمية المحدودة للتحالف المغولي الإنجليزي باعتباره أول تحالف بين المغول والغرب ، وبالرغم أيضاً من النجاح الظاهري المحدود لهذا التعاون ، فإن أبغا رأى أن يقوى من هذا التعاون الإنجليزي ، أما بالنسبة للملك إدوارد الذي عاد إلى بلاده ليتولى عرش إنجلترا ، فإنه لم

ينس أماله فى التحالف مع إبغا ومع خليفته أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١م) ، وكلف أحد فرسان الاستبارة الإنجليزى ويدعى جوزيف أف كانسى Joseph of Cancy ، بامداده بالتقارير اللازمه حول المغول وأحوال الأرض المقدسة .

سفارات أرغون إلى أوربا

ويتميز عهد الخان أرغون بقمة العلاقات بين المغول والغرب الأوربى ومن الأهمية أن نلاحظ أن البوذى أرغون وتحت حكمه البوذى أعلن أن الديانة الرسمية فى دولة مغول فارس لا يمكن أن تقيم علاقة صداقة مع الأمراء المسيحيين كما كانت عليه فى عهد أسلافه أنصاف المسيحيين .

وأرسل أرغون أول سفارة له إلى الغرب كانت إلى البابا هونوريوس فى عام ١٢٨٥م ، وحملت هذه السفاره خطاباً أرخ فى مايو فى العام نفسه لايزال موجوداً بلغته اللاتينية ، وفى هذا الخطاب يشير أرغون إلى المزايا الخاصة التى تلائم المسيحية وتلائمه ،

وأرسل أرغون أول سفارة له إلى الغرب وكانت إلى البابا هونوريوس فى عام ١٢٨٥م ، وحملت هذه السفار خطاباً أرخ فى مايو فى العام نفسه لايزال موجوداً بلغته اللاتينية ، وفى هذا الخطاب يشير أرغون إلى المزايا الخاصة التى تلائم المسيحية وتلائمه ، ومع إشارة خاصة إلى سلفه أحمد تكودار الذى إعتنق الديانة الاسلامية (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م) والذى فقد عرشه بسبب ذلك ، وتولى أرغون من بعده . وأن الشقه فى رسالة الاليخان أرغون قد أيدها بعض الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان الذين عادوا من بلاد الشام . والمهم أن فى هذه الرسالة أو فيما تلاها من رسائل مع الغرب الأوربى ما يشير إلى تحول أرغون عن الديانة البوذية . وإن كان البابا فى أحد خطاباته قد نصح أرغون بالدخول فى الديانة المسيحية ،

وكان البابا نفسه يعول كثيراً على هذا الأمل ، ولكن أرغون خيب أمل البابا فى هذا الجانب . وفى هذا الخطاب المؤرخ فى ١٤مايو ١٢٩٠ م إلى البابا نيقولا الرابع يقول أرغون فيه أنه ليس فى حاجة الى إعتناق المسيحية . وفى نفس الخطاب يشير أيضاً الى أن رعاياه لهم الحق فى إختيار الدين الذى يلائمهم .

سفارة رابان سوما ١٢٨٧م

مات أبغا فى أوائل شهر ابريل عام ١٢٨٢ م وخلفه على حكم المغول فى فارس أخوه تكودار Tekuder . ويعرف فى المصادر العربية باسم بيكودار ، وقد تنصر تكودار هذا فى طفولته واتخذ اسم نيقولا ، ولكنه كان يميل الى الدين الاسلامى ، وما أن تولى العرش (١٢٨٢ - ١٢٨٤م) حتى إعتنق الدين الاسلامى واتخذ اسم أحمد ، ومع اعتناقه الديانة الاسلامية حدث تحول خطير فى السياسة المغولية ، ولكن هذا التحول كان وقتياً لم يستمر طويلاً . وقد أرسل السلطان المغولى أحمد رسالة الى السلطان قلاوون فى مصر يطلب فيها عقد معاهدة صداقة مع السلطان .

والحقيقة أن سياسة السلطان أحمد أزعجت المغول فكتبوا بذلك الى الخان الأعظم قوبيلاي فى منغوليا (١٢٦٠ - ١٢٩٤م) ، فانزعج الخان وقامت ثورة بقيادة أرغون بن ابغا بمساندة من الخان الأعظم ، ولكن الخان أحمد الحق الهزيمة بابن أخيه أرغون فى بداية الأمر ، ولكن القادة الذين ساندوا الخان أحمد فى بداية الأمر تخلوا عنه فلقى مصرعه إثر مؤامرة دبرها القصر فى العاشر من اغسطس ١٢٨٤م ، وتولى ارغون عرش المغول فى فارس (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) وكان وزير أرغون سعد الدولة وهو يهودى الديانة ،

وحاول أرغون فى محاولة شجاعة أن يقيم تحالفاً مع حكام الغرب الأوربى لذلك أرسل الراهب النسطورى رابان سوما (Rabban mar sauma) (ت ١٢٩٤م) فى سفارة الى الغرب ، وقد علق عليها الخان أرغون أهمية كبيرة جداً . وكان رابان سوما مواطن صينى ولكنه تركى الأصل (من قبائل الإيجور Uighur) ، وقد أصبح ربان سوما سفيراً متجولاً للكنيسة النسطورية فى المقاطعات المغولية ، وكان يرتبط مع حكام المغول بعلاقات طيبة ، وقد إختاره أرغون للقيام بهذه المهمة التى كان يصلح لها تماماً .

بدأ رابان سوما رحلته فى أوائل عام ١٢٨٧ فوصل مدينة طرابيزون على الساحل الشمالى للبحر الأسود ، ومنها إتجه بحراً الى العاصمة البيزنطية القسطنطينية فوصلها فى أوئل شهر ابريل من العام نفسه ، وقد إستقبله الامبراطور البيزنطى أندرونيقوس الثانى (Andronicus) (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) إستقبلاً حاراً ، وأثناء إقامته فى العاصمة البيزنطية زار كنيسة آيا صوفيا وبعض المشاهد الدينية الأخرى . ويرجع ذلك الى أن الامبراطور كان على علاقات طيبة مع المغول فى فارس وكذلك مع مغول القبيلة الذهبية . لذلك عرض الامبراطور على ربان سوما أن يبذل أقصى ما فى وسعه للمساعدة رغم إمكاناته الضئيلة .

إتجه رابان سوما الى مدينة نابلى فى جنوب إيطاليا فوصلها فى أواخر شهر يونيه ، وأثناء وجوده فى نابلى شاهد معركة بحرية بين أسطول نابلى واسطول مملكة أرغون وذلك بسبب الصراع على حكم جزيرة صقلية ، بعد وقوع المذبحة الشهيرة باسم المذبحة الصقلية ، التى وقعت فى أواخر مارس ١٢٨٢م ، فأدرك ان الغرب الأوربى مشغول بخلافاته ، وأن الخصومه تسود ممالك أوربا بعد ماتعرف على أبعاد هذه المذبحة .

إتجه رابان سوما من نابلى إلى روما ، وتبين له أن البابا هونوريوس

الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧ م) قد مات فى الثالث من أبريل من العام نفسه ، ولم يوفق الكرادلة فى روما فى اختيار خلفاً له وذلك حتى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٢٨٨ م . وعلى أية حال فقد إستقبله الكرادلة المقيمون فى روما ، وخلال إقامته دار جدل كبير حول الديانة المسيحية ، وقد علم أن الكرادلة لا يعلمون شيئاً عن انتشار الديانة المسيحية بين المغول ، كما أن هؤلاء الكرادلة قد تعجبوا لكونه يعمل فى خدمة حاكم وثنى ، وتطرق الأمر الى الحديث عن المذهب النسطورى ، وهو ما أزعج السفير رابان سوما واعتقد انه يضيع وقته فى هذا الجدل الدينى ، وأن الأخرى به وبالكرادلة أن يناقشوا الأمور السياسية الهام . وبعد أن أدى الشعائر الدينية فى الكنائس الرئيسية بمدينة روما غادر المدينة واتجه الى تسكانسى Tuscany ، ومنها وصل الى مدينة جنوة حيث إستقبله أهل المدينة باحتفال كبير بعد أن عملوا بالمهمة التى قدم من أجلها وهى تحالف المغول مع الغرب الأوربى ، من أجل القضاء على الدولة المملوكية ، وما يترتب على ذلك من نتائج تجارية ، وهو الأمر الذى كان يهتم أهل جنوة .

ومن جنوة إتجه الى مدينة باريس فوصلها فى أوائل شهر سبتمبر ، وكان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت الملك الشاب فيليب الرابع الجميل ، وقد أعد الملك حرساً خاصاً ليرافق رابان سوما منذ وصوله الى العاصمة حتى القصر الملكى ، وقد تم إستقبال المبعوث المغولى إستقبالاً رائعاً حتى وصل الى حضرة الملك الذى نهضه من كرسيه ليستقبله ، فسر رابان سوما بذلك كثيراً .

وقد استمع الملك الفرنسى الى السفير ووعده بأن يتولى بنفسه قيادة حملة صليبية لتخليص الاراضى المقدسة من أيدي المسلمين ، وخلال وجود رابان سوما فى باريس طاف بأنحاءها وشاهد جامعتها التى كانت فى ذروة مجدها فى تلك المرحلة .

كما زار كنيسة سانت شابل Saint chapel ، وشاهد المخلفات المقدسة التي إشتراها القديس لويس من القسطنطينية ، ولما حان موعد رحيل رابان سوما لمقابلة ملك إنجلترا ، عين الملك فيليب سفيراً من عنده هوجوبرت أف هلفى Gobert of Helleville ليكون في رفقته عند عودته الى بلاط الخان أرغون ، ليعود ومعه تفاصيل التحالف مع المغول دون أن يدخل في أية تفاصيل أو تحديد موعد معين لبداية العمليات العسكرية ضد المالك .

كان ملك إنجلترا إدوارد الأول مقيماً في تلك المرحلة في مدينة بوردو وهي مدينة فرنسية تقع الى الغرب على شاطئ المحيط ، وكانت في تلك المرحلة من أملاك ملك إنجلترا ، والمعروف أن الملك إدوارد حضر الى الأراضي المقدسة في عام ١٢٧١م على رأس حملة صليبية عندما كان أميراً ، وكان من أشد المتحمسين للحركة الصليبية والتحالف مع المغول لمواجهة القوات المملوكية .

إستقبل الملك الإنجليزي السفير رابان سوما ورفاقه بكل ترحاب وعاملهم بما يقتضيه كرم الضيافة ، وقد إستجاب الملك إدوارد لمقترحات السفير المغولي ، ولكنها كانت إستجابة ظاهرية ، وقد كان للملك خبرة في هذا الجانب ، ولم يكن له أمل كبير في تحالف الغرب الأوربي مع المغولي ، كما أنه كان لا يأمل في مشروع حملة صليبية جديدة ضد المسلمين . وعلى أية حال فقد طرح رابان سوما فكرة إعداد جدول زمني من أجل تنفيذ هذا التحالف ، ولم يتمكن الملك الإنجليزي مثل الملك الفرنسي أن يحدد موعداً محدداً للقيام بحملة صليبية .

رحل رابان سوما خالي الوفاض من مدينة بوردو مثلما رحل من قبل من باريس واتجه الى مدينة جنوة في طريقه الى روما . وقد وصل رابان سوما الى مدينة جنوة في أواخر عام ١٢٨٧م حيث التقى فيها المندوب البابوي الكاردينال يوحنا توسكلوم JohnTusculum ، وقد أبلغ يوحنا

السفير المغولى بأن لديه معلومات عن إستعدادات المماليك لإعداد حملة عسكرية للقضاء على البقية الباقية من الإمارات الصليبية، وأن حكام الغرب الأوربي مشغولون بالصراعات فيما بينهم وبأمورهم الشخصية عن الاستعداد لمواجهة مثل هذا الخطر ، وقضى رابان سوما فى جنوة شتاء عام ١٢٨٧م - ١٢٨٨م) وأدرك أن أهل جنوة يفضلون العمل التجارى والدبلوماسية مع مغول فارس . وفى الحقيقة لقد كان هناك العديد من أهل جنوة فى خدمة خان فارس ، كما كان فى حاشية رابان سوما نفسه أحد الجنويين وهو توماس أنفوسى Thomas Anfossi وهو عضو بارزا فى عائلة جنوية كلها من رجال الأعمال .

ومن جنوة توجه رابان سوما إلى روما ، حيث تم فى العشرين من فبراير ١٢٨٨م إختيار الكاردينال جيروم Jerome وهو لمباردى الأصل لأعتلاء عرش البابا فى روما واتخذ اسم نيقولاس الرابع ، وكان من أوائل أعمال البابا أنه استقبل رابان سوما ، وتمت المقابلة فى جو من المودة ، ولكن البابا لم يقدم للسفير المغولى مايشير الى العمل على إرسال حملة صليبية الى الشرق . وغادر رابان سوما روما ومعه حاشيته فى ربيع عام ١٢٨٨م بعد أن سمع من الحديث مالا يقنعه ، بعد أن طاف بالمدينة وزار مشاهداها . وقد حمل من الهدايا الكثير وبعض المخلفات الدينية التى أهداها البابا للخان أرغون ، وبعض الرسائل التى لاتخدم قضية التحالف المغولى الأوربي ، وبعد ما أدرك أن لدى حكام أوربا مايشغلهم عن القضية الصليبية .

وفى ربيع عام ١٢٨٨م إتخذ رابان سوما طريق العودة الى الخان أرغون ومعه العديد من الرسائل الباباوية ومعه بعض الايطاليين والفرنسيين ، وكان فى حاشيته جويرت أف هلفى سفير الملك الفرنسى فيليب الرابع الى الخان أرغون ، وكان معه أيضاً من رجال الدين روبرت اف سنلس Senlis Robert of ووليم اف برويرس Broyeres. William of ، ومع هذه

السفارة كان الأمل فى إقامة تحالف مغولى أوربى خاصة أنه حوالى ذلك الوقت كان هناك العديد من الجاليات الأوربية تعيش فى مدينة تبريز . وقد إشتغلت هذه الجاليات بالتجارة خاصة مع البندقية وجنوة ، ومع هذه الجاليات كانت البعثات التبشيرية من جماعات الفرنسيسكان والدومنيكان . وكان الأمل فى هذه الجاليات والبعثات التبشيرية إقامة جسور الصداقة بين الغرب والمغول فى فارس ، وظهرت بعض الأسماء الأوربية فى السفارات التى ذهبت الى أوربا من بلاط الخان وإليه . ومن خلال هؤلاء السفراء ظهر خلط فيما أنجزوه . وظهر فى الوثائق بعض الأسماء التى تولت أمر بعض السفارات ، ولكن هذه الأسماء لم تذهب فى سفارة ما ، وما كتب لا يعدوا أن يكون ترشيحاً أو فكرة لم تنفذ ، وبذلك اخترعوا من الاحداث أو شوهوها ، ويتضح ذلك من أحد الخطابات التى أرسلها البابا نيقولا الرابع الى أرغون وهى مؤرخة فى الثانى من ابريل عام ١٢٨٨ م ، وفى هذه الرسالة ما يفيد ان البابا إعتقد أن أرغون سوف يعتنق المسيحية فى مدينة القدس عندما يستولى عليها الصليبيون من المسلمين .

ومع عودة رابان سوما الى الخان أرغون خاب أمل الأخير فى الغرب الأوربى ، ولم يصدق النتائج التى عاد بها رابان سوما ، واقتنع الخان أن ما يظهره الغرب الأوربى من التعلق بالاراضى المقدسة لا يتعدى القول لالفعال ، خاصة أن المبعوث الفرنسى جوبرت أف هلفى لم يكن بوسعه أن يفسر أو يقدم شيئاً للخان أرغون .

سفارة بوسكال أف جيزولف

لم ييأس الخان من هذه النتائج ، وأعد سفيراً آخر فى شهر ابريل ١٢٨٩م للتوجه الى ملك فرنسا فيليب الرابع ، كان هذا السفير جينيوى الأصل أقام فى بلاد فارس لمدة طويلة ، ويبدو أنه أحد الرهبان أو رجال الأعمال ، ويعرف هذا السفير بإسم بوسكارل أوف جيزولف of Gisolf Buscarel . وقد حمل هذا السفير رسائل الى الملك الفرنسى فيليب

الرابع، والى الملك الأنجليزى ادوارد الأول والى البابا نيقولا الرابع .

وفى الرسالة التى كتبها أرغون الى ملك فرنسا والتى لازالت محفوظة فى دار المحفوظات الوطنية فى باريس وقد كتبت باللغة المغولية يقدم فيها أرغون عرضاً مؤكداً بضرورة الاشتراك بحملة عسكرية مع ملك فرنسا ضد المماليك يكون موعدها عام ١٢٩٠ م ، وأنه سوف يتجه الى مدينة دمشق لفتحها فى مطلع ربيع هذه العام ، وطلب أرغون من الملك الفرنسى أن يرسل اليه قواته فى الوقت المناسب ، وإذا نجحت الحملة المغولية الفرنسية فى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، فسوف تصبح المدينة من أملاك الملك الفرنسى . وهناك إضافة إلى الرسالة الموجهة الى الملك فيليب لعل بوسكارل قد أضافها ، تفيد أن خان المغول أرغون سوف يتكفل بامداد الملك الفرنسى بحوالى عشرين أو ثلاثين الف فارس دون مقابل أو بثمن معقول ، والمهم هنا أن رد الملك الفرنسى فيليب غير معروف لدينا وسوف توضح السطور التالية ما يمكن أن يكون عليه رد الملك الفرنسى.

اتجه المبعوث المغولى بوسكارل الى الملك الإنجليزى إدوارد فى لندن فوصلها فى الخامس من يناير عام ١٢٩٠ م . وقد قضى المبعوث فى البلاط الإنجليزى حوالى إسبوعين وحوالى اسبوعاً خارج البلاط حيث عومل معاملة طيبة ، والواقع أن الرسالة التى أرسلت الى ملك إنجلترا قد فقدت أما الرد على هذا الخطاب ، فيتلخص فى أن الملك إدوارد يرغب فى اللحاق بالحملة المغولية ، ولكن هذا الأمر يتعلق بالبابا نفسه.

ومن الصعب أن نقرر عما إذا كان المبعوث المغولى قد عاد الى أرغون أو أنه أطل مدته إقامته فى الغرب ، فمن الواضح أن هناك إشارات الى وجوده فى أيطاليا فى أواخر عام ١٢٩٠ م ، فقد ورد اسمه فى بعض الرسائل الباباوية يوصى فيها البابا الملك إدوارد الإنجليزى بمبعوث الخان أرغون .

سفارة أندرو وسهادين ١٢٩٠ م

عاد بوسكال بإجابات لاتبشر بخير ، ولعل ذلك مرجعه الى إنشغال الملك الفرنسى بأمره الداخلية وإنشغال الملك الأنجليزى بأمر أسكتلندا وويلز ، وتأثر مركز الباباوية بنتائج المذبحة الصقلية التى وقعت فى أواخر مارس ١٢٨٢ م .

ورغم هذا كله فإن الخان المغولى لم ييأس ، وأرسل سفارة جديدة على رأسها أثنان من المسحيين المغول هما أندرو زاكان Andrew Zagan وسهادين Sahadin . وقد توجه المبعوثان فى أول الأمر الى البابا فى روما حيث إستقبلهم إستقبالا طيباً ، وقد حملهم البابا الرسائل اللازمه الى الملك الإنجليزى إدوارد الذى إعتبره البابا أشد حماساً واهتماماً بالأراضى المقدسة . وقد وصل المبعوثان الى الملك الإنجليزى فى بدايات عام ١٢٩١ م ، ولكن إهتمامات الملك بأمر ويلز وإسكتلندا كانت أكثر بكثير من إهتمامته بالاراضى المقدسة والتحالف مع المغول ، فعاد المبعوثان خالياً الوفاض الى روما ليبلغا البابا بالنتائج الفاشلة التى توصلوا اليها ، ومكثا بعض الوقت حتى انهما قضيا فصل الصيف فى ايطاليا .

وخلال هذه المرحلة كان مصير بقايا الامارات الصليبية قد تحدد بالحملة التى قام بها الاشرف خليل بن قلاوون ، وذلك على عكس ماكان يعتقد أنه فى ربيع عام ١٢٩١ م سيقوم تحالف مغولى أوربى لاستعادة الاراضى المقدسة من المسلمين ، ولكن الحال تبدل ومات أرغون فى العاشر من مارس من العام نفسه (ربيع الأول من عام ٦٩٠ هـ) وإنشغل كل من ملك إنجلترا وملك فرنسا بأمرهما الخاصة ، وبذلك عجز البابا عن توجيه نداء لمثل هذا التحالف .

وتشجع الاشرف بالاستيلاء على ماتبقى من الامارات الصليبية بالشام ، فقد كان السلطان قلاوون قد إستعاد طرابلس فى عام ١٢٨٩ م . وحاصر عكا وأستكمل إبنه الاشرف إسقاطها فى ابريل

١٢٩١م ، ولعل فى كل هذا ماشجع الاشرف على إعلان الجهاد ضد مغول فارس بعد موت خانهم أرغون وتولى أمرهم أخوه كيختو Caikhatu (ابن أيضا (١٢٩١ - ١٢٩٥ م) . وقد نجحت القوات المملوكية فى هزيمة المغول والاستيلاء على قلعة الروم ، ولكن الحروب المملوكية المغولية لم يتسع نطاقها كثيراً فى تلك المرحلة ، وسرعان ماقتل كيختو على يد رجاله لفساده ، وقد تولى بعده بايدو Baidu ابن عم كيختو ولكنه حكم عدة أشهر وقتل فى الرابع من اكتوبر عام ١٢٩٥ م على أيدي غازان بن أرغون الذى وتولى حكم مغول فارس (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م)

سفارات غازان الى أوروبا

يعتبر غازان أكثر حكام المغول فى فارس موهبة ، وعندما تولى السلطة وضع سياسة معينة للتعامل مع المسلمين ، كما أن فترة حكمه تتميز باتصال تجاوز الحد مع المسيحية ، وفيما يتعلق بمسألة العقيدة الدينية فقد كان رجلاً متحضراً إلى أبعد الحدود لأنه لم يخلط بين العقيدة الدينية وبين السياسة ، وقد كان غازان يعتبر أن المماليك هم الأعداء الألداء .

ان كثير من الخلافات التى وقعت فى كلا المعسكرين المغولى والمملوكى دعت غازان الى غزو بلاد الشام . وفى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٢٩٩ م وعلى بعد أميال قليلة من مدينة حمص إنتصر المغول على المماليك . وقد إستسلمت مدينة حمص ودمشق وفى نهاية ١٣٠٠ م لم تكن هناك قوة مملوكية عسكرية فى بلاد الشام .

وكان لهذا الانتصار المغولى رد فعل كبير فى أوروبا وتفاءل حكامها بالكثير ، فقد وصلت الأخبار الى أوروبا أن الخان غازان قد إستولى على كل بلاد الشام ومصر أيضا وأنه أعاد الأراضى المقدسة الى جماعة فرسان الداوية والإسبتارية ، وأنه وضع الضريح المقدس فى حماية جماعة الرهبان الدومنيكان . وسرت الشائعات فى أوروبا أن غازان قد صك عمله

عليها صورة الضريح المقدس ، وأن علامة الصليب قد وضعت على أعلام غازان . ومن الشائعات أيضاً ماورد بها أن سقوط الأراضي المقدسة يرجع الى تعاون عسكري بين المغول وحكام الامبراطورية البيزنطية وملكى قبرص وأرمينيا . والحقيقة أن الجانب الذى ينسب إلى اوربا فى هذا الموضوع قد بولغ فيه بقدر كبير جداً وينافى الحقيقة ، ولكن هناك بعض الحقيقة حول هذه المساعدة ، وترجع هذه الشائعة الى أنه فى عام ١٣٠٠ - ١٣٠١ م ارسل هنرى الثانى لوزنجيان ملك قبرص عام (١٢٨٥ - ١٣٢٤ م) بعض قطع الاسطول يساعده فى ذلك جماعة فرسان الداوية والاسبتاريه وهاجموا مدينه رشيد حيث وقعت بعض المناوشات .

والحقيقة أن التعاون القبرصى المغولى ينسب إلى المبعوث المغولى زولس بوفتى Zolus Bofeti ، ويعرف باسم إيزول البيزى Isol the Pisan ، وكان لهذا المبعوث مكانه فى حاشية غازان ولذلك أرسله على رأس سفارة الى هنرى ملك قبرص . وقد ذكر إيزول البيزى أن اولجايتو أخ غازان قد تنصر ، وأن إيزول كان الأب الروحى له عند التعميد أن الجايتو هذا قد شارك فى الحملة التى إتجهت الى رشيد .

سفارة جيوسكارد باستارى

لم يكن ايزول هو الوحيد الذى تحدث عن مجد وانتصارات غازان ، ففى عام ١٣٠٠ استقبل البابا بونيفاس الثامن فى كنيسة اللاتيران جيوسكارد باستارى Guiscard Bastari وهو من أصل فلورنسى كمبعوث من الخان غازان تصاحبه حاشية من مائة رجل وكلهم فى زى المغول . ولأسباب ليست معروفة لدينا حتى الآن ، فإن الخان غازان لم يحاول ان يحتفظ بالأراضى التى فتحها فى ببلاد الشام ، ففى نهاية مايو عام ١٣٠٠ م تمكن المماليك من استعادتها مرة اخرى ، وان انسحاب المغول من بلاد الشام لايعود الى عدم إهتمام غازان بالقضية. لقد عاد غازان الى بلاده فى فبراير من عام ١٣٠١ م دون أن يشترك فى معركة رئيسية

وكان إنسحاب غازان يرجع إلى أنه لم يكن لديه القوات الكافية للإشتباك مع المماليك . ومعنى ذلك أنه يرجع للبحث عن حلفاء أوروبيين لمشروع حملته ، وان تقدمه إلى بلاد الشام يكون قد فعل كل ما بوسعه للبقاء على علاقات الصداقة مع أوروبا مثلما كان الحال عليه من قبل مع أسلافه .

وأرسل غازان سفارات عديدة إلى البابا وإلى الملك الفرنسي فيليب الرابع وإلى الملك الانجليزي إدوارد الأول ، ويقال أن البابا بونيفاس الثامن استقبل بعض السفراء في عام ١٣٠٢ ، واتهم قد تنصروا في روما ، وان البابا أرسل معهم تاجاً من الذهب ليقدموه إلى الخان غازان حتى يغفر الله له خطاياہ ، ويساعده لكي يقود المسيحيين إلى بلاد الشام.

وبالإضافة إلى ذلك فقد أرسل غازان خطاباً إلى البابا بونيفاس الثامن في ابريل عام ١٣٠٢ م وأشار فيه غازان إلى موضوع التعاون المغولي الأوربي ، وفي هذا الخطاب حث غازان البابا على إعداد القوات لمهاجمة القوات المملوكية وترك للبابا تحديد الموعد المناسب . ولازال هذا الخطاب محفوظاً بلغته المغولية ،

وقد احضر هذا الخطاب إلى البابا ثلاثة مبعوثين بأسماء اسلامية. ولقد إستغل الجنويون سنوات الاضطراب التي أعقبت وفاة أرغون وظهر اسم بوسكارل في رسالة كتبها الملك الانجليزي إدوارد يرجع تاريخها إلى الثاني عشر من مارس ١٣٠٢ م ، وقد حملها بوسكارل ، وجاء فيها أن الملك يولى أمر الأراضي المقدسة أهمية خاصة وانه يلقي باللوم على الحروب الدائرة بين دول أوروبا . وقد أرسل إدوارد سفارة أخرى كان من بين أعضائها جوفري أف لانجلز Geoffrey of langles ونيقولا أف شارتر Nicholas of Chartres وقد سافروا في صحبة بوسكارل . وفي عيد القيامة عام ١٣٠٣ م زار بعض المبعوثين من المغول مدينة باريس ،

وكان هدف هؤلاء المبعوثين الاتصال ببعض حكام أوروبا من أجل التحالف معهم لمحاربة المماليك .

وظل غازان أيضاً على اتصال بالملك جيمس الثانى ملك أرغون ، وقد عبر الملك عن فرحته فى مايو عام ١٣٠٠ م ، واعتبر أن ما قدمه غازان يعتبر كرم كبير منه فى مساعدة أوروبا لقتال المسلمين وإستعادة الفرنج لمدينة بيت المقدس . كما إرتبطت غازان بروابط المودة والصداقة مع الامبراطور البيزنطى اندرنيقوس الثانى ، وكان التحالف بين الامبراطورية والمغول مفيداً للإمبراطورية المهتدة بالغزو من جيرانها عن إستفادة المغول منه ، وقد كلل هذا التحالف بزواج الخان غازان من ابنة غير شرعية للإمبراطور اندرونيقوس ، ولكن مشروع التحالف نفسه لم يسفر عن شئ لأن غازان مات بعد قليل .

أولجايتو وأوروبا

وخلف غازان اخوه اولجايتو Oljeitu (١٣٠٤ - ١٣١٦ م) وقد سار أولجايتو على سياسة أخيه الودية مع الغرب الأوروبى . وقد كتب اولجايتو إلى فيليب الرابع ملك فرنسا خطاباً فى صيف عام ١٣٠٥ م . وفى هذا الخطاب ركز أولجايتو على قيام العلاقات الودية التى كانت مزدهرة بين أسلافه مع الفرنجة ، وقدم الخان الخطوط العريضة لمشروع تحالف ضد الذين يعملون على تخريب التفاهم الدولى ، وهم المماليك .

وقد كتب على ظهر الرسالة المغولية تعليق من أحد المعاصرين الايطاليين ، وهذا التعليق يقودنا الى معلومات دقيقة ، وربما الى إقتراح محدد ، أم كانت هذه التعليقات هى رساله شفوية حملها مبعوث الخان ؟ ومن هذا التعليق يتضح أن الخان يقترح إقامة سلام يعم العالم بأسره . وطبقاً لرأى آخر أن خلف هذا السلام الشامل يكون هناك تحالف ضد المماليك ، وهذا الرأى الأخير يمكن قبوله . ولكن إذا كان ذلك هو

المقصود بالسلام فلماذا لا يذكر ذلك صراحة ويكون لدينا شواهد ثابتة على هذا الاقتراح الواقعي ، ولكن مثل ذلك لم يرد في الخطاب الأصلي المغولي ولا في التعليق الايطالى على الوثيقة .

ولعل ماورد في الخطاب . يقصد به إقامة سلام عام مع الغرب الاوربي ، لأنه في الوقت الذي كتب فيه هذا الخطاب كان فترة هدوء مؤقت بعد حرب دامت لمدة نصف قرن قاده المغول في جميع الانحاء ، وقد أضعفت هذه الحروب من قوة الامبراطورية المغولية . وحول هذا السلام الداخلى في الامبراطورية المغولية فقد أشار أوجايتو إلى ذلك في أحد خطاباته الى الملك فيليب الرابع ، وليس تحت أيدينا حتى الآن وثيقة ورد بها رد الملك الفرنسى ، لأن الخطاب يتعرض الى عبارات عامة .

ومرة أخرى نجد أحد سفراء المغول وهو ايطالى يدعى توماس أوجى اف سينا Thomas ugi of Siena الذى زار ورفاقه بعض ملوك أوروبا حيث استقبل إستقبلاً طيباً ومن بين هؤلاء ملك إنجلترا . وكان الملك ادوارد الثانى قد خلف والده ادوارد الأول الذى مات فى يوليو ١٣٠٧ م والمعروف أن ملك إنجلترا قد أرسل على الأقل خطابان الى الخان أوجايتو . وكان أحد هذين الخطابين قد كتب فى نورثهامبتون Northampton فى منتصف اكتوبر ١٣٠٧ م وليس من الصعب أن نستنتج أن الملك إدوارد الثانى قد إستقبل خطاباً مطابقاً لما تسلمه فيليب الرابع .

وكان الخطاب الثانى الذى أرسله ادوارد كتب فى لانجليى Langley فى الثلاثين من نوفمبر ١٣٠٧ م . وفى ذلك امر يدعو للغرابة وانها وثيقة تدعو للدهشة ، وتظهر أن من نقل الرسالة من أوجايتو الى الملك قد حرف فى بعض العبارات التى أدت إلى تغيير القواعد السياسية للعلاقات مع الخانات . لقد كان فى خطاب إدوارد هجوماً وحقداً على المسلمين ، وقد طلب أوجايتو محو ذلك من الخطاب ، وهذا يوضح بعض التلاعب فى نصوص الوثيقة . ولا يمكن ان نتصور أن الملك إدوارد الثانى

إعتقد أن أولجايتو كان مسلماً ، ويكون بذلك قد ارتكب خطأ كبيراً بذكر مثل هذه العبارات التي تسيء الى الاسلام ، ويقع الشك على توماس ، ويلاحظ أن فى تعامل توماس مع البابا لم يقدم له أى إنطباع عن أن أولجايتو كان مسيحياً .

وفى خطاب كتبه البابا كلمنت الرابع فى مدينة بواتو ويرجع تاريخه الى أول مارس ١٣٠٨ ، نلاحظ أنه لم يرد بالخطاب أى إشارة ضد المسلمين ، وبدلاً من ذلك نجد أن البابا يخبر الخان أولجايتو برضاه التام عن المساعدة التي يقدمها ، وإذا كان لأحد أن يصدق الحقائق التي أشير إليها فى إجابة كلمنت ، دون أن يعث بها المبعوث توماس ، ويضع فيها من خياله ماشاء ، فإن أولجايتو قد عرض أن يقدم عشرين ألف حصان ، وعشرين ألف حمل قمح ، ويتبع ذلك مائة ألف من الفرسان الذين يقودهم الخان .

وكان للأهمية التي أظهرها البابا كلمنت الرابع فى إقامة تحالف عسكري مع المغول لها عبقريتها ، لقد ارسل البابا الى المورخ الارميني هيتوم Hetoum ابن ملك أرمينيا يطالبه بأن يعد مذكرة عن الطريقة الملائمة للتحالف مع المغول . وقد أعد هيثوم كتاباً الى البابا فى أغسطس ١٣٠٧م أى قبل إجابة البابا على رسالة أولجايتو . ويعتبر هيثوم أحد أفراد الاسرة الأرمينية الحاكمة وكان مع المتحمسين جداً للتحالف مع المغول ولتتدخل الغرب فى البلاد الشرقية . وجاء فى هذا الخطاب ، الخطوط العريضة التي قدمها هيثوم لاستعادة الاراضى المقدسة وهو يقول « أنه بالنسبة لى الذى يعرف أهداف المغول جيداً ، فإننى اعتقد وأؤكد أن المغول يرغبون دون نقاش وبدون أية نفقات أو دون أى نوع من انواع التبعية ، إنهم سوف يسلمون المدن والأراضى التي تفتح الى المسحيين ، وذلك بسبب شدة حرارة الصيف فى المنطقة ، وأن المغول لا يرغبون فى البقاء فى هذه المناطق . وأنهم سوف يوافقون على أن يتسلم

المسيحيون الأراض المقدسة بكل ترحاب ، وأن المغول لا يخوضون الحرب ضد سلطان مصر من أجل كسب إقليمى بعدما أصبحت كل آسيا خاضعة لهم ، ولكن لأن السلطان يعتبر العدو الرئيسى لهم ، وأنه أنزل بهم ضرراً أكثر من أى شخص آخر .

لم يكن البابا كلمنت الخامس أول مسئول أوربى يتصور إمكانية إستعادة الأراضى المقدسة ، بمساعدة المغول ، لقد أقام الملك الأراغونى جيمس الثانى إتصالات مع أولجايتو ولعله أرسل فى عام ١٣٠٧م سفيره بطرس ديسبورتس Peter Desportes الى الخان . وفى هذا الخطاب أراد الملك جيمس أن يستفسر عن الطريقة التى يمكن إرسال قواته بها الى الشرق وكيفية إمدادها ، وفى هذه الرسالة أيضاً طلب أن يكون للمسيحيين الحق فى دخول الأماكن المقدسة أحراراً . ويتضح من نغمة هذا الخطاب أنه سبق هذا الخطاب خطابات أخرى ، ومن الملاحظ أنه لا يوجد خطابات سابقة ألاحقة مع أولجايتو لهذا الخطاب قد ظهرت حتى الآن ، وهذا ما يعقد المسألة الى حد ما .

ويكون من الأهمية بمكان إضافة معلومات عن العلاقات الأراغونية مع المماليك أعداء المغول ، وفى الاتصالات التى قام بها جيمس الثانى ملك أراغون مع السلطان المملوكى محمد الناصر نلاحظ انه لا يوجد بها أى إشارة الى المغول ، وأنه من الممكن أن يقدم جيمس الثانى الى أولجايتو ما يساعد على إفساد مفاجئ للعلاقات الأراغونية المملوكية ، لأن الاتصالات الدبلوماسية الأراغونية والمملوكية قد توقفت فى الفترة من ١٣٠٦ وحتى ١٣١٤ م ،

وهناك كلمة يجب أن نسجلها عن الزيادة المطردة فى العلاقات التجارية بين امبراطورية المغول وبين الغرب الأوربى خاصة ما يميز عهد الخان أولجايتو . لقد كانت كل التجارة تقريباً فى أيدي التجار الإيطاليين ، وما لدينا من مادة تاريخية يعتبر قليلاً . ولقد ظهرت بصفه

رئيسية فى أنحاء الغرب الأوربى معلومات عن الأحوال الداخلية لدولة الخان وعن الصين أيضاً ، حيث أقام العديد من التجار الأوربيين أسواقاً كبيرة هناك . لقد ظل النشاط التجارى مرتبطاً فى معظم الأوقات بالأحداث السياسية ، ولكن من المعروف أن هذه التجارة ارتكزت على النفوذ التجارى الذى زاد واعتمد على السلام الدائم . لقد ظلت الطرق التجارية مفتوحة ، والدليل على ذلك أن المعاهدات التجارية وإتفاقيات القناصل ، ربط بعض الجمهوريات الايطالية مع دولة المغول .

لقد كان هناك دائماً آلية لإقامة القضايا الخاصة بالتجارة ، كما هو واضح فى قضية أو حالة الحاج سليمان ، وهو أحد مواطنى تبريز الذى حكم له فى عام ١٣٢٢م بسبب ما لحق به من خسائر ألحقها به أحد البنادقة ، وكان قيمة التعويض أربعة آلاف بيزنط .

قد استمر كثير من هذه التجارة فى أراضى الامبراطورية المغولية بعد سقوطها ، وتواصلت هذه التجارة حتى وقت تيمور خان القبيلة الذهبية أى حتى الفترة من ١٤١٠ - ١٤١٢م .

ورغم الطرق البحرية فإن الطرق البرية الداخلية للتجارة ظلت هى الأسرع والمفضلة للوصول إلى شرق آسيا . وقد وضع عن ذلك بجلاء يوحنا أف مونت كورفينو John of Monte Corvino ، وهو أحد الخبراء فى شئون الطرق البحرية ، وقد ذكر أنه بالنسبة للطرق الى الصين ، فيمكن القول أن الطريق الى شبه جزيرة القرم (التى أطلق عليها أرض القوط) تخضع لخان المغول الشماليين أى القبيلة الذهبية ، وهى أقصر الطرق وأكثرها أمناً ، وعن طريقها يمكن للرهبان أن يسلكوها مع حاملى الرسائل فى مدة طولها خمسة أوسه أشهر ، أما الطريق البحرى فهو طويل ومحفوظ بالمخاطر ، وأن هذا الطريق بالإمكان أن يستغرق عامين لإتمام الرحلة . ولكن الطريق البرى لا يكون آمناً فى كل الأوقات بسبب الحروب التى تقع فى تلك المناطق .

لقد كان يوحنا آف مونت كورفيتو متشائماً أكثر من اللازم ، لأن الطريق البرى ظل هو الطريق العملى فى عام ١٣٣٨ م . حينما إستخدمه مبعوثو طوغان تيمور Toghon Temur خان المغول فى منغوليا (١٣٣٢ - ١٣٧٠ م) وهم فى طريقهم الى أفنيون Avignon ، وفى سفارة عكسية كان على رأسها يوحنا دى مارينولى John de Marig-nolli ماورد بها أن الخيول التى إستخدمتها هذه السفارة قد أحدثت إحساسا غربيا فى بلاط منغوليا ، وساعدت على إستعمال الطريق البرى ، وعملت ايضاً على احياء الطريق البحرى الى حد ما .

وفى الخطاب الذى قدمه يوحنا دى مارينولى فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٣٠٧ الي الملك إدوارد الثانى يوصى فيه بإرسال بعض البعثات الي أوجايتو . وكان من ضمن هذه البعثة وليم أسقف مدينة اللد Lydda ، والمعروف أن وليم كان أسقفاً إسمياً ، وان هدفه الرئيسى كان التبشير بالمسيحية بين المسلمين الذين يعيشون فى الأراضى المغولية .

نشاط البعثات التبشيرية

لقد أشرنا من قبل الى وجود بعض الرهبان والفرنشيسكان فى مدينة تبريز ، وفى نهاية القرن الثالث عشر أصبح للفرنشيسكان قدماً راسخة فى دولة الخان ، ويبدو أن نشاطهم كان روحياً ، ولم يظهر منهم أنهم قدموا عرضاً من أجل التحالف بين المغول وأوربا .

لم يكن هناك للفرنشيسكان دوراً فى دفع عملية التحالف لاستعادة بلاد الشام ، وانهم دون شك قد أخذوا زمام المبادرة فى اتاحة الفرصة لاتساع باب الرهبانية فى آسيا ، ان أعظم الجهود المبكرة والناجحة قد تمت فى الأراضى التى تحكمها القبيلة الذهبية لأن هؤلاء الفرنشيسكان قد دخلوا أراضيتها عبر أراضى هنغاريا وأراضى القفجاق .

وفى بلاد المغول كانت البعثات التبشيرية ذات نفع كبير للإتصال المستمر مع الصين لتوسيع مجال نشاطها ، لقد ذهب يوحنا أف مونت كورفينو الى الشرق حوالى ١٢٨٠ م ، ولايد أنه عاش لبعض الوقت فى فارس قبل أن يعود الى روما فى عام ١٢٨٩ ، وان المعلومات التى قدمها يوحنا عن الحالة التى يعيشها المغول كان بها تفاصيل كثيرة ، وكانت هى السبب الذى دفع البابا نيقولا الرابع أن يرسله مرة أخرى الى الخان أرغون ، كما توغل بعد ذلك الى بلاد الصين .

ومن بين الرسائل التى حملها جماعة الفرنسيسكان كان من بينها ما أرسل الى الخان أرغون ، وخطاب آخر يرجع تاريخه الى الثالث عشر من يوليو عام ١٢٨٩م ، وهو موجه بالاسم الى الخان العظيم قوبيلاي (١٢٦٠ - ١٢٩٤ م) ، الذى كان اسمه معروفاً للبابا . وان هذه الوثيقة جعلت الأمر واضحاً لنا ، ويتضح فيه رغبة حكام المغول فى اقامة تحالف مغولى مسيحي دائم ، وان المعلومات المتاحة لنا عن الأحوال الداخلية والأحوال الجغرافية للمغول كانت تحت أيدي حكام الغرب الأوربي ،

لقد ترك يوحنا اف مونت كورفينو مدينة تبريز فى عام ١٢٩١م ولم يعد ، فلقد مات بعد أن أصبح رئيس أساقفة فى مدينة بكين . ولم يكن رحيلة نهاية نشاط جماعة الفرنسيسكان أو الدومنيكان فى نواحي فارس . ولقد أقام لأخوان الرماديون Friars Minor مراكز للقساوسة فى امبراطورية المغول . وفى الشمال استقامت الاسقفيات فى اراضى القبيلة الذهبية ، وفى الصين ، وفى القسطنطينية وطرايبزون وتبريز . وأنه من الأهمية أن نلاحظ أن البابا إطلع على حقيقة أن المركز الرئيسي للمغول يوجد فى ضواحي الصين ، وعلى أن يساند أسقفيات الصين ، وعلى كل القساوسة أن يعملون بنشاط داخل الامبراطورية المغولية ، كما أن

هؤلاء القساوسة يعملون في أراضي متأخرة للغرب مثل شبه جزيرة القرم وبلاد فارس . وفي عام ١٣١٨ م أقام البابا يوحنا الثاني والعشرين أول رئاسة للأسقفية في امبراطورية المغول وكان مقرها مدينة سلطانية وهي العاصمة الجديدة لمغول فارس ، وكان أول من تولى هذا المنصب الدومنيكاني فرانسيس اف بروجيا Francis of Perugia وقد خلفه في منصبه في عام ١٣٢٣ م . وليم آدم William Adam ، وكان من المتحمسين للقيام بعمل عسكري جديد ضد المماليك . وفي عام ١٣١٨ م عين وليم آدم مساعداً لسقف في سلطانية ، وبعد ذلك ولمدة قصيرة تولى منصب الأسقف في مدينة أزمير ، وفي السادس من أكتوبر من عام ١٣٢٢ عين لمنصب رئيس أساقفة سلطانية ، وفي السادس والعشرين من أكتوبر ١٣٢٤ م نقل الى مركز أسقفية إنتفارى Antivary الواقعة على ساحل دالماشيا ، وفي عام (١٣٣٧ م) كان آخر عهدنا بوليم آدم ، ولعله مات قبل ديسمبر عام ١٢٤١ م عندما عين خلفاً له .

فكرة الحصار الاقتصادي لدولة المماليك

وفي خضم الأحداث التي اقترنت بطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، وإحساس العالم الأوربي بالمهانة التي لحقت به، ظهرت موجه من الدعاية تولى أمرها بعض رجال الدين المثقفين المتعصبين للحروب الصليبية. وقد نادى هؤلاء ببعض الأفكار ووضعوا عدة مشاريع رأوا فيها إمكانية استعادة الأراضي المقدسة .

ومن هؤلاء الراهب الفرنسكاني فيدنتشو أوف بادو- Fidenizo of Pa- duo الذي كتب في عام ١٢٩١ م كتاباً أهداه إلى الباب نيقولا الرابع Nicholas IV (١٢٨٨ - ١٢٩٢ م) . ويشتمل هذا الكتاب على دراسة

قيمة عن تاريخ بلاد الشام والجيش الصليبي المطلوب لاستعادة الأراضي المقدسة، والطرق التي على الجيش أن يسلكها.

ومن هذه المشاريع أيضا التقرير الذي كتبه الراهب ثاديوس Thaddeus في عام ١٢٩٢م، وقد حوى هذا التقرير أخبار سقوط مدينة عكا في أيدي المسلمين، مع نداء حار إلى الباب وحكام أوربا لإعداد حملة صليبية لتخليص الأراضي المقدسة.

أما الداعية الجنوى جلفانو أف ليفانتي Galvano of Levanti فقد وضع كتاباً في عام ١٢٩٤م، وأهداه إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع Philip IV (١٢٨٥ - ١٣١٤م). ولكن هذا الكتاب لا يتجاوز بعض الانطباعات والعظات، وجاء خالياً من الأفكار العملية التي تؤدي إلى استعادة الأراضي المقدسة.

ومع هؤلاء يأتي المبشر رامون لول Ramon Lull ورغم أن شهر رامون بلغت القمة باعتباره من الزهاد، إلا أنه في الوقت نفسه يعتبر من رجال السياسة العلمانيين. وقد انتهى من كتابه في عام ١٣٠٥، وبه كثير من التفاصيل والأفكار حول المنهج العلمي لاستعادة الأراضي المقدسة. وقد ركز على رجال الدين الذي عليهم أن يبذلوا الجهد الكبير لإعداد حملة صليبية يتولى أمرها ملك محارب تعمل تحت إمرته كافة الطوائف الدينية العسكرية، مع اتخاذ جزيرتي رودس ومالطة قاعدتين عسكريتين لطرد المسلمين من أسبانيا، والاستيلاء على الساحل الأفريقي من تونس حتى مصر، كما نادى أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية واتخاذها طريقاً إلى بلاد الأناضول ثم إلى بلاد الشام.

وإلى جانب هؤلاء يأتي بطرس ديبوسو Peter Dubois وهو من رجال القانون الفرنسيين، إذ نادى ببعض الإصلاحات الاجتماعية والكنيسة، وقيام الملك فيليب الرابع بقيادة حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة.

أما عن تمويل هذه الحملة فقد طالب بانتزاع أملاك الداوية وفرض الضرائب على رجال الدين .

وفى فرنسا أيضاً ظهر المستشار الدبلوماسى وليم نوجارت Willim Nogaret الذى قدم فى عام ١٣١٠ م تقريراً عن حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة ، وركز على أن تقوم البابوية بتقديم ما لديها من أموال دون تردد ، والقضاء على هيئة فرسان الداوية ومصادرة أموالها لاستغلالها فى هذه الحملة .

كذلك شاركت أرمينية فى تلك الدعوة عن طريق المفكر والمؤرخ الأمير هيثوم أف كوريكوس Hethum of Corycus . وجاء فى كتابة الذى ظهر فى عام ١٣٠٧م خلاصة موجزة عن تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى وأحوال الدولة للملوكية ، وأوصى بضرورة قيام حملة صليبية برية وبحرية تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين للعمليات العسكرية لاستعادة الأراضى المقدسة بالتحالف مع المغول وبمساعدة الأرمن .

وإذ نكتفى بهذه القائمة نأتى إلى الحديث عن الدبلوماسى البابوى وليم آدم William Adam ، وهو الشخصية التى نركز عليها فى هذا الحديث . وقد ولد وليم آدم حوالى عام ١٢٧٥ ، فى إقليم لانجدوك Languedoc الذى يقع فى الجزء الجنوبى الشرقى فى فرنسا ، ودرس اللاهوت فى كوندوم Condom فى عام ١٣٠٢ م . ثم سلك طريق الرهبانية فى جماعة الدومنيكان . وفى عام ١٣٠٥م اختاره البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤م) فى بعثة إلى الشرق ، فذهب إلى القسطنطينية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام . ثم عاد إلى أوربا فى عام ١٣١٣م فى وقت كانت تتردد فى أوربا فكرة الإعداد لحملة صليبية ، ولكن هذه الفكرة لم تتحقق . وقد قام وليم بعد ذلك برحلة إلى الشرق بتكليف من البابا ، فاتجه إلى خان مغول فارس أوجايتو خدا بنده محمد (١٣٠٤ - ١٣١٧م) ، كما قام بعملية التبشير بالديانج المسيحية

على المذهب الكاثوليكي في فارس، ثم سافر إلى الهند ثم إلى اليمين وجال في تلك الأنحاء حتى وصل إلى أثيوبيا. والحقيقة أن هذا الترحال كان في غاية الأهمية بالنسبة لوليم آدم والأفكار التي دونها حول مشروع إعداد حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة. وعاد وليم إلى مدينة Avignon مقر البابوية الجديد في تلك المرحلة، ولكنه لم يبق فيها سوى فترة قصيرة، لأن البابا يوحنا الثاني والعشرين John XXII (١٣١٦ - ١٣٣٤م) أنشأ كرسيًا أسقفيا في مدينة سلطانية، التي اتخذها أوجايتو عاصمة لمغول فارس بعد مدينة تبريز في الأول من أبريل ١٣١٨م، فأرسل فرنكو دي بروجيا Franco di Perugia ليتولى منصب أول رئيس أساقفة لهذا المقر الجديد، ومعه وليم آدم وآخرون بمثابة مساعدين لرئيس الأسقفية. وقد سافرت المجموعة كلها سوا إلى سلطانية.

على أن وليم آدم عاد في عام ١٣٢٢م إلى مقر البابوية في أفنيون حيث عينه الباب في منصب رئيس أساقفة مدينة سلطانية خلفاً لسلفه فرانكو دي بروجيا. وفي العالم التالي (١٣٢٣م) كلفه البابا للقيام ببعثة من أجل وحدة الكنيسة الكاثوليكية في أرمينية. وليس من المعروف لنا أكان وليم قد قام بهذه المهمة أم لا، لأنه كان موجودا في مدينة أفنيون في عام ١٣٢٤م، ثم عين في العام التالي (١٣٢٥م) في منصب رئيس أساقفة مدينة انتفاري Antivari التي تقع على ساحل دالماشيا، وظل في منصبه هذا حتى مات في عام ١٣٤١م.

وقد وضع وليم آدم بعض الكتب الخاصة بالطقوس الدينية، بالإضافة إلى كتابه الذي يعنينا في هذه الدراسة وهو De Mode Saracenos Extripandi، أي كيفية اقتلاع جذور المسلمين، وقد حوى هذا الكتاب

العديد من الأفكار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التي من شأنها استعادة الأراضي المقدسة محور هذا البحث .

وكان وليم آدم قد طاف بمنطقة واسعة متعددة الحضارات ، تشمل الإمبراطورية البيزنطية ، وجزيرة خيوس Chios ، وهي جزيرة كبيرة تقع إلى الغرب من مدينة أزمير ، بالإضافة إلى اسيا الصغرى، كما زار خليج البسفور ومدينة القسطنطينية. وقد تحدث عن هذه المناطق وسواحلها ومنتجاتها الزراعية ومواردها المختلفة ووصفها وصفا دقيقا للغاية .

كذلك تحدي وليم عن مقابلته لبعض البحارة الجنوبيين ، ومنهم سيجورانوس سلفاتشى Seguranus Salvatici ، وهو من الدين كاتوا يتولون نقل المؤن إلى مصر ، ويرفعون علم مصر على سفنهم حرصاً على سلامتهم . أما مقوماته عن مصر والشام فهي قليلة ، ويبدو أنه دون معلوماته عن مصر من خلال ما سمعه عنها .

ومن الواضح أ وليم آدم كان موجودا في بلاد فارس في عهد الباب كلمنت الخامس في الوقت الذي ترددت الشائعات في أوربا حول إرسال حملة صليبية إلى الشرق أي حوالي ١٣١٣ - ١٣١٤ م ، ثم أنه اتجه بعد ذلك جنوباً بعد أن دون كتابه - في حوالي عام ١٣١٦ - ١٣١٧ م - حتى وصل إلى الهند حيث باشر الدعوة للديانة المسيحية مدة تزيد عن عام ونصف . وقد طاف بالأقاليم وتعرف على أخشاب أشجارها التي تصلح لبناء السفن مثل خشب النتك والصندل . كذلك كان وليم على معرفة تامة ببحر فارس - الخليج العربي - والجزء التي يقع عند مدخله الجنوبي . وقد ذكر أنه سار من شمال إيلخانية فارس حتى جنوبها ، حيث قام بعملية الدعوة للديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، كما تجول في بعض سقطرى Socotara كما كتب عن إثيوبيا . وقضى في تلك

المناطق حوالى تسعة أشهر ، مما جعله على معرفة تامة بمواقع بعض الجزر الموجودة فيها ، مثل جزيرة هرمز ، وجزيرة ديف Dive .

وبعد هذا العرض للأماكن التى زارها وليم آدم ، والتى كان لها أكبر الأثر على كتاباته ، تنتقل إلى المشاريع التى قدمها أو سجلها لاستعادة الاراضى المقدسة . والحقيقة أن كافة الأفكار التى وردت فى كتابات أصحاب المشاريع الصليبية فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى كانت أفكارها نظرية وبعيدة عن الواقع العملى إلى حد كبير ، لأن هذه الأفكار اعتمدت فى أساسها على وجود تفاهم بين كافة حكام أوروبا من أجل استعادة الأماكن المقدسة فى بلاد الشام ، مما يسهل قيام تحالف قوى بينهم لضرب مصر ، باعتبارها القوة الرئيسية التى اجتشت الإمارات الصليبية من بلاد الشام . ولكن وليم آدم خرج عن هذه القاعدة ، فذكر أن العقبة الرئيسية فى القضاء على مصر تكمن فى أوروبا نفسها وترجع إلى إنشغال الغرب بأمور الداخلية ، وإلى صراع الدول الزوربية مع بعضها البعض ، وإلى مطامع بعضها فى تحقيق مكاسب خاصة ، ولذلك فإنه يرى أنه لا سبيل للقضاء على القوة المملوكية فى مصر غير العناية الإلهية التى ربما تتدخل لتمكين الغرب الأوروبى من انتزاع القبر المقدس من أيدي المسلمين . وللك قدم وليم آدم بعض النصائح إلى الباب وحكام أوروبا حول إعداد حملة عسكرية أو القيام بأعمال أخرى من شأنها العمل على استعادة الأراضى المقدسة .

وفيما يتعلق بقيام الغرب الأوروبى بإعداد حملة عسكرية لضرب الدولة المملوكية قدم وليم آدم أفكاراً تهيدية يجب الأخذ بها قبل الشروع فى أي عمل عسكري ضد مصر ، ووضع هذه الأفكار فى أربع نقاط رئيسية.

. أولاً : يجب التعامل بكل شدة مع الأفراد أو الهيئات أو الدول التى

تساعد مصر وتمدها بالدقيق والمواد الحربية وكافة المستلزمات الخرى، لأن هؤلاء لا يطبقون مبدأ الحصار البحري الذى نادى البلاوية بفرضه على الموانىء الإسلامية، ومن هؤلاء القطلان والبنادقة والبيزيين والجنوية، كما أنهم لا يبالون بقرارات الحرمان من رحمة الكنيسة التى تفرضها البلاوية ضد المتعاملين مع المسلمين، خاصة الدول المملوكية.

ثانياً: يطالب وليم آدم قبل القيام بأي حملة عسكرية ضد مصر بضرورة قيام دول غرب أوروبا بالاستيلاء على مدينة القسطنطينية. وركز على أن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصليبيين، كما أن الأمبراطور البيزنطى يرتبط بروابط الود والصداقة مع سلطان مصر، ويعمل على إمداد مصر بالمؤن فى أوقات الشدة. وقيام اللاتين بغزو القسطنطينية والاستيلاء على أراضى الإمبراطورية البيزنطية يتم تحويل الشعب البيزنطى الأرثوذكسى المذهب إلى شعب كاثوليكي المذهب، ويدخل فى تبعية كنيسة روما.

ثالثاً: يجب منع خان مغول القفجان أو تتار القرم من التعاون مع مصر ضد مغول فارس الذين يسعون إلى التحالف مع الدول الأوربية والبابوية لضرب الدولة المملوكية.

رابعاً: يطالب وليم آدم بإعداد أسطول أوربى تكون مهمته السيطرة على موانىء البحر المتوسط، كما يقوم أسطول آخر يتم إعداده فى موانىء بحر الهند بإغلاق مضيق هرمز، وكذلك مضيق باب المندب، وذلك لإيقاف الحركة التجارية بين موانىء البحر المتوسط، وموانىء الشرق الأقصى التى تتدفق عن طريقها على مصر بضائع وغللات الشرق عبر ثغر عدن. ويرى أيضاً أنه يجب تحويل طريق التجارة ليكون فى أيدي الأوربيين بحيث تنقل بضائع الشرق عبر مضيق هرمز إلى الخليج الذى تسيطر عليه القوات المغولية، ثم إلى نهر الفرات، ومنه إلى موانىء

دولة أرمينية ، والمقصود هنا مدينة أياس .

وبعد أن حدد وليم آدم الخطوط العريضة للأفكار التى من شأنها إحكام الحصار البحرى على مصر من الشمال والجنوب للأضرار بمصالحها التجارية التى تشكل الدخل الرئيسى للدولة المملوكية فى تلك المرحلة ، قام بتحديد السبل التى من شأنها وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ .

وفيما يتعلق بالدول أو السفن أو الأفراد الذين يتعاملون مع مصر تجارياً ولا يبالون بالقضية الصليبية ولا يخشون قرارات الحرمان التى تصدرها الباباوية ، يطالب وليم آدم باستباحة دمائهم ومصادرة ممتلكاتهم وبيعها علناً ، وتخصيص العائد من بيعها للحركة الصليبية وإنقاذ الأراضى المقدسة . كذلك طلب باستباحة سلب أو الاستيلاء على حمولة السفن التى تتعامل مع مصر دون خوف من أحد . ويرى أنه من أجل ضرب هؤلاء المتعاملين مع مصر يجب إعداد مجموعة من السفن تكون مهمتها التجول فى مياه البحر المتوسط لملاحقة السفن الخارجة عن القانون .

كذلك طالب بحرمان كل السفن التى تتعامل مع المسلمين فضلاً عن السفن الإسلامية من التعويضات التى يقدمها مكتب الضمان الجنوى . وكان هذا المكتب يقدم تعويضاً لكل المسلمين واليهود الذين تتعرض بضائعهم للخسائر وهى محمولة على ظهر السفن الجنوبية ، بشرط ألا يكون الضرر قد وقع من إحدى الدول التى هى فى حالة حرب مع جمهورية جنوة .

ويرى وليم آدم حرمان الدولة المملوكية من الأوال التى تدخل خزانتها من عائد عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوربيون إلى الأراضى المقدسة ، وذلك بمنع الحج تماماً إلى القدس ، لأن الرسوم التى يقدمها هؤلاء الحجاج تمثل دخلاً كبيراً لخزانة الدولة المملوكية . وأضاف إنه يمكن

التحكم فى عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوريون إلى الأراضى المقدسة ، وذلك بمنع الحج تماما إلى القدس ، لأن الرسوم التى يقدمها هؤلاء الحجاج تمثل دخلا كبيرا لمخزانه الدولة المملوكية . وأضاف أنه يمكن التحكم فى عملية الحج عن طريق قبرس أثناء رسو الحجاج فيها وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس . كذلك نادى بانزال العقاب بكل من يساعد هؤلاء الحجاج سواء بالسفن أو الاستضافة ، وطالب كذلك بتطبيق هذه العقوبات على كل من يقوم بنقل البضائع والرقيق إلى مصر أو يقوم بالوساطة بين الإمبراطور البيزنطى وخان القفجاق وبين سلطان مصر .

ولما كان وليم آدم يرى أن عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسية غير كافية لمنع التجار الأوريين المتعاملين مع مصر، فقد طالب البابوية بإعداد بعض السفن المسلحة ووضعها تحت تصرف حكام جزيرة خيوس، لأنهم من الحكام الأقوياء المدافعين عن المصالح الأوربية الصليبية، وخاصة أن موقع هذه الجزيرة من الأهمية بمكان لوقوعه على الطريق البحرى بين القسطنطينية والإسكندرية، وباستطاعة حاكم هذه الجزيرة قطع الاتصال التجارى بين مصر من جهة وبين خان القفجاق والإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى. وركز وليم آدم على ضرورة غزو القسطنطينية وخصص لذلك جانبا كبيرا من كتاباته، واعتبر هذا العمل حجر الزاوية لأي مشروع لضرب المصالح الاقتصادية.

وقد سجل وليم بعض الآراء التى عزز بها وجهة نظره لغزو الإمبراطورية البيزنطية، منها أن تبدأ أوربا بغزو آسيا الصغرى حتى تكون على اتصال بري بتلك الانحاء قبل غزو بلاد الشام، لأن غزو بلاد الشام قبل غزو آسيا الصغرى يجعل القوات الصليبية محاطة بالأتراك والعرب من كل جانب. وذكر وليم أنه إذا كانت الغاية النهائية لكل هذه الأعمال هي السيطرة على مصر، فإن السيطرة على آسيا الصغرى لا بد أن تبدأ من القسطنطينية لاتخاذها نقطة ارتكاز لاستكمال فتح آسيا

الصفري. ولم يستبعد وليم آدم رغم هذا كله الحلول السلمية لاحتواء الإمبراطورية البيزنطية وضمها إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية. وطالب البابا بمحاولة إقناع حكام بيزنطة باعتماد المذهب الكاثوليكي، أما إذا فشل البابا في ذلك فإن السلاح يصبح الحل الأمثل، خاصة أن هناك تعاوناً كبيراً بين الإمبراطورية والجنوية.

وفي الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية، أنحى آدم باللائمة عليها وذكر أنه يجب معاملة البيزنطيين بمنتهى الشدة، وركز على أنه لا يمكن سيطرة أوروبا على بلاد الشام دون الهيمنة على الإمبراطورية البيزنطية التي تتألف مع مصر والتي تقع إلى الشمال منها. وتصور أنه من السهولة السيطرة عسكرياً على بيزنطة من أجل تسخير ثرواتها لخدمة القضية الصليبية، وأنه بالإمكان بعد ذلك اتخاذ الطريق البري عبر هنغاريا إلى بلاد الشام، وهو طريق أسهل من الطريق البحري. وحول هذا الصدد روى وليم أنه إذا كان على أوروبا أن تحارب المسلمين، فعليها أولاً إعادة الأبن الضال أي الإمبراطورية البيزنطية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية.

وبالإضافة إلى ذلك عدد وليم آدم ما ذكرته المصادر الصليبية عن الأضرار التي لحقت بالحملة الصليبية الأولى بسبب موقف الإمبراطورية البيزنطية من جودفري Godfrey، وذكر قصة الدقيق المخلوط بالجير الذي باعه البيزنطيون للصليبيين - وهو هنا يقصد ما سجل عن بعض أحداث الحملة الصليبية الثانية، واغتصاب آل باليولوج Polaeologus لعرش الإمبراطورية البيزنطية. والمراد هنا عودة أسرة باليولوج لحكم بيزنطة في عام ١٢٦١م، والقضاء على حكم اللاتين. والحقيقة أن وليم آدم عدد مساوئ كثيرة للأباطرة البيزنطيين خاصة موقفهم من توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وأفرد لها صفحات طوال.

وتبقى نقطة أخيرة في هذا البحث وهي التي تتعلق بوقف تدفق البضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والخليج. فالحقيقة أن فكرة القيام بحصار مصر بحرياً كانت من الأفكار التي ساندتها البابوية قبل عام ١٢٩١م من أجل الإبقاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام، أو بعد سقوط هذه الإمارات من أجل استعادتها مرة أخرى. ومن المعروف أن بقاء أو قيام هذه الإمارات كان مرهوناً بوقف القوى الإسلامية المحيطة ببلاد الشام خاصة مصر، ونذكر على سبيل المثال الأفكار التي نادى بها الرحالة والمفكر مارينو سانودو Marino Sanudo، ولكنه قصر أفكاره على حصار مصر اقتصادياً من ناحية البحر المتوسط فقط.

ومن الواضح أن وليم آدم كان أول من نادى بحصار مصر اقتصادياً عن طريق الجنوب والشمال أي عن طريق الخليج، وباب المندب من جهة والبحر المتوسط من جهة أخرى، لأنه استهدف إغلاق طريق باب المندب في وجه التجارة القادمة إلى مصر بحراً من الشرق الأقصى. وقد أدرك وليم مسبقاً صعوبة تنفيذ ذلك المشروع باعتباره مشروعاً غير مسبوق، لذلك نراه يقدم بعض المعلومات التي استند إليها لتنفيذ هذه الفكرة، فذكر أن بعض الجنوبيين حاولوا تنفيذ جانباً من هذا المشروع لأسباب تجارية. ويفضل مساعدة خان مغول أرغون Arghun (١٢٨٤ - ١٢٩١م) فإن هؤلاء الجنوبيين قاموا بإعداد سفينتين في بغداد، وكانوا يودون تسيير هذه السفن في نهر الفرات - ولعله يقصد نهر دجلة - ومنه تسيير إلى المحيط الهندي عبر الخليج. ولكن هذا المشروع لم يستكمل بسبب بعض الخلافات التي قامت بين هؤلاء الجنوبيين.

وعندما عرض وليم هذا المشروع ذكر أن شواطئ المحيط الهندي مملوءة

بأشجار التـك والصنـدل الـتي تصـلح أخـشابها تـماماً لـبناء الـسفن. وقـال أنه يـجب أن يـتم ذلـك بـعيداً عـن أعـين التـجار الـمسلمين سـكان مـدينة عـدن الـذين يـتولون أـمر المـلاحة فـي الـبحر الـأحمر. واقـترح أن تـوضع هـذه الـسفن فـي جـزيرة هـرمز، ولـعله يقـصد جـزيرة قـشم الـتي كـانت ضـمن أمـلاك الـدولة الـمغولـية فـي فـارس، أو فـي جـزيرة أخـري أسـماها ديف Dive، أو إقامتها عـلى الـساحل الـهندي. ولـعل فـي اسـم ديف تشابه مـع جـزر الـكارديف أو مالديف ولـكن الـأخيرة تبـعد كـثيراً إـلى الـجنوب، لـأن عـبارة وليم تـفيد أن جـزيرة ديف قـريبة مـن جـزيرة هـرمز. وأشـار أيضاً إـلى أنه بالإمـكان إـعداد هـذه الـسفن عـلى الـساحل الـغربي للـهند فـي مـدينة تـانا Tana وهـي بـومباي حـالياً، أو فـي مـدينة كامباي Cambay وهـي تـحمل الـاسم نـفسه حـتى الـآن، أو مـدينة كولوم Colom وهـي كولومبو حـالياً الـتي تـقع فـي جـزيرة سيلان حـيث تنـمو بكثـافة أشـجار التـك والصنـدل. ويضـيف وليم أنه إذا تم إـعداد ثـلاث سفن أو أربـع فـإنه بالإمـكان غـلق فـتحة باب الـمنـدب ومـراقبة الـسفن الـقادمة مـن الـهند إـلى الـبحر الـأحمر، وستـكون هـذه بمـشابة عـوائق تـسد الـمدخل إـلى الـبحر الـأحمر، وفـي هـذه الـحالة يـمكن اسـتغلال جـزيرة سوقـطرة أيضاً.

وأشـار وليم إـلى أن سـكان الـجزر الـتي أشـار إـليها مسـيحيون وأنهم يـكرهون الـمسلمين ويفـضلون التـعامل مـع الـسفن الـمسيحية، ولذا فـإنهم سـوف يسـاعدون الـسفن الـمزعم إـعدادها للـرسو فـي مـوانئهم. أما فـيما يـتعلق بـالتجار الـذين يـعملون عـلى ظـهر الـسفن مـن الـهند إـلى عـدن، وهـم الـذين سـماهم وليم بـالمهريين، فـإنهم يـجهلون أـصول الـحرب الـبحرية ولـيس لـديهم سفن لـحمايتهم، وإذا ما تـعرضوا للـهجوم لا يـستطيعون الـدفاع عـن أنـفسهم، وإنهم يـصدون سـهام الأعداء القـراصنة الـبحريين بـدروع مـصنوعة

من القش أو سعف النخيل.

كذلك رأى وليم آدم ضرورة وجود ميناء صالح قريب من هذه المواقع حتى تلجأ إليه سفن الحراسة للقيام بعملية الصيانة الموسمية، ومن أجل تخزين البضائع التي يتم الاستيلاء عليها. وأختار لذلك الجزر الموجودة في مدخل الخليج عند مدينة هرمز باعتبارها المكان المناسب للرسو، وهي آمنة كذلك لتبعيتها لخان مغول فارس الذي يسعى جاهداً لضرب التجارة المصرية وإذا تعذر الحصول على موافقة الخان فإنه يمكن البحث عن مكان آخر مثل أرخبيل ديف على وجه التحديد.

كذلك تحدث وليم عن مسألة تسليح السفن وإمدادها بالمقاتلين، وقال أنه يلزم لذلك إعداد حوالي ألف ومائتين من الرجال، وإن هذا أمر متروك للقائد الذي سيتولى قيادة هذه السفن. أما تمويل هذه السفن فأمر يتولاه البابا من حصيلة صكوك الغفران، أو من أثمان السلع التي تصدر من التجار الذين يتاجرون مع مصر.

هذه هي الأفكار الرئيسية التي قدمها وليم آدم للقضاء اقتصادياً على الدولة المملوكية، وما يتبع ذلك من القضاء عليها عسكرياً، ويمكن تلخيص هذه الأفكار في النقاط التالية:

١ - وضع المواني المملوكية - خاصة مدينة الإسكندرية - تحت الحصار الاقتصادي الأوربي.

٢ - إنزال قرار الحرمان من رحمة الكنيسة على جميع التجار الذين يتعاملون مع مصر.

٣ - إعداد السفن اللازمة لمراقبة حركة التجارة في حوض البحر المتوسط ومعاقبة من يتعامل مع مصر ومصادرة سلعه.

٤ - وقف حركة الحج الأوربية إلى الأراضي المقدسة لحرمان الخزانة المصرية من الأموال التي يدفعها الحجاج للدولة المملوكية.

٥ - الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية باعتبارها دولة مارقة على الدين المسيحي، وكانت دائماً تقف موقف الخيانة من القضية الصليبية، فضلاً عن أنها مرتبطة بمصر اقتصادياً، بالإضافة إلى قيامها بدور الوسيط في نقل التجارة بين مغول القفجاق وبين مصر.

٦ - قطع طريق التجارة التي ترد من الشرق الأقصى، وذلك بغلق مضيق باب المندب بالسفن الحربية.

٧ - تحويل التجارة القادمة من الشرق الأقصى إلى الخليج ومنها إلى نهر الفرات ثم براً إلى دولة ومواني أرمينية.

والحقيقة أنه كان لأفكار وليم آدم صدى كبير في أوروبا، فقد عارضها البعض، ومن هؤلاء فيليب الخامس Philip V ملك فرنسا (١٣١٦ - ١٣٢٢م)، ورأي أن في إعداد مثل هذه الحملات فرصة لقيام البابا بجمع الأموال واستخدامها في أغراض أخرى. ولكن يبدو أن البابوية اهتمت بهذه الآراء، وقام البابا يوحنا الثاني والعشرون بالإعداد لحملة وجهتها القسطنطينية، وأسند هذا العمل إلى روبرت ملك نابلي Robert of Naples (١٣٠٧ - ١٣٤٣م). على أن هذه الحملة فشلت ولم تتجه إلى القسطنطينية.

على أنه إذا كانت أفكار وليم آدم لم تجد من ينفذها في عصره، فإنها وجدت في العصور التالية، سبباً لتحقيق بعضها من خلال الكشوف الجغرافية.

خاتمة
المغول والإسلام

تعتبر امبراطورية المغول اكثر الامبراطوريات إتساعاً عرفت فى تاريخ العصور الوسطى ، والتي امتدت من كوريا حتى بولندا ومن طنكين Tonkin الى سواحل البحر المتوسط . وكان قيام المغول مثل أى امبراطورية أخرى إعتمدت على أصولها القبليّة . لقد استمرت امبراطورية المغول لفترة ليست قصيرة ، ووضعت بصماتها على العديد من الأجيال التي تلتها ، والحقيقة أن قيام امبراطورية المغول ظهر فى أوقات عصيبة حيث كانت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام وما لذلك من علاقات عسكرية بين الشرق والغرب . ومايعنينا فى هذا الفصل العناصر التي تعاملت مع المغول فى منطقة الشرق الأدنى وفى بلاد الأناضول .

وقبل القرن الثالث عشر الميلادى كان المغول معروفين بالكاد الى جيرانهم فى الصين ومنتصف آسيا ولبعض التجار القلائل ولبعض البعثات التبشيرية والنساطرة . وكانت فكرتهم حول النظم الاجتماعية وطرق الحياة مختلفة قليلاً عن القبائل التركية الأخرى . وفى عام ١٢١١ - ١٢١٢ م سقطت شمال الصين بما فيها مدينة بكين فى ايدى القوات المغولية ، كما أن سيطرة المغول على حدود ووسط آسيا جعلتهم على اتصال مع الدولة الخوارزمية . وفى عام ١٢١٩ - ١٢٢٠ م سيطروا على خوارزم وأغاروا على ايران وأذربيجان . وفى عام ١٢٢١ م سقطت غزنه التي خربت جزئياً ، والى جانب ذلك يلاحظ أن عدداً كبيراً من المسلمين خاصة التركمان فى بلاد الأناضول قد إنصهروا مع المغول الفاتحين ، رغم أن المغول ؛كانوا اقل عدداً . وعلى ذلك أن المجتمع البدوى قد فضل الحياة فى الأماكن الجديدة ، وزاد عدده ولم يعد للعمل فى الحياة الزراعية التي خربت من جراء الغزوات المغولية ، وفضلاً عن ذلك فإن المغول قد تسامحوا مع كل الاديان . ولما كان سكان البلاد فى

غرب آسيا وهي البلاد التي فتحها المغول كان يسودها الاسلام لذلك أصبحت الديانة الاسلامية هي الغالبة على المجتمعات التي أصبحت تحت السيادة المغولية وكان لذلك اثرا كبيرا على الحكومات المغولية .

ويلاحظ أيضاً أن المغول أزالوا الخط الفاصل الذي أقامه السلاجقة وهي الفصل بين العالم العربى وايران . ولقد أصبح عرب بغداد في اقليم مستقل عن ايران ولم يعد عرب بغداد هم قلب الاسلام لمجاورتهم دولة المغول فى ايران . لقد اصبحت القاهرة أو دولة المماليك فى مصر هي العاصمة الاسلامية أو العاصمة الروحية ، وأصبحت هذه الدولة المؤهلة للدفاع عن الاسلام بعد ما خرب المغول بلاد الشام . ومع دخول المغول فى بلاد الشام لعبوا دوراً كبيراً فى العلاقات العالمية نظراً للصراع الدائر بين المسلمين فى الشرق وبين الامارات الصليبية وأرمينيا التي يساندها الغرب الأوربي والبابوية . لقد كان هناك إصراراً من قبل دولة المماليك على إستئصال شأفة الصليبيين من بلاد الشام ومن هنا إرتمى الأرمن والصليبيون فى أحضان المغول لتجدتهم من الضربات الاسلامية .

وواقع الحال ان المماليك لم يهتموا إلا بدولة المغول التي قامت فى ايران والعراق وبالمسلمين فى بلاد الأناضول . لقد أقام دولة أيلخانات فارس ، خلفاء هولاكو بعد موته فى عام ١٢٦٥م . وكانت مدينة تبريز فى أول الأمر عاصمة الدولة وبعد عهد أولجايتو انتقلت الى مدينة السليمانية (كانجولان) Kangwan وظلت مزدهرة فى شمال ايران . وقد تميزت هذه الدولة بعداوتها مع دولة مغول روسيا ، وهي التي عرفت باسم القبيلة الذهبية ، على العكس مع الامبراطورية البيزنطية التي ساد الوثام بينها وبين إيلخانات فارس . وقد تعاون الاثنان ضد القبيلة الذهبية ودولة المماليك ، كما تعاون مغول فارس مع الغرب المسيحي ضد دولة المماليك ، وقد لعب الدين والاقتصاد دوراً كبيراً عند المغول لما لهما من

تأثير عالمى فى تلك العصور .

والواقع لم يكن للمغول ديناً محدداً فى تلك المرحلة ، وقد تعاملوا مع كافيهِه الأديان بسياسة التسامح . وفى بداية الأمر كان المغول يميلون الى المسيحية والى طائفة الشيعة . لأن هذه الطوائف كما رأى المغول أنهم عانوا من النظم الاسلامية القديمة ، لذلك تقربوا إلى المغول . يضاف الى ذلك دون شك أن النساطرة فى إيران وفى وسط آسيا والأرمن فى قيليقيا قد مالوا الى جانب المغول وساعدوهم ، يلاحظ أن هولاءكو نفسه كان يميل الى البوذية وأن زوجته طقز خاتون كانت نسطورية ، كما أن البلاط المغولى كان به كثير من المسيحيين ، ومن جانب آخر فإن سعد الدوله وزير الخان أرغون كان يهودياً وقد ظل كذلك دون أن يكتشف أمره .

رغم هذا كله فإن المغول قد اعتنقوا الاسلام فى النهاية ، ولعل ذلك مرجعه الى أن تكودار بن هولاءكو (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م) قد اعتنق الاسلام بأمل أن تنتهى الحروب التى دارت بين المغول والماليك ، ولكن ذلك قد كلفه حياته ، فقد ثار عليه زعماء المغول وقتلوه . ولكن غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) قد إعتنق الديانه الاسلاميه دون خطر أو مشاكل وقد سار على نهجه كل خلفائه .

لقد كان هناك أسباباً عديدة لاعتناق المغول للديانه الاسلاميه أو بمعنى آخر لانتشار الاسلام بين المغول ، لقد كان للمحيط الدينى الاسلامى الذى وجد بداخله المغول عاملاً كبيراً ، ولكن يجب ألا نغالى فى أهمية هذا العامل ، لأن الأقلية المنتصرة من العرب مع ظهور الاسلام لم يعتنقوا ديانه الأغلبيه المهزومه ، وإنما يمكن القول أن ذلك يرجع الى

التفوق الروحي للإسلام

لقد تحول إلى الاسلام مغول القبيلة الذهبية قبل خانات فارس ، وقد أوجد ذلك حاجزاً بينهم وبين السكان الروس الذين كانوا خاضعين في البداية لإمارات إقطاعية لم يتول المغول إدارتها مباشرة ، وإذا كنا سوف نهتم بتأثير المواطنين الأصليين ، ففي الحقيقة يجب أن نهتم بقبائل التركمان إذا أردنا أن نشرح أو نفسر ظاهرة انتشار الإسلام بين المغول . ففي بلاد الشام وفي إيران كانت أعداد التركمان أكثر من المغول ، وكان هؤلاء التركمان يعتنقون الإسلام ، ولما كان هؤلاء التركمان والمغول لهم طريقة واحدة في الحياة ، فإن ذلك جعل التركمان يمتصون المغول في وقت مبكر ، ولذلك إعتنق المغول الإسلام في وقت مبكر .

لقد أصبح المغول مسلمي العقيدة وابقوا على حقوق الأقلية غير الاسلامية ، لقد كافحوا لكسبهم الى صفوفهم من أجل الكسب الدبلوماسي للممالك المسيحية . لقد نظر الممالك نظرة الشك للمغول الذين تحولوا الي الاسلام ، وان غازان الذي تحول إلى الاسلام قد قام بغزوات عديدة في بلاد الشام واتخذ الوزير رشيد الدين الذي تحول الى الاسلام وزيراً له . وبالأضافة الى ذلك فإن بعض المغول قد تحولوا الى الديانة الاسلامية على المذهب السني والبعض الآخر على المذهب الشيعي ولما كان هؤلاء يعتقد في النجوم فقد كان نصيراً وحامياً للعالم الشيعي ، الخوارزمي الكبير نصير الدين الطوسي وأقام له مرصداً في مدينة مراغة ، وبذلك استعاد الشيعة مكانتهم التي فقدوها منذ قرنين مضت . وكان في ذلك مقدمه لعلو شأن الشيعة منذ القرن السادس عشر الميلادي في بعض المناطق مما جعل إيران دولة اسلامية شيعية وانعزلت عن بقية العالم

الاسلامى ، وخاصة عن جارتها ، الدولة العثمانية التى سارت على المذهب السنى .

وكان التأثير الدبلوماسى لسياسة التسامح الدينى التى إتبعها المغول كبيراً . وكانت لها أهمية كبيرة على العلاقات المغولية مع الغرب . لقد كانت رؤية الغرب للمغول عندما . ظهوروا على الساحة الحربية والسياسية مختلفة تماماً ، فلم ينزعج الأوربيون من الخراب الذى أنزله المغول بالشعوب الاسلامية وغير الاسلامية . وكانوا يرون أن المغول هزموا المسلمين المجاورين لهم ، وفى ذلك فائدة للصليبيين ويعد إنتصاراً لهم . وان الصليبيين الذين تلقوا هذه المعلومات من النساطرة والمسيحيين فى أواسط آسيا ، أدركوا مغامرات المغول وسيطرتهم لعلها تكون مفيدة للمسيحيين .

وان هؤلاء الذين تحالفوا من الأرمن فى قيليقيا كانوا يميلون الى مشاركة المغول فى موقفهم ، وهو الموقف الذى تبناه بيت هيثوم ، والأبعد من ذلك فإن أسطوره الكاهن يوحنا ساندت هذا الموقف ، ومن المعروف أن هذه الأسطورة قد ظهرت فى القرن الثانى عشر ، وهنا تذكر الغرب هذه الأسطورة كما تزكرها النساطرة والصليبيون فى الامارات الصليبية بالشام ، لقد كان هناك بعض النساطرة بين المغول ، وقد مارسوا شعائهم وكانو مقربين من السلطات المغولية ، يضاف الى ذلك ما كان هناك من بعثات تبشيرية .

لقد تزامن تقدم المغول الى غرب آسيا مع انهيار الروح الصليبية وانشغال الغرب الأوربى بأموره عن الصليبيين ، وان ما قام به بعض الرهبان من البعثات السياسية قد فشل هو الآخر ، وفى النهاية أرسل

البابا إنوسنت الرابع الى المغول عبر روسيا الراهب القرنشيسكاني يوحنا اف بيان دى كارين ، والراهب الدومنيكاني وليم رويروك عبر الأناضول ولقد كانت إجابة المغول محيرة ، فقد كان الخان نشوان بالنصر وطلب خضوع جميع ملوك وأباطرة أوربا بالإضافة الى البابا ، ولكن الوضع اختلف بعد موقعة عين جالوت ١٢٦٠م ، وبعد عين جالوت بدأ المغول فى البحث عن حلفاء ، ولذلك قاموا من جانبهم بإرسال السفراء الى البابا كلمنت الرابع فى عام ١٢٦٧م والى جيمس الأول ملك أراغون فى عام ١٢٦٩م ، والى مجلس ليون الكنسي فى عام ١٢٧٤م يقترحون القيام بحملة مشتركة ضد العدو المشترك وهو المسلمين ، وهى الحملة التى كان يستحيل إمدادها بالقوة الكافية لصعوبة المسافة والمشاكل الداخلية للبلاد الأوربية . لقد تحمس البابا نيقولاس الرابع للفكرة ، وقد حمل فكرة المغول مار ياباهالا Mar Yabhaha الثالث الذى زار جنوة ، وملك فرنسا ، وملك إنجلترا ، وظل التشاور بين المغول وأوربا حتى عهد غازان ولكن هذا التشاور لم يتعد الخطابات والبعثات . وبعد عهد غازان فإن التشاور كان بين البابا يوحنا الثانى والعشرين وأبى سعيدالذى كان قد عقد السلام مع المماليك ، ثم مالبت أن زالت دول المغول ، وبقيت الدول الاسلامية والاسلام .

المجداول والخرائط

أ - الجداول

خانات منغوليا

خانات ما وراء النهر وتركستان الشرقية

خانات فارس

خانات القبيلة الذهبية

١ - فرع باطو

٢ - فرع أوردا

ملوك إنجلترا

ملوك فرنسا

أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة

الباباوات

ب - الخرائط

انتشار السلاف في روسيا

الطرق التجارية والمدن الروسية في القرن التاسع الميلادي

روسيا الكيفية وغزوات المغول

روسيا في القرن الخامس عشر الميلادي

المغول في القرن الثالث عشر

المغول في القرن الخامس عشر

خانات المغول
(بيتا أوكيتاي وطولوى)
منغوليا

تاريخ تولي العرش

١٢٠٦	جنكيز خان
١٢٢٧	أوكيتاي
١٢٤١	تورا كينا (وصية)
١٢٤٦	كيوك
١٢٤٩	اوغول قيميش (وصية)
١٢٥١	مونكو
١٢٦٠	قوبلاي
١٢٩٤	اولجايتو
١٣٠٧	كيولوك
١٣١١	بويانتو
١٣٢٠	كه كُن
١٣٢٣	يسون تيمور
١٣٢٨	راجي بقا
١٣٢٨	جياغاتو
١٣٢٩	كوتنالا
١٣٣٢	رينجن بال
١٣٣٢ - ١٣٧٠	طوغان تيمور

بيت جغتاي باقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية

١٢٢٧	جغتاي
١٢٤١	قراھولاكو
١٢٤٧	يسو منكو
١٢٥٢	قراھولاكو للمرة الثانية
١٢٦١	الكو
١٢٦٦	مبارك شاه
١٢٦٦	براق خان
١٢٨١	نيكباي
١٢٧٢	توقا تيمور
١٢٩١	ذوورا خان
١٣٠٦	قونجوق خان
١٣٠٨	تاليقو
١٣٠٩	كبك خان
١٣٠٩	اسن بغا
١٣١٨	كبك خان للمرة الثانية
١٣٢٦	ايلجي كداي
١٣٢٦	دووا تيمور
١٣٢٦	علاء الدين ترماشيرين
١٣٣٤	جنكشي (جنكاشاي)
١٣٣٤	بوزون

۱۳۳۸	اسن تیمور
۱۳۴۲	محمد
۱۳۴۳	قازان تیمور
۱۳۴۶	دانشمندجه
۱۳۴۸	بویان قولى
۱۳۵۹	شاه تیمور
۱۳۷۰ - ۱۳۵۹	تقلق تیمور
	حاز تیمور تلك البلاد

خانات فارس

۱۳۵۳ - ۱۲۵۶

فارس

۱۲۵۶	هولاکو
۱۲۶۵	ابغا
۱۲۸۲	احمد تکودار
۱۲۸۴	ارغون
۱۲۹۱	کیختو
۱۲۹۵	بایدو
۱۲۹۵	غازان محمود
۱۳۰۴	اولجایتو خدا بنده محمد
۱۳۱۷	ابو سعید بهادر
۱۳۳۵	اریا کماون (معز الدین)
۱۳۳۶	موسی

انقسام فارس بين اسرات عديدة امثال الجلثريين والمظفرين
والسرياداريين (خراسان). ١٣٣٦ - ١٣٥٣

خانات القبيلة الذهبية

(جوجي)

١٢٢٦

جنوب روسيا وغرب سيبيريا

١ - فرع باطو - خانات القبيلة الزرقاء في جنوب وغرب بلاد
القبجاق :

١٢٢٧	باطو بن جوجي
١٢٥٥	سارتاق
١٢٥٦	اولاغجي
١٢٥٧	بركة بن جوجي
١٢٦٧	مانكو تيمور
١٢٨٠	تودا مونكو
١٢٨٧	تولا بوغا
١٢٩٠	تقتو، غياث الدين
١٣١٢	اوزيك، غياث الدين محمد
١٣٤١	تيني بك
١٣٤١	جاني بك
١٣٥٧ - ١٣٨٠	عصر فوضى واضطراب

٢ - فرع أوردا - خانات القبيلة البيضاء في سيبيريا وشرقي
بلاد القبجاق ثم اتحدت القبيلتان الزرقاء والبيضاء في القبيلة
الذهبية في جنوب روسيا - بعد ١٣٧٨ :

١٢٢٦	أوردا بن جوجي
١٢٨٠	قوجي
١٣٠٢	بايان
١٣٠٩	ساسي يوقا
١٣١٥	إبسان
١٣٢٠	مبارك خواجه
١٣٣٤	جمتاي
١٣٦١	أوروس
١٣٧٥	توقتاكيه
١٣٧٥	تيمور ملك
١٣٧٦	غياث الدين تقتاميش
١٣٩٥	تيمور قتلغ
١٤٠١	شادي بك
١٤٠٧	بولاد
١٤١٠	تيمور
١٤١٢	جلال الدين
١٤١٤	كبك
١٤١٧	جبار بردى
١٤١٩	اولغ محمد

ملوك إنجلترا بعد الفتح النورماني

١٠٨٧ - ١٠٦٦	وليم الأول (القاتح)
١١٠٠ - ١٠٨٧	وليم الثاني
١١٣٥ - ١١٠٠	هنري الأول
١١٥٤ - ١١٣٥	ستفن
١١٨٩ - ١١٥٤	هنري الثاني
١١٩٩ - ١١٨٩	ريتشارد الأول
١٢١٦ - ١١٩٩	يوحنا
١٢٧٢ - ١٢١٦	هنري الثالث
١٣٠٧ - ١٢٧٣	إدوارد الأول
١٣٢٧ - ١٣٠٧	إدوارد الثاني
١٣٧٧ - ١٣٢٧	إدوارد الثالث
١٣٩٩ - ١٣٧٧	ريتشارد الثاني
١٤١٣ - ١٣٩٩	هنري الرابع
١٤٢٢ - ١٤١٣	هنري الخامس
١٤٦١ - ١٤٢٢	هنري السادس
١٤٨٣ - ١٤٦١	إدوارد الرابع
١٤٨٥ - ١٤٧٣	ريتشارد الثالث
١٥٠٩ - ١٤٨٥	هنري السابع (تيودور)

ملوك فرنسا

١١٨٠ - ١٢٢٣	فيلب اوغسطس
١٢٢٣ - ١٢٢٦	لويس الثامن
١٢٢٦ - ١٢٧٠	لويس التاسع (القديس)
١٢٧٠ - ١٢٨٥	فيلب الثالث
١٢٨٥ - ١٣١٤	فيلب الرابع
١٣١٤ - ١٣١٦	لويس العاشر
١٣١٦	حنا الاول
١٣١٦ - ١٣٢٢	فيليب الخامس (الطويل)
١٣٢٢ - ١٣٢٨	شارل الرابع

فيلب السادس فالوا	١٣٥٠ - ١٣٢٨
حنا الثاني (الطيب)	١٣٦٤ - ١٣٥١
شارل الخامس	١٣٨٠ - ١٣٦٤
شارل السادس	١٤٢٢ - ١٣٨٠
شارل السابع	١٤٦١ - ١٤٢٢
لويس الحادي عشر	١٤٨٣ - ١٤٦١
شارل الثامن	١٤٩٨ - ١٤٨٣

اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة وملوكها

هنرى الرابع	١١٠٥ - ١٠٥٦
هنرى الخامس	١١٢٥ - ١١٠٥
لوثر الثاني	١١٣٨ - ١١٢٥
كونراد الثالث	١١٥٢ - ١١٣٨
فريدريك بارباروسا	١١٩٠ - ١١٥٢
هنرى السادس	١١٩٧ - ١١٩٠
فيليب الثاني	١٢٠٨ - ١١٩٧
أوتو الرابع	١٢١٨ - ١١٩٧
فريدريك الثاني	١٢٥٠ - ١٢١٢
كونراد الرابع	١٢٥٤ - ١٢٥٠
وليم الهولندي	١٢٥٦ - ١٢٥٤
(فترة الشغور)	١٢٧٢ - ١٢٥٧
رودلف لأول	١٢٩١ - ١٢٧٣

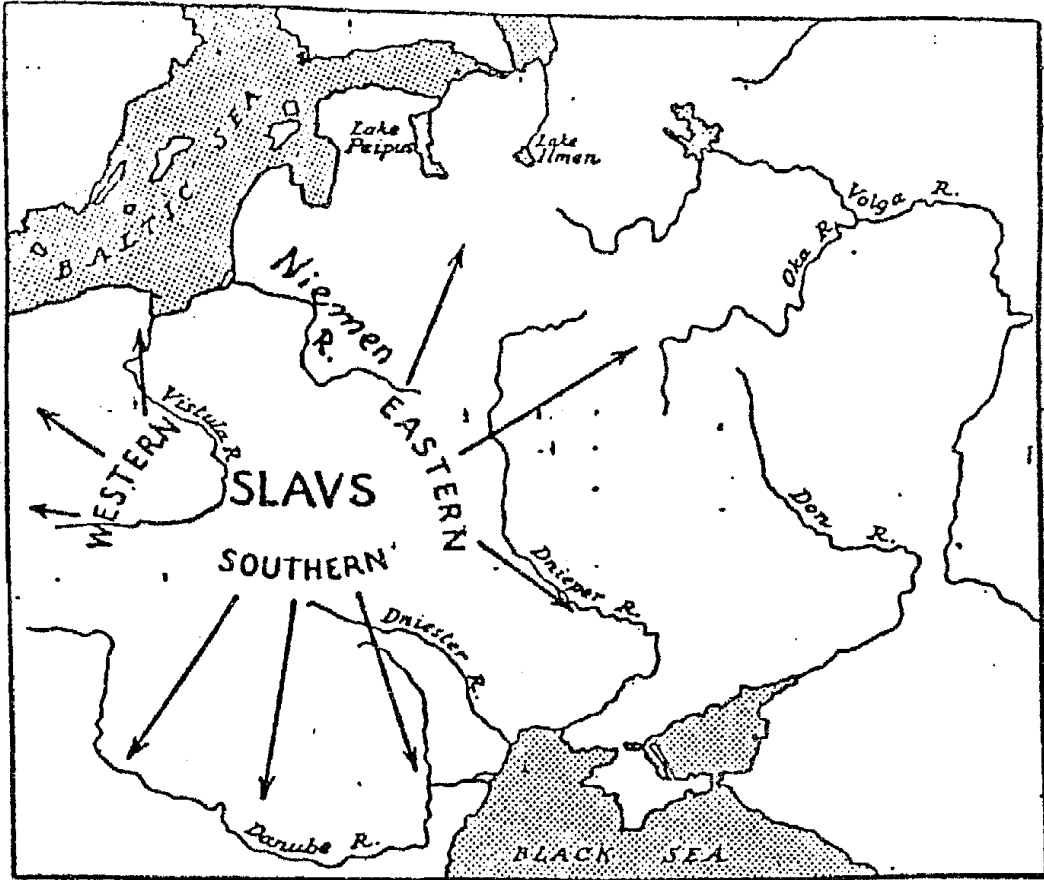
هابسبورج

أدولف ناسو	١٢٩٨ - ١٢٩١
ألبرت الأول	١٣٠٨ - ١٢٩٨

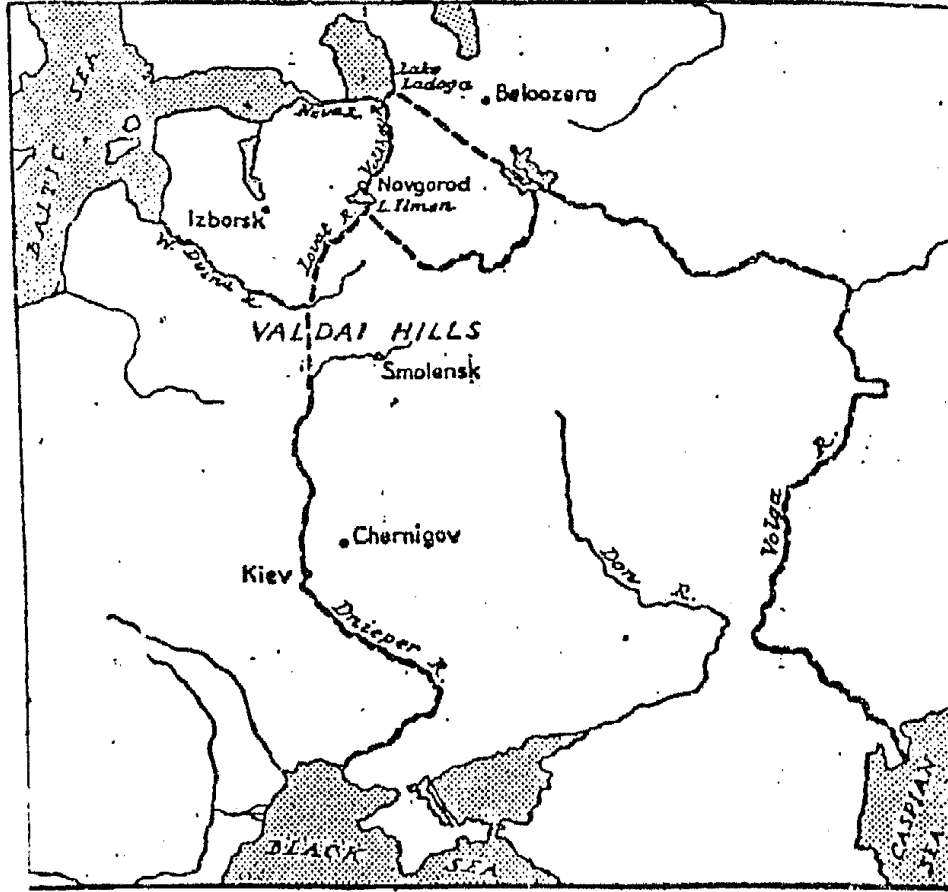
الباوات

انوسنت الثالث	١٢١٦ - ١١٩٨
هونوريوس الثالث	١٢٢٧ - ١٢١٦
جريجوري التاسع	١٢٤٠ - ١٢٢٧
لستين الرابع	١٢٦٤ - ١٢٤١

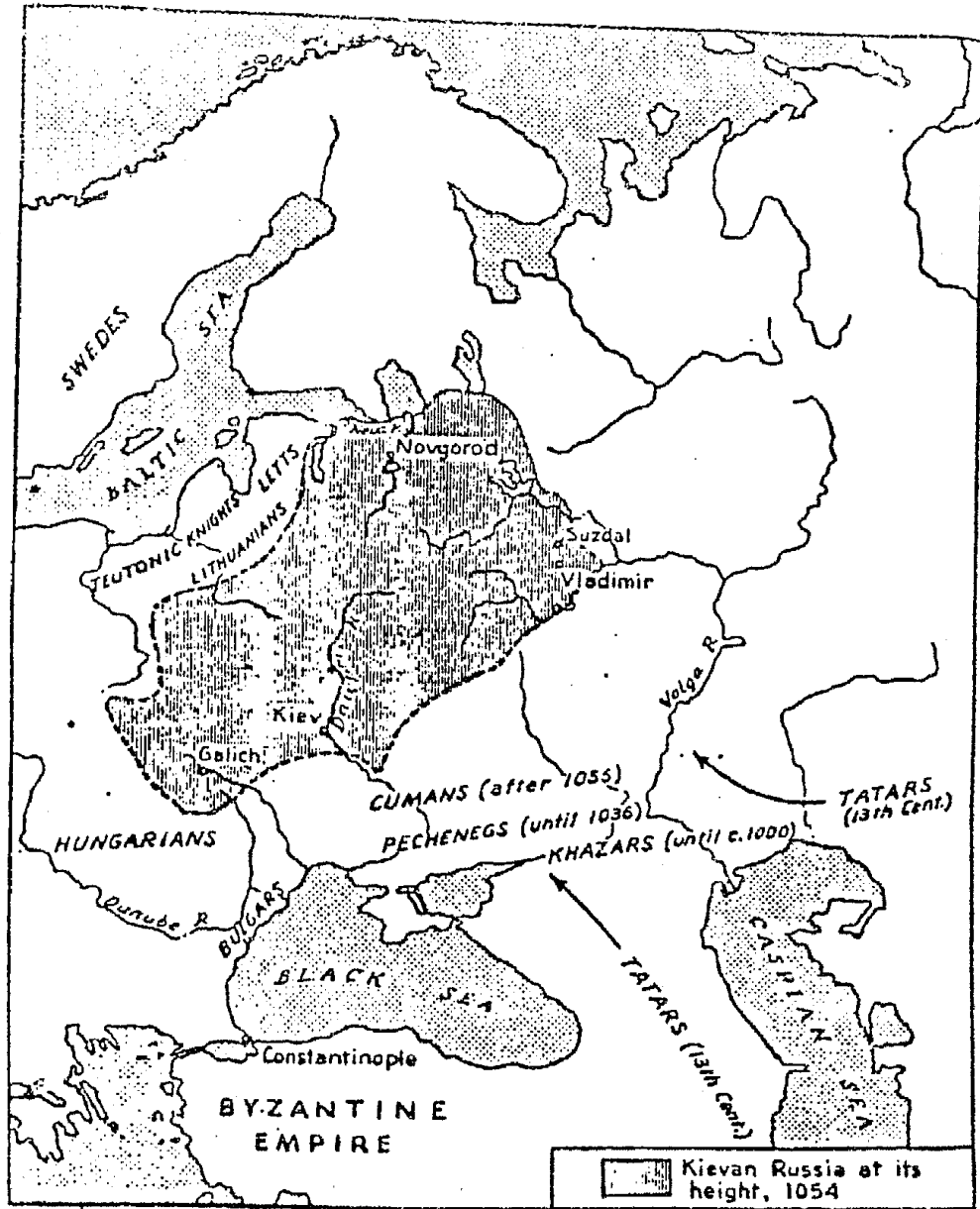
انوسنت الرابع	١٢٣٤ - ١٢٥٤
اسكندر الرابع	١٢٦١ - ١٢٥٤
أوريان الرابع	١٢٦٤ - ١٢٦١
كلمنت الرابع	١٢٦٨ - ١٢٦٥
جريجوري العاشر	١٢٧٦ - ١٢٧١
انوسنت الخامس	١٢٧٦
هدريان الخامس	١٢٧٦
حنا الواحد والعشرون	١٢٧٧ - ١٢٧٦
نيقولا الثالث	١٢٨٠ - ١٢٧٧
مارتن الرابع	١٢٨٥ - ١٢٨١
هونوريوس الرابع	١٢٨٧ - ١٢٨٥
نقولا الرابع	١٢٩٢ - ١٢٨٨
كلستين الخامس	١٢٩٤
بونيفاس الثامن	١٣٠٣ - ١٢٩٤
بندكت الحادي عشر	١٣٠٤ - ١٣٠٣
كلمنت الخامس	١٣١٤ - ١٣٠٥
كلمنت الخامس	١٣١٤ - ١٣٠٥
حنا الثاني والعشرون	١٣٣٤ - ١٣١٦
(نيقولا الخامس)	١٣٢٨ - ١٢٣٠
بندكت الثاني عشر	١٣٣٤ - ١٣٤٢
كلمنت السادس	١٣٤٢ - ١٣٥٢
انوسنت السادس	١٣٥٢ - ١٣٦٢
أوريان الخامس	١٣٦٢ - ١٣٧٠



انتشار السلاف في روسيا



الطرق التجارية والمدن الروسية في القرن التاسع الميلادي

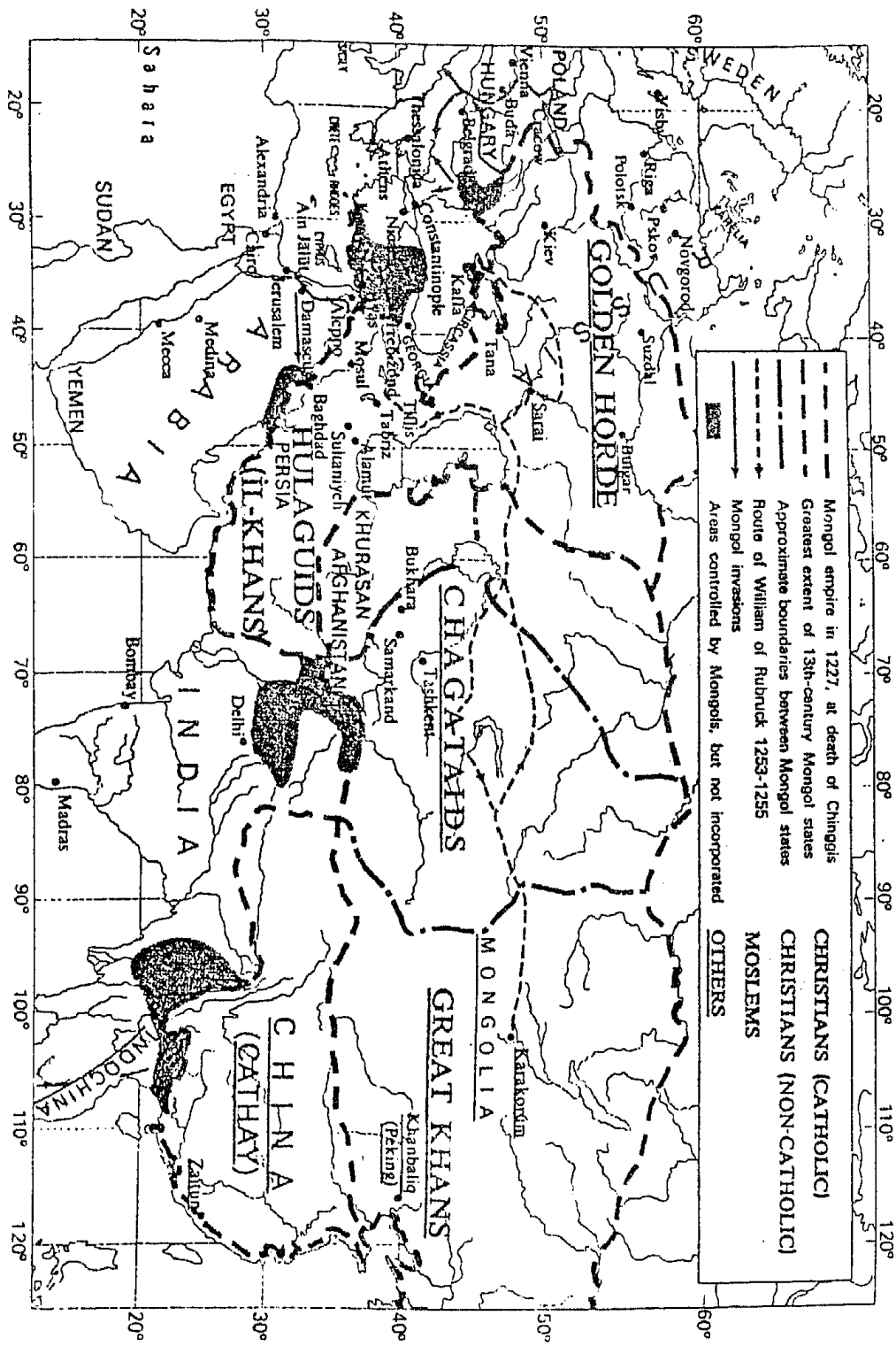


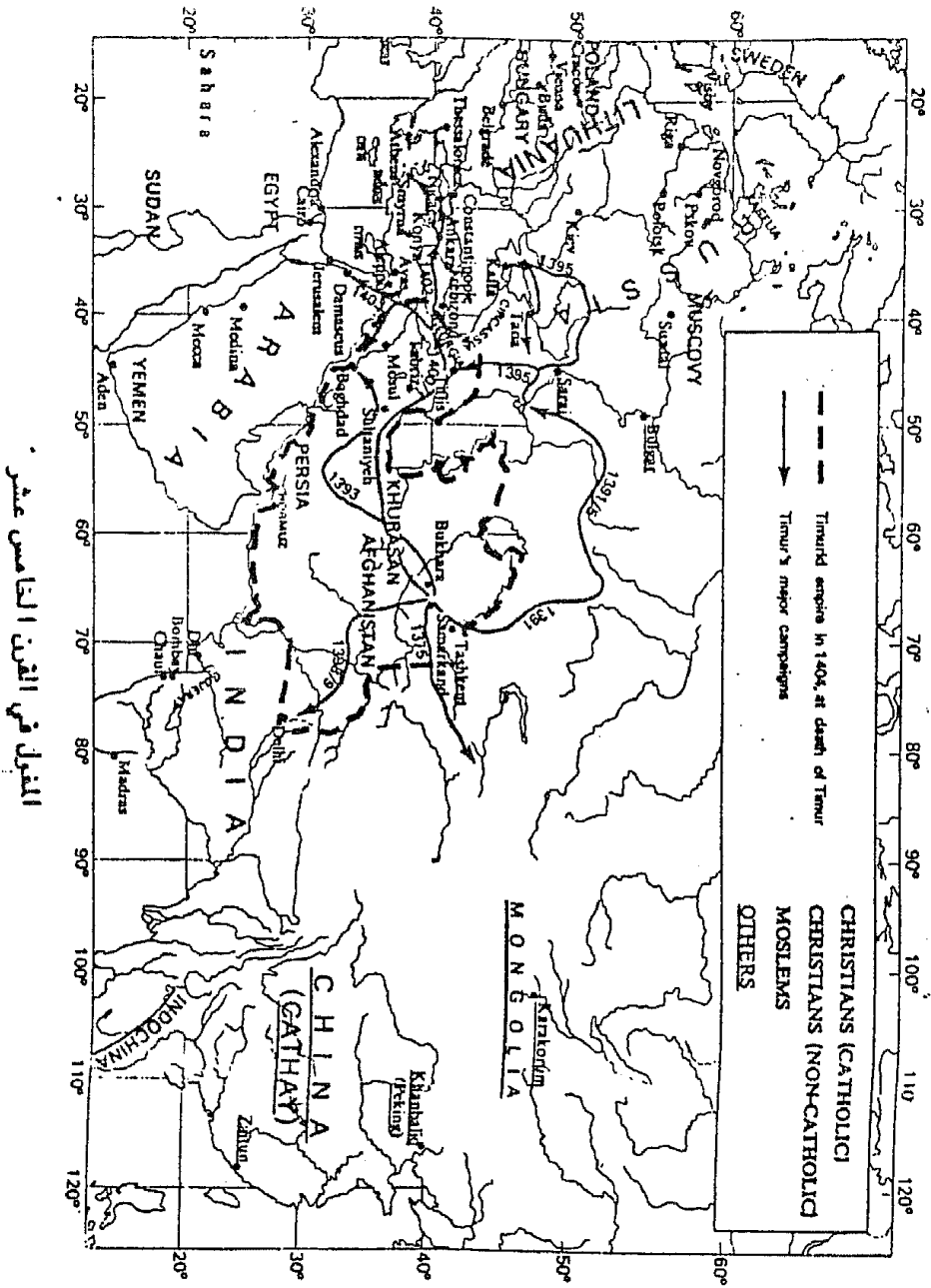
روسيا الكيفية وغزوات المغول



روسيا في القرن الخامس عشر الميلادي

تاریخ مغولان





التيول في القرن الخامس عشر

المصادر والمراجع

- ١ - المصادر العربية
- ٢ - المصادر الاجنبية
- ٣ - المراجع العربية
- ٤ - المراجع الاوربية

أ - المصادر العربية

إبن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٤م) أبو الحسن على بن أبي الكرم الملقب عز الدين :
«الكامل في التاريخ - ١٢ ج ١٢ منجلد - ليدن ١٨٥٣م» .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله:
«مهدب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» - الطبعة الأولى - القاهرة - (مطبعة السعادة)
١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) عبدالرحمن محمد :
«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس احمد بن ابراهيم:
«وفيات الأعيان وأنباء الزمان» - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٢٧٦هـ

إبن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلاتي :
«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» ج ٤ و ٥ في مجلد واحد - بولاق -
١٣٠٩ - ١٣١٠هـ.

إبن الشحنة (ت ٨١٥هـ/١٤١٣م) محب الدين محمد بن محمد بن محمود .
«روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر» - على هامش كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي - طبعة أولى - القاهرة (المطبعة الأزهرية المصرية) - ١٣٠٣هـ.

إبن الطقطقي (المتوفى بعد ٧٠١هـظ / ١٣٣١م) فخر الدين محمد بن على :
«الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية» - راجعه ونقحه محمد

عوض ابراهيم وعلى الجارم - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٨م.

إبن عبدالظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) القاضى محى الدين أبو الفضل الروض
الزاهر في سيرة الملك الظاهر - حققه عبدالعزیز الخويطر - الرياض -
١٩٧٦.

إبن عرب شاه :

«عجائب المقدور في إخبار تيمور» - القاهرة - ١٢٨٥ هـ .

إبن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) أبو الفلاح عبدالحى بن عبي بن محمد:
«شذرات الذهب في اخبار من ذهب» - ٨ ج - القاهرة ١٣٤٠ - ١٣٥١هـ

إبن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) ناصر الدين محمد بن عبدالرحمن بن علي :
«تاريخ إبن الفرات» - المجلد الرابع ج ١ ، ٢ والمجلد الخامس ج ١ - عنى
بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماخ - البصرة (مطبعة حداد)
١٩٦٧ - ١٩٧٠م.

إبن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/١١٣١م) عبدالرازق بن أحمد الفوطي البغدادي :
«الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة» - بغداد - (مطبعة
الفرات) ١٣٥١ هـ .

إبن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر :
«البداية والنهاية في التاريخ» - ١٤ ج - القاهرة (مطبعة السعادة) .

إبن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم .
«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» - ٤ ج - ج ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق
الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة - ١٩٦٠م ج٤ تحقيق الدكتور حسين
محمد ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢م.

إبن الوردى (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) أبو حفص زبن الءىن عمر بن مظفر بن عمر:
«تتمة المءصر فى آءبار البشر، وىعرف بءارىء إبن الوردى» ج٢ - القاهرة
(الطبعة الوهبة) ١٢٨٥هـ/١٩٦٨م .

أبو الفءا (٧٣٢هـ/١٣٣١م) الملك المؤىء عماء الءىن أبو الفءاء اسماعىل ابن
على :
«المءصر فى آءبار البشر، وىعرف بءارىء أبى الفءاء» - ٤ ج - استانه
(ءار الطباعة الشاهانبة) ١٢٨٦هـ .

أبو الفرج المظى (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) غرىفور أبو الفرج بن أهرون :
«ءارىء مءصر الءول» - بىروت (المطبعة الكاءولىكبة للاباء الیسوعىبن)
١٨٩٠م .

أبو المءاسن (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) جمال الءىن أبو المءسن یوسف بن ءغرى برءى
:
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» - ٩ ج - القاهرة (مطبعة ءار
الكتب المصربة) ١٣٤٨ - ١٣٦١هـ/١٩٢٩ - ١٩٤٢م .

البءرى الءمشقى (عاش فى القرن الءاسع هـ/ الءامس عشرم) عبءالله بن مءمء
البءرى المصرى الءمشقى المءروف بأبى البقاء :
«نزهة الأنام فى مءاسن الشام» - القاهرة (المطبعة السلفبة) ١٣٤١هـ .

الءهبى (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) أبو عبءالله مءمء بن آءمء بن عثمان قاىماز شمس
الءىن :
«ءول الإسلام» - ٣ ج - الهنء (مطبعة ءائرة المءارف النظامبة الكائنة
بمءبنة حىءر أباء الءكن) ١٣٣٧هـ .

- السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) عبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين.
١ - «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين» - تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد
- الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
٢ - «كتاب بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة» - القاهرة (مطبعة
السعادة) ١٣٢٦هـ.

القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبدالله:
«صبح الأعشى في صناعة الانشا» - ١٤ ج - القاهرة ١٩١٣ -
١٣٣١/١٩٢٠ - ١٣٣٨هـ.

الكتبي (ت ٧١٤هـ/١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن فخر الدين
:
«فوات الوفيات» - ٢ ج - تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد - القاهرة
(مطبعة السعادة ١٩٥١م).

المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس احمد :
«السلوك لمعرفة دول الملوك» - الجزءان الاول والثاني الى سنة ٧٤١هـ -
نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة (مطبعة دار
الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٣م.

ب- المصادر الاجنبية

Fabri, Felix,

The Book of Wandering (1480 - 1483), 2 Vols. 4
tram. by Aubery Stewart. London. Parts.

Joinville, Jean Sire de,

The life of Saint Louis, Panguin. 1973, pp. 161 -
353.

Matthew Paris

English History, tran. by J.A. Giles, 2 Vols.
London 1852-3.

Marino Sanuto,

Secrets for true Crusaders, Tran. by Aubrey
Stewart. London, 1896.

Marco Polo,

The Travels, Penguinm , 1974.

Oliver of Padernborn,

The Capture of Damietta, trans. by J. Cavigan,
Philadelphia, 1948.

Otto, Bishop of Freising

The two Cities, tran. by Ch. Mierow, New York,
1928.

Prete - Jean,

Lettre au le Emperor Byzantine Manuel
(1143-1180), dated 1155. Cf. Y. Kamal,
Monumenta Cartographica Africae. III Fasc IV,
1934(pp. 890-1).

Roger of Wendover,

Flowers of History, 2 Vols, tran by J.A. Gilles,
London, 1849.

Vitry, Jacques de

Letter de Jacques de Vitry, Leiden 1960.

ج - المراجع العربية والمعربة

ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام : بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية ،

ترجمة الى العربية حسن ابراهيم حسن، وعبدالمجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ، القاهرة ، د.ت .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

لوبيس التاسع في الشرق الاوسط ١٢٥٠ - ١٢٥٤م ، القاهرة، ١٩٦٥.

حسن ابراهيم حسن (الدكتور)

«انتشار الاسلام بين المغول والتتار» ، صحيفة الجامعة المصرية، ١٩٣٣.

سيزار ياروسلاف ، جوزيف فوزار :

«نقاط التلاقي والصراع بين اوربا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥م)» ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف : انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الاسكندرية، ١٩٨٣م.

عبدالسلام فهمي (الدكتور)

تاريخ الدولة المغولية في ايران ، القاهرة ، ١٩٨٠م

فايد حماد عاشور (الدكتور) :

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، القاهرة
د . ت .

فايز نجيب اسكندر (الدكتور) :

مملكة ارمينيا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠ - ١٣٧٥م. ٦٤٨ - ٧٧٦هـ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠م.

فؤاد عبدالمعطي الصياد (الدكتور) :
السلطان محمود غازان حاكم المغول واعتناقه الاسلام، القاهرة ١٩٧٩م.

لويس شيوخو اليسوعي :
«النصرانية بين قدماء الاترك والمغول»، مجلة الشرق ، السنة السادسة
عشرة ١٩١٣، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .

محمد صالح داوود القزار (الدكتور) :
الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، بغداد ، ١٩٧٠م.

مصطفى طه بدر (الدكتور) :
مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

د- المراجع الأوربية

- Abel Extrait d'un second memoire sur les relations
des rois de France avec les Empereurs
mongoles. (J.A. T. Iere serie).
- Atiya, Aziz-Susyal The Crusade in the Late Middle Ages,
London 1938.
- Barthold, W. Cinghis Khan. Em. Is.
Khwarezm. En. Is.
Turkestan down to the Mongol Invasion.
London 1928.
Turks, Turkman, Ghuzz, Berke, Kara-Khiti
Karluck, Arghun, Tatar, Ghazan, Rashid
al-Din Olcaito, Bourak. En. Is. Hulagu En Is.
- Bloch, F.

- Blochel, F. Introduction a l'histoire des mongoles de Rashid ed-Din. Leyde 1910.
 - Deux residents mongols en Chine, et en Asie
 - Centrale, de Tchinkhis Khan a Khoubilai, 1925.
 - Successaires de Tchinkhiz Khagan, Leyde 1911.
 - La Conquete des Etats nestoriens de L'Asie
 - Centrale par les Chites, Revue de L'Orient Chretien, 1925 - 1926.
- Bouvant L'Empire Mongolo. Paris 1927.
- Bratianu Recherches sur le commerce genois dans la mer noire au XIIIe siecle. Paris 1929.
- Bretschneider Medieval Researches 2 vols. London 1888.
- Brosset, M. Histoire de la Georgie. Petersbourg 1949.
- Brown, E.G. A Literary History of Persia II,III Cambridge 1964.
- Budge, Wallis History of the Life and Travels of Rabban Souma, and Markos of the Nestorian Church in Asia 1928.
- Cahun Introduction a l'Historie de L'Asie. Paris 1896.
 Cambridge Medieval History. Vol. IV.
- Canard, M. Un Traite entre Byzance et L'Egypte au IIIe siecle et les relations diplomatique de Michel VII Palcologue avec les Sultans Mamluks Bajbars et Oala'um. Melanges Gaudefroy Demombynes. Cairo 1937.
 Le Traite de 1281 entre Michel Paleoplogne et le Sultan Qala'un. Byzantiuon X (1935) pp. 669-680.
- Chabot Relations du roi Argon avec l'Occident. Revue de L'Orient latin 1894.
- Chapman, C. Michel Palcologue restaurateur de L'Empire Byzxantin (961-1281). Paris 1926.
- Chronique de Michel le Syrien. Trans. J.B. Chabot (1899-1919).

Oliver	The Chagatai Mughais J.R.A.A. 1888.
Parker, E.H.	A thousand years of the Tartars. London 1895. Mongolia after Genghizides and before the Manchus. Journal of North China. branch R.A.S. XLIV 1918.
Pelhiot, P	A propos de Comans. J.A 1920. I. Chwitiens d'Asie. Centrale et d'Extreme-Orient. 1914. Mongols et Papes, aux XIIIe et XIve siecles. Seance de L'Institut. 25 Octobre 1922. Les Mongols et la Papaute. Revue de L'Orient
Ross, Dension	History of the Mongols of Central Asia. London 1985.
Rockhill	The Journey of William of Rubruck. Hakluyt. London 1908.
Rubens Duval	Le Partiarche Mar. Jabalaha III et les Prineces Mongols de l'Adherbaidjan (Journal Asiatique, serie VIII T. XIII 1889).
Runcirman, steven	History of the Crusades. Cambridge vol. III 1954.
Sauvagct, Jean	Introduction to the History of the Muslim East. Second Edition. Cl. Cahen, Carlifornia 1965.
Secton, K.M., (ed)	A History of the Crusades. 5 Vols. Pennsylvania, 1958-1985.
Shrine and Dension Ross	The Heart of Asia London, 1899.
Sykes. Sir Percy	A History of Persia. Vol. II. London 1963. History of Bokhara. London 1873.
Vambry G.	The Golden Horde, Egypt. and Byzantium in their mutual relations in the Reign of Michel Palecologue. Annales de L'institut.

كتب وابحاث

الاستاذ الدكتور محمود سعيد عمران

استاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الكتب :

- ١- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب
اسكندرية ، ١٩٧٨ .
- ٢- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة ثانية ، دار المعارف ، اسكندرية ،
١٩٨٥ .
- ٣- ادارة الإمبراطورية البيزنطية ترجمة وتعليق - دار النهضة ، بيروت ،
١٩٨٠ .
- ٤- معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار النهضة - بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٥- معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ،
١٩٨٢ .
- ٦- مملكة الوندال فى شمال افريقيا ، دار المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٥ .
- ٧- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، اسكندرية ،
١٩٨٥ .
- ٨- القادة الصليبيون الأسرى فى أيدي المسلمين ، دار النهضة ، بيروت ،
١٩٨٦ .
- ٩- تاريخ الحروب الصليبية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- ١٠- حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ،
١٩٩١ .
- ١١- تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، دار المعارف الجامعية ، اسكندرية ،
١٩٩٦ .
- ١٢- أوروبا والمغول ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٩٧ .

ثانيا - البحوث :

- ١- نيقولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٢- المؤرخ جريجورى التورى، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٣- الإمبراطورية رومانوس الرابع ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ٨٢ / ١٩٨٣ .
- ٤- أركولف ورحلته إلى الشرق ، بحث منشور فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط - جامعة عين شمس ، المجلد ١٣ دار المعارف، ١٩٨٥ .
- ٥- كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام فى عصر الراشدين ، بحث منشور فى أعمال المؤتمر الدولى الرابع لبلاد الشام - الأردن عمان ، ١٩٨٧ .
- ٦- صلاح الدين من الاسكندرية إلى حطين ، بحث فى المؤتمر الدولى لذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين ، بغداد ، ١٩٨٧ .
- ٧- السفراء والقناصل فى عصر بالحروب الصليبية ، بحث القى فى الموسم الثقافى لجامعة بيروت العربية - بيروت ، ٨٧ / ١٩٨٨ .
- ٨- الهدن بين المسلمين والصليبيين فى عصر الدولة الأيوبية ، بحث القى فى ندوة العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ٢٠-٢٢ أكتوبر ١٩٩٢ كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٢ .
- ٩- رحلة الشهيد أنطونيوس إلى بلاد الشام ومصر ٥٦٠ - ٥٧٠ م ، بحث القى فى ندوة العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الثانية ، ٣٠-١٠ الى ١-١١-١٩٩٣ ، كلية الآداب - جامعة المنيا ، ١٩٩٣ .
- ١٠- تحصينات مدينة القسطنطينية فى مواجهة الغزوات الخارجية ، بحث القى فى ندوة الحضارة الاسلامية وعالم البحار - اتحاد المؤرخين

العرب، القاهرة ٦-٨ نوفمبر ١٩٩٣ .

١١- مصر فى كتب الرحالة الاجانب فى العصر البيزنطى ، بحث القى فى مؤتمر الاسكندرية الدولى حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ٢٢ - ٢٦ يناير ١٩٩٤ .

١٢- دور الحركة الصليبية فى تكوين مملكة البرتغال ، ندوة الأندلس :
الدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٣-٢٥ أبريل
١٩٩٤ .

١٣- حولية سقوط لشبونة ١١٤٧م ، ندوة الغرب الاسلامى والغرب
المسيحى خلال القرون الوسطى كلية الآداب ، الرباط ٢ - ٤ ، نوفمبر
١٩٩٤ ، نشر ١٩٩٥ .

١٤- السلطان قسلاوون بين أوروبا والمغول ، بحث القى فى ندوة مدينة
طرابلس لبنان بمناسبة مرور ٧٠٠ عام على بناء الجامع المنصورى
١٧-٢٤ نوفمبر ١٩٩٤ .

١٥- روسيا وسقوط الامبراطورية البيزنطية ، ندوة تاريخ وحضارة العصور
الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية - ٢٤ - ٢٥ ابريل
١٩٩٤ .

١٦- تحصينات مدينة دمياط فى عصر الحروب الصليبية ، ندوة التاريخ
العسكرى لشمال مصر عبر العصور ، كلية لآداب ، ٨ - ٩ اكتوبر
١٩٩٥ .

١٧- وليم آدم واستعادة الأراضى المقدسة ، ندوة الإطار التاريخى للحركة
الصليبية - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٨ - ٣٩ نوفمبر ١٩٩٥ .

١٨- القدس فى كتب الرحالة الاجانب فى العصر البيزنطى ، ندوة القدس:
التاريخ والحضارة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ٢-٥ نوفمبر
١٩٩٦ .

١٩- العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد معركة عين جالوت

- ١٢٦٠ - ١٢٧٠ م ، بحث القى فى ندوة اقليم الخليج على مر عصور التاريخ - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٣ - ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦ .
- ٢٠- شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ، بحث القى فى ندوة بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى « التاسع الهجرى » ، القاهرة ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ، ١٩٩٧ .
- ٢١- حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين فى مدينة الاسكندرية ٥٦٢ هـ ، بحث القى فى ندوة سواحل مصر الشمالية عبر العصور - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع المجلس الاعلى للثقافة ٢٢ - ٢٣ ابريل ١٩٩٨ .
- ٢٢- الحركة الفكرية فى الاسكندرية فى القرون الاولى للمسيحية ، مشاركة فى الكتاب الذى اصدرته محافظة الاسكندرية (د.ت) .
- ٢٣- المراكز الحضارية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى ، بحث القى فى المؤتمر الدولى الثالث (التبادل الثقافى بين شعوب البحر المتوسط) - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع وزارة الثقافة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨ .
- ٢٤- العرب فى مدونة المؤرخ السريان زكريا الملقى ، بحث القى ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة تحت اسم « أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب » ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨ .

ثالثا - كتب باللغة الانجليزية :

Contributors,

Chronicles of the Crusades, Eye - Witness Accounts of the Wars Between Christianity and Islam - Edited by Elizabeth Hallam, London 1989 .

رابعاً - بحوث باللغة الأجنبية :

- 1- King Amalric and the Siege of Alexandria, in the First Conference of the Crusades and the Latine East, Cardiff 1 - 4 Cardiff 1985, U.K.
- 2- Truces between Moslems and Crusaders (1174 - 1217) in Autour de la Premiere Croisade Actes du Colloque de la society for the Study of the Crusades and the Latin East (Clermont - Ferand 22 - 25 Juin 1995 France)Reunis par Nichel Balard, Publication de la sorbonne, Paris 1996.
- 3- John Kinnamos As a Historian of the Second Crusade. In the international symposium on Crusade. Istanbul 23 -25 June 1997 .
- 4- Edward I king of England and the Holy land (Jerusalem) In the 35th Innernational Congress of Asian and North Af-rican studies, Budapest 2 - 21 July 1997 .

To: www.al-mostafa.com